العالم 2200

(1) 2020 حتى 2100

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

الهواري، عبد القادر
العالم 2200/ عبد القادر الهواري
نيوبوك للنشر والتوزيع
198 ص؛ 17 × 24 سم
تدمك: 9789779960180
رقم الإيداع: 17900 / 2019
1 – العالم العربي – الأحوال الاقتصادية
أ – العنوان

دار النشـــر: نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: العالم 2200
الـكـاتـب: عبد القادر الهواري
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2020

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع
6 عمارات الدفاع الوطنى ـ حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: 01092673274
newbooknb@gmail.com

عبدالقادر الهواري

العالم 2200

(1) 2020 حتى 2100

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

مقدمة

سوف تتطور الحضارة البشرية في القرنين الحالي والقادم من حضارة قومية إلى حضارة إقليمية ثم كوكبية، وكأعضاء في حضارة من النمط الأول ستتمكن الدول من استخدام وتخزين طاقة الشمس وينخفض الفقر أكثر فأكثر وتتحسن جودة الحياة، ومع ذلك ستبقى فوارق اقتصادية بين الدول قبل توحيد العالم. ستسمح التعديلات/ الطفرات الجينية وعمليات التجميل بظهور طفرات بشرية محورة، مما يخلق نظام طبقي آخر مثير للقلق في عالم المستقبل، وتسمح التحويرات الجينية بمواليد حسب الطلب، فيأخذ الجنس البشري أشكال جديدة في انظمة بيئية جديدة، سيصبح الناس أكثر قابلية للبرمجة وسيزدهر القرن الثاني والعشرين بالصناعات التي تنبع من أسواق التحوير التي تخلف انقسامات اجتماعية.

بحلول 2100 سيبدأ العلماء بتقديم التركيب الجزيئي للأشياء بحيث يتم إنتاج المواد، فيغير تصنيع أي شيء، فمثلًا ستصنع شرائح اللحم من خلال ترتيب الذرات، ومن ثم الأحماض الأمينية، وبالتالي البروتينات، بمعنى آخر سيكون هناك لحم ذا جودة مخبرية في متناول الجميع بدلًا من اللحم الحيواني، وسيصنع حسب الطلب قبل أن تتحول منتجات الغذاء لكبسولات، بالإضافة إلى الزراعة العمودية واسعة النطاق التي تمنع الجوع في المدن العملاقة والمكتظة بالسكان بحيث تسمح بعودة بقية المخلوقات إلى بيئاتها.

ستسمح التطورات في العلوم الطبية والاجتماعية بتحسين جودة الحياة والرعاية الصحية لمليارات البشر الذين يعيشون حياة أطول وأكثر سعادة من ذي قبل، حيث كسر القوميّة وحواجز العزلة والفكر الغربي وتوجهاته ومواقفه وسر ضعفه وجاذبيته وقلة المشاريع الكبيرة فيه وللمفكرين الغربيين الذين يؤثرون على فكرنا ومستقبلنا،

إضافة إلى الاستنفار العالمي المطول وصعود دول وأقاليم ومشاريع وسيناريوهات عالمية كبرى وتوطين تعدد الأقلمة، وهذا شيء حيوي، حيث ان التحضر المتزايد سوف يؤدي إلى نشوء مدن عملاقة يزيد سكان كل منها عن عشرات الملايين من البشر في مناطق مثل بكين ودلهي ومومباي وغيرهما، سيكون هناك تجمعات كبيرة تسكن في أبراج مفردة، وغالبًا ستعود معظم الأرض للطبيعة عن طريق الحد من التمدد الأفقي وتجميع البشر في نظام مدن عمودية ذات تصميم جديد، وستولد مباني المستقبل احتياجاتها الأساسية كالماء والكهرباء.

أما الطرق فسوف تتحول أكثر لصالح المشاة وسيكون المشي وركوب الدراجات والسيارات الطائرة والمواصلات العامة ذاتية القيادة المعيار الجديد، ستشهد البنى التحتية تحولات في عدد كبير من الدول عبر الابتكار والاختراع البشري ومن خلال تصميمات الروبوتات «والإنسالي فيما بعد». أما الترفيه فسوف يأخذ الطابع الشخصي في عصر آلي، فالإنتاج الفني سيكون نتاج الذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي. ستتفوق الروبوتات إلى حد كبير على البشر بكل طريقة ممكنة وستحل محلنا في كثير من مناحي الحياة اليومية وتصبح أكثر إنتاجية وإبداع من البشر. كما تصنع الروبوتات نماذج لذواتها أفضل وأحدث بحيث تتسع الفجوة بين البيولوجيا والتقنية إلى هوة كبيرة.

إنني أحذر الجموع أفراد ومجموعات وشعوب من سياسة بلا مبادئ وقيم؛ رفاه بلا ضمير وأخلاقية؛ ثروة بلا عمل حقيقي وإنساني؛ معرفة بلا فكر وشخصية؛ اقتصاد بلا إنسانية؛ علم بلا خدمة للبشرية؛ وعالم بلا تضامن، تسامح، تكاتف وتقاسم للمسئولية. وسوف نتناول نفس موضوع الكتاب في «ج 2».

***

الجزء الأول

سيطرة علمية على البشرية

تأسس معظم الفكر الحالي عن الألفية الثالثة في التسعينات، حيث كان الناس يفكرون في اليوم الذي سيأتي فيه هذا القرن الجديد، واعتادوا في هذا القرن على صخب تطور شكل الأغذية وانفجار تقنيات الكمبيوتر والإنترنت، ولكن كانت المشكلة في الحواسيب انها لا تستطيع معالجة التواريخ ما بعد 2099 لكنها ستحل.

القرن الحادي والعشرين هو القرن الحالي في التقويم الميلادي وبدأ فعليًّا في 1 يناير 2001 وسينتهي في 31 ديسمبر 2100، وهو القرن الأول في الألفية الثالثة. وكان له تأثير كبير على الثقافة حتى من قبل أن يبدأ، فقد كان هناك تنبؤات عن: ماذا سيحدث للاتجاهات التقنية والثقافية والاجتماعية؟، وماذا يخبء لنا القدر؟. ومجمل ماسبق من القرن الحادي والعشرين كان في احتلالات وصراعات وحروب الغرب الكوكبية، تارة ضد المسلمين وتارة ضد وتارة بين الغرب والغرب كحروب أهلية وتارة ثالثة ضد جنوب الأرض، إضافة للتقدم العلمي والفردي والمالي والمادي، وهو يشبه ماسبقه من القرن ال20، كما كانت هناك مفاجئات أخرى، حيث أصبحت الصين وروسيا قوى كبرى ومرشحة أن تصبح عظمى.

***

الفصل الأول

الحضارة الكوكبية

تمايز الحضارة الكوكبية

في كتابنا "حضارات الكون العُظمى" قسمنا الحضارات إلى خمسة مستويات، وسنذكرها بتبسيط على "مفردة"، وهى الحضارة الكوكبية: وتبدأ من الحضارة الأولية (وهى قسمان حضارة أولية من النوع الأول وأخرى من النوع الثاني/ ماقبل التاريخ وما بعده ولكل منهما تقسيماته المعتادة، وربما دخلت في تقسيم ثالث إذا حدثت طفرة أو ماشابهها للإنسان أو التكنولوجيا(حتى نستطيع التحكم في كل الكوكب والكائنات بما فيها الإنسان وإنتاج سلالات جديدة بمميزات كبيرة منه ومن كائنات أخرى)، وأيضًا التحكم في جميع ظواهر الكوكب وتسخير كل الطاقات القادمة، وجمعها وتخزينها لتلبية الطلب المتزايد على الطاقة، وكذلك القيام بإعادة توزيع الطاقة القادمة للأرض من الشمس-كمثال-، وهذا يعني أننا بحاجة إلى تعزيز إنتاج الطاقة الحالي لدينا أكثر بـ100000 مرة لنصل إلى هذا الوضع.

ويجب أن نقوم بتسخير طاقة الأرض بأكملها والاستفادة منها بالإضافة إلى التقدم الكبير في المجال الطبي والتكنولوجي ونظم الاتصالات والنقل، وأن تكون جميع القوى الطبيعية في الأرض تحت سيطرتنا، وإمكانية تقليل زمن هرمها ليطول عمرها أكثر مما كان متوقع. وأصحابها يعرفون كل كبيرة وصغيرة في محيطاتهم والسيطرة على البراكين والزلازل..إلخ. ولا توجد حضارة صفرية، فدور الإنسان والعلماء والفلاسفة والتاريخ البشري من الظلم والإجحاف إنكاره، فليس صحيح أن نعتبر حضارة "صفر"، فما بين الصفر والرقم واحد كسور عديدة يمكنني أن أصل بها لمليارات من الكسور.

وقبل مرحلة التحول من الحضارة الكوكبية للنجمية سيتحكم الإنسان في المجال المنغناطيسي للكوكب، وبالتالي سرعته أو إبطائه والإستفادة منه، ثم في مرحلة الحضارة النجمية يستطيع بالمثل التحكم في كل ماذكرنا - ولكن على المستوى النجمي- وفي مجال النجم المغناطيسي ومثله كل ترابطات المجرة وعلاقاتها ومداراتها، وبالتالي التأثير في

شكل وصيغ النجوم والمجرات وترابطاتها، ومن ثم إمكانية صنع طبيعة وبيئة ملائمة متناسقة مع الطبيعة والبيئة العادية أو داخلها أو التأثير عليها من الداخل والخارج أو أي من الجهتين.

وللأسف من أخطر حروب المستقبل، هى الحروب الكوكبية والنجمية فيما بينها داخليًّا وضد بعضها البعض. وللأسف هى من نوع حروب تدمير حضارات كوكبية ونجمية جزئية وكاملة، لكنها ليست نهائية، أي لاتقضي على كل شيء بنسبة 100 ٪. وهو ما نعتقده فيما حدث بكوكب الأرض في الماضي ومن جراء الكوارث القادمة.

ويعتقد "كاكو" أنه إذا سارت الأمور بشكل جيد، فإننا سوف نصل إلى هذه الحضارة في غضون 100–200 عام، لكني أرى اننا لن نتمكن منها قبل 150– 250 عام، وفق وتيرة التقدم المعتادة، لكن يمكن كسر هذا الزمن إذا ركزت البشرية في التعاون والتكامل، خاصة العلمي والإنساني والمستقبلي بتخليق عناصر بدلًا من استخراجها أو كليهما، من ثم القدرة على التعديل الوراثي وإضعاف المرض والشيخوخة ودخول التكنولوجيا في جسم الإنسان «الذكاء والأعضاء الذكية/ التحول نحو الإنسالات». كما ان الأجهزة الإلكترونية المتكيفة مع الجسم، مثل سماعات الأذن التي تقيس عدد نبضات القلب وأجهزة الاستشعار عن بعد التي تثبت في الملابس والأجهزة التي تحدد أقصر الطرق للوصول إلى الهدف والأحذية المزودة بشاشات اللمس وغيرها. وستساعد الأحذية المزودة بشاشات اللمس المكفوفين، وتفكيك المواد الضارة وإعادة تشكيلها في لمح البصر في هيئة مواد جديدة نافعة. كذلك التحكم التقني بقوة الإيحاء والتخاطر، فالواجهات التي تقرأ الرسم الكهربائي لدماغ المستخدم وتحوله إلى أوامر ستظهر تباعًا في الأسواق، هذه الواجهات ستساعد المصابين بالشلل على التحكم بمختلف أنواع الأجهزة التعويضية وربما إعادة حاسة البصر لمن فقدها.

فما جعلنا بشر ويمنحنا القدرة على السيطرة على كوكب الأرض هو استراتيجيتنا الفريدة في التعاون والعمل مع بعضنا لحماية أنفسنا وتوفير الغذاء واعتنائنا ببعضنا البعض. ورغم كل هذه الإنجازات إلّا انها ضئيلة مقارنة بالكون وأسراره وقوانينه،

فكل ما يتحصل عليه الإنسان في هذه الحضارة نجدها نظرة ضيقة من زاوية كوكب وللأسف كوكب الأرض فقط. كل أطروحاتنا وفرضياتنا من زاوية واحدة تقريبًا، لن ترقى ان تكون قوانين كونية عبر سبر القرون، لكنها ستصبح تمهيد لحضارة كونية، مع كل احترامي وتقديري لكل علمائنا ومجهوداتهم الكبيرة عبر التاريخ.

تليها الحضارة النجمية التي يستطيع أصحابها التحكم في النجوم وهم أكثر ديمومة وفيها يتكون جسد الإنسان مع مكونات أخرى. وثالثها الحضارة المجرية التي تستطيع التحكم في كامل الطاقة الخارجة من الفضاء، ورابعها الحضارة الكونية التي يمكنها السيطرة على كامل الكون حركة وتمدد وتقليل زمن الإنهيار، وخامسها حضارة مابعد الكونية التي تهتم بعلاقة كونها بالأكوان الأخرى، وربما الحضارة المكون" يحوي أكوان" التي يتفاعل فيها أصحابها مع أكوان مكونات أخرى. وفي هذا الكتاب سوف نتناول الحضارة البشرية"ما قبل الكوكبية حتى الولوج إلى الحضارة الكوكبية".

والحضارة البشرية على أعتاب الوصول للحضارة الكوكبية، حيث لم تبلغ بعد حد التحكم في كوكب الأرض ومصادر طاقته كالبراكين والزلازل، ونحن نحصل على طاقتنا من نباتات ومواد عضوية/ ميتة في صورة نفط وغاز وفحم. كما ان وتيرة سرعة التقدم ستزداد بشكل أكبر كلما تعدينا من حضارة لأخرى.

وكما قلنا بسبب تركيز قيادات الدول الكبرى – في كل العصور تقريبًا– على السيطرة على دول أخرى واللحاق بكنف مصالح أفراد وعائلات تكترث من المال وتسيطر من أجل السلطة والمتعة دون طائل علمي وخير عام للبشرية، بل وتوظيفهما لأنفسهم فتعيق سرعتنا. وكذلك جري الشعوب وراء المتع والنهم والشهوات والرغبات والصراعات والحروب وتبديد طاقاتها وقواها، بدلًا من التركيز في العلم والتقدم والرقي والتعاون والعدالة والمساواة الحقيقية للعالم، ولولا ذلك لكنا عبرنا مرحلة الحضارة الكوكبية قبل عام2000، لكننا تأخرنا كثيرًا، وهو ماسوف يكبدنا الكثير.

العالم حتى 2030

الكرة الأرضية كانت مجرد كوكب عادي، وفي الواقع لم تكن القرون الماضية جيدة جدًّا، وربما يمر الكوكب بأسوأ القرون اضطراب ففي لحظة مفصلية ببدايات الواحد والعشرين مراجعة الأفكار في مثل هذه اللحظات ضرورية، ولكن بفاصل مائة سنة إلى الخلف، فيها الكثير من المتعة والإثارة والإفادة في المقارنة عن تصورات الناس وهم يودعون القرن التاسع عشر واستقبال العشرين.

ومطلع القرن العشرين راهن العلماء عليه باعتباره بداية عصر لتقدم لا نظير له، وبشر المصلحون بظهور مجتمعات بدون طبقات، وذهب القيصر غليوم الثاني إلى اعتباره العصر الذهبي للشعب الألماني. المتفائلون ذهبوا إلى حدوث كل هذا بشكل ثابت إلى الأحسن حتى تتحول الكرة الأرضية إلى جنة خضراء طيبة الثمرات باردة الشراب.

في عام 1894 عرض الكيميائي الفرنسي مارسيلين بيرثيلوت في محاضرة له عن أهمية الكيمياء عام 2000 صورة العالم على شكل خلاب بانتهاء عصر الزراعة التقليدي وتكوين الغذاء صناعيًّا والاستفادة من الطاقة من فرن باطن الأرض وتحرر الإنسان من الكفاح اليومي لتحصيل خبزه، وأما الحروب فستصبح موضة قديمة للذكرى.

وبعد خمس عشرة عام في 1899 توقعت داعية السلام النمساوية بيرت فون سوتنر أن القرن العشرين لن يمضي إلى نهايته قبل أن يلقي المجتمع الإنساني من يده منجل الحرب وحصاد القتلى واعتبار مؤسسة الحرب غير شرعية. ولكن الكاتبة النمساوية ماتت في يونيو 1914 قبل اندلاع الحرب الكوكبية الكبرى بخمس أسابيع فقط، وكان حجم الإجرام وكمية الدماء التي سالت الصورة المقلوبة للوقت الذهبي المبشر بالعقل والسلام الذي ساد الفترة ماقبل الحرب على النحو الذي عبر عنه الفيلسوف البريطاني برتراند راسل أن الحرب الكوكبية الأولى كانت زلزال للفكر السائد ولم تكن الحرب

على البال والحسبان، خلاف للحرب الثانية التي كانت متوقعة ونتيجة منطقية لمعاهدة فرساي .القرن العشرين كان متوقع له إذًا تدشين السلام وقهر الجوع ونشر المسرة في القلوب، فهل كان قرن رحماني بحق أم قرن دموي؟

بقدر ما صاحب التفاؤل مطلع القرن العشرين بقدر ما كان دموي، ففيه اشتعلت أعظم حربين شملت المعمورة كلها إلا قليلًا، وانتحر فيها في "مأساة" جماعية عشرات الملايين في رحلة مطبقة إلى الجنون الكامل.

وبقدر إغلاق ملف القرن العشرين بقدر تباين التوقعات للقرن الواحد والعشرين في موسيقى متنافرة وترنيمة نشاز؛ فالطيف ينزلق إلى حجم الكارثة البيئية أو يرتفع إلى جراحة الجينات والتحكم بمد عمر الإنسان بما يشتهيه المليونيرات والملياردیرات العواجيز.

مشكلة ثقب الأوزون من جهة ومشروع البنك الأمريكي الخلوي الذي يحافظ على الحياة في الخلية لفترة عشرة آلاف سنة يظهر التناقض في الوضع الإنساني، فبقدر زخم التدفق العلمي وانفجاريته وتسارعه، بقدر بروز وتضخم مشاكل تتطلب استنفار إنساني لحلها بعمل مشترك.

وإذا كان السرطان يقضي على صاحبه في النهاية إذا لم يتدخل العلاج الثلاثي: الجراحي والكيمياوي والشعاعي أو حتى الجيني، فإن التخريب المستمر للبيئة من جهتين استنفاذ الموارد وجنون الاستهلاك سيعمل بنفس آلية السرطان؛ فيحدد شروط الحياة أو يقود العالم للمشكلات.

هل يعرض الانفجار السكاني وانتفاخ الكرة الأرضية بالبشر وصدمة المناخ كوكبنا للغرق والغوص في الفوضى والمجاعة ؟ أم أن أبحاث الجينات والزخم الإلكتروني سيحملان الأدوية الشافية والأغذية الوفيرة والنظام المحكم؟ هل سينتهي العالم على الشكل الذي توقعه السياسي الأمريكي صامويل هنتنجتون في صدام مروع بين الحضارات؟ أم يتشكل العالم بنسيج إلكتروني موحد يحول الكرة الأرضية إلى قرية كبيرة موحدة يتصل البشر بعضهم ببعض بشكل سلمي؟.

قبل 150 سنة حاول الفيلسوف الدنماركي سورين كيكيجارد تصور المستقبل فرأى أن المشكلة في رحم العلوم الطبيعية ولا مستقبل للأجيال القادمة ! والعصرنة والحداثة تحمل في أحشاءها الهول لا أكثر! وما سيحل بالجنس البشري هو من حجم كارثة لا يحيط التصور بحوافها!

أما الكاتب الفرنسي ي. م. سيوران المتوفي 1995 حاول أن يعدل من سوداوية الصورة ويرسمها في اتجاه آخر، أن التقدم الإنساني حاصل، ولكن بدون تحقيق تقدم فعلي، وكل خطوة ضئيلة في التقدم سنندم عليها فيما يقبل من أيام، وكل إنجازات الجنس البشري ستتوجه في النهاية ضدنا وإلى صدورنا!

ويتشكل اليوم تيار قائم بذاته في تأسيس علوم للمستقبل وعلى الرغم من اهتزاز تصور المستقبل وعدم يقينه؛ فإنه لم يفت في عضد الناس، وشكل لهم متعة خاصة بدءًا من عرافة دلفي في اليونان قديمًا أو عرافو الجاهلية، على الشكل الذي نقلته لنا السيرة في قصة "شق وسطيح" فأما الأول فكان نصف إنسان بذراع وساق، وأما الثاني فلم يكن جسمه يحوي العظام، هكذا تروي كتب التراث، وانتهاءًا بالمجموعات العلمية الجديدة.

علم المستقبل يحمل القدرة على التنبؤ، ومن مزايا العلم أو ما يجعلنا نسمي أمرًا ما علم خضوعه للتنبؤ؛ فهذان هما شرطا العلم على الأقل، والقرآن لم يدين العقل ولم يتهم العلم، ولكنه سحب الثقة من بعض الظن.علم المستقبل إذًا ليس رجمًا بالغيب؛ بل تحقيقًا للعلم، على شرط أن يمضي في تحقيق آلياته في قناة علمية علنية مكشوفة خاضعة لسنة الله في خلقه.

وموضوع دراسة المستقبل لم يعد نوادر للحكاية، بل تحول إلى دراسات ومعاهد ومعادلات رياضية وإحصائية؛ فمنذ مطلع التسعينات احتشدت مظاهرة ضخمة مرتين في ألمانيا مكونة من تسعمائة عالم وتقني في دراسات أطلق عليها دراسات دلفي تقليدًا لمؤسسة دلفي للعرافة اليونانية قديمًا، بالتعاون مع معهد فراون هوفر المختص بتقنية الأنظمة وأبحاث التجديد في مدينة كارلسروهه في الجنوب الألماني، تم درج مائة وثلاثون مشروع في ثماني حقول معرفية، حيث أظهر قسم تسجيل الأفكار تجميع لمادة علمية تقترب من أفلام الخيال العلمي فمن جعبة المستقبل سيظهر أشياء مثل:

1 – جهاز صغير يحمله كل واحد منا بحجم اليد هو جهاز يضم مجموعة من الأنظمة بنفس الوقت: تليفون دولي للكرة الأرضية يتكلم فيه المرء مع أطفاله وعائلته أينما كان..إلخ ونحن اليوم نراه.

2 – مسابر موضوعة على الجلد تقيس بانتظام وبشكل ماسح دوري نظم القلب وطبيعة الدوران وإفراز السكر وحرقه وضغط الدم. كذلك النشاط الجنسي وقوته، ونشاط الغدة الدرقية..إلخ.

3 – وجود أعضاء صناعية ليس من النوع الذي اعتدناه، بل مطور من خلال صناعة الجينات والاستنساخ، كأطراف تستجيب للنداء العصبي، وخرفان بدماء إنسانية؛ فبعد النعجة دوللي جاءت النعجة الجديدة بوللي، والأخيرة أمكن استيلادها مع إدخال جينات بشرية إليها، بحيث يمكن مثلًا تصنيع الدم البشري فيها، الخروف خاروف حيواني، والدم دم إنساني، فكل خروف يذبح للأكل يؤخذ دمه لبنوك الدم ما يشبه شلالات دم متدفقة بغير نفاذ، أو قلوب بشرية من ثيران، أو صوانات آذان مستنبتة من ظهور جراذين، أو عروق دموية بكل المقاييس من الأبقار وهكذا، مصانع حيوية لا حدود لمدها للمشافي وقاعات العمليات الجراحية.

4 – الاعتماد على طاقة الشمس كطاقة نظيفة، أو إنشاء محطات تنظيف مثيرة باستخدام الهيدروجين لامتصاص غاز الفحم المنطلق إلى الغلاف الجوي، أو حتى ترقيع ثقب الأوزون بإبرة واشعة كهربية وقماش من حقل كهرومغناطيسي.

كل هذا يمكنه في غمضة عين ان يعود بالحياة والحضارة 200 عام إلى الوراء وتقف كإنسان لم يتغير فيك شيء وكل ما حولك تغير، وإن صح التعبير لم يعد محمود أبدًا، فبسلاح من نوع غير مسبوق، لا يستهدف الأرواح وإنما الحضارة والكهرباء والتطور وكل ما عمل عليه علماء مئات السنين "القنبلة الكهرومغناطيسية" التي تجعل من الأسلحة النووية أسلحة تقليدية وهى الآن مصدر الخطر الأكبر للحضارة البشري. ففي أقل من غمضة عين يمكن للقنبلة الكهرومغناطيسية أن تمحو كل شيء تكنولوجي

وحضاري وإلكتروني يسقط كالطوبة. القنبلة الكهرومغناطيسية أو القنبلة الإلكترونية هى سلاح يهدف إلى تعطيل الأجهزة الإلكترونية من خلال النبضة المغناطيسية الكهربائية الكبرى"النبض الكهرومغناطيسي" التي يمكنها التداخل مع الأجهزة الكهربائية والإلكترونية ونظم تشغيلهم لإلحاق أضرار فيهم وإصابتهم بالتلف، بل وربما إعادة دولها إلى العصر الحجري، فعلى سبيل المثال إذا ما قامت كوريا الشمالية بتفجير قنبلة نووية صغيرة نسبيًّا (10 كيلو طن) بين 30 و300 ميل في الغلاف الجوي فيمكنها إرسال ما يكفي من القوة للإضرار بالإلكترونيات من الساحل إلى الساحل في الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي فهى قادرة على شل الولايات المتحدة الأمريكية وبسرعة الضوء 299.00كيلو/ ثانية، أي في أقل من غمضة عين قد تعود الولايات المتحدة الأمريكية إلى العصور الوسطى حضاريًّا.

كل هذا وأكثر يشم منه المرء الرائحة في تطوير جراحة الجينات وعالم الاستنساخ والزحف الإلكتروني والنادي الديموقراطي في الإنترنت، وديكتاتورية الخبراء وضمور الدولة القُطرية إلى وظيفة موظف إداري تابع في المنطقة، وبروز شركات صغيرة جمة النشاط متقدة الفعالية مع الشركات العملاقة، إلى انقلاب نوعي في السياسة الدولية، وبروز الإنسان العالمي الثقافة مع بعض الثقافات المحلية الذي يتصل بالمعلومات.

ويمكن أن تكون هذه وقائع فعلية في الثلاثة عقود من الألف الثالثة الميلادية. ونتيجة الطفرة في العالم أصبحت المعارف العلمية تتضاعف كل عشرة أعوام وتذهب أشد التقديرات تحفظ إلى أن العلماء الذين يعيشون على الأرض يبلغون ثلاثة أرباع العلماء على مدى التاريخ الإنساني، وقد أصبح هذا جليًّا في المسافة الفاصلة بين نتائج البحوث واكتشاف تطبيقاتها العملية، وأصبح هناك ما يزيد على 30 مليون اختراع مسجلة، تزيد سنويًّا بمعدل مليون اختراع.

أما الذين يبتعدون عن الأديان السماوية والعلم – أصحاب دعاوى نهايات العالم والتاريخ – أذكرهم بأن ذئب وقع يومًا في مصيدة لأحد الصيادين فتألم للغاية، وحاول الفرار وتقطيع الحبال فأعيته، وبينما هو على هذه الحالة مر به ثعلب شارد، فنظر إليه

وتأمله متعجبًا من حالته السيئة وجروحه النازفة، فحدق فيه الذئب بنظرات ضارعة وعين حولاء ثم سأله: يقولون أن القيامة أصبحت قريبة فهل هذا الكلام صحيح؟ فرد الثعلب: لا أعرف شيئًا عن القيامة فهى مغيبة لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن الشيء الأكيد الذي أعرفه أن قيامتك اقتربت.

في هذه الأثناء لمح الثعلب الصياد يقترب بحذر حاملًا بندقية معمرة فصاح وقفز: أو ربما قيامتي معك فلأنجو بجلدي، وفر لا يلوي على شيء.

***

العالم من 2030 حتى 2050

يمكن القول أن مخاطر الحروب البيولوجية والكيميائية والنووية بدأت تتراجع لمصلحة حروب أخطر يتم الإعداد لها بسرية تامة داخل المصانع الحربية للدول الكبرى. إنها صدمة المستقبل التي تشكل مزيج من النانوتكنولوجي والأسلحة الليزرية والفضائية والموجات الإشعاعية "تكنولوجيا القرن ال21" والإرهاب الحيوي حيث تطبيقات التكنولوجيا البيولوجية التي تنطوي على الكثير من الإيجابيات وكذلك السلبيات التي من أبرزها انتشار القرصنة البيولوجية.

والخبرة التقنية لا تضمن الاستخدام العقلاني للتكنولوجيا في مقابل المال، فقد تتسبب هذه التهديدات في وقوع أخطاء حيوية bio-error أو الإرهاب الحيوي bio-terror، حيث إن البكتيريا المعدلة وراثيًّا أو الفيروسات الفتاكة قد تقع في أيدي الإرهابيين مما يتسبب في دمار شامل من الصعب تقدير مداه في الوقت الحالي. لذا لا بد أن يستعد العالم لهذه التطورات خلال العقود القادمة والتي قد تبدو مستبعدة في الوقت الحالي. ويمكن تحديد الملامح الكبرى للعالم خلال المدى الزمني القصير والمتوسط 2025 طبقًا لدراسة بريجنسكي في الآتي:

1 – لن تكون الولايات المتحدة متمتعة بذات المكانة الدولية والتفرد بالزعامة خلال الفترة المشار لها نظرًا للتوزع الجيوسياسي الذي يصيب مؤشرات القوة المختلفة فإذا كان المدى الجغرافي للغرب قد تقلص بفعل انكماش الظاهرة الاستعمارية فإن تمدده الجيوسياسي والاقتصادي تواصل. وما يؤشر على توزع القوة هو تحويل مجموعة الثمانية إلى مجموعة العشرين أي أن المشاركين في صنع الاتجاهات الكبرى تزايدوا، وهو ما يجعل القدرة على الوصول لقرار دولي أكثر تعقيدًا. علاوة على أن إعادة توزيع القوة تسير بوتيرة أسرع مما عرفته النظم الدولية التاريخية، فخلال

القرن الممتد من 1910–2010 تغير توزيع القوى خمس مرات، وسيؤدي ذلك إلى إعادة النظر في إجراءات التصويت في المنظمات الدولية مثل مجلس الأمن والبنك والصندوق الدوليين.

ودور الغرب المكون من الولايات المتحدة وأوروبا في النظام الدولي المفترض مرهون بسلوك الولايات المتحدة، لاسيما أنها تتمتع بقوة الجذب المعنوية والمادية.

2 – إذا كانت الصين هى القوة الأكثر تسارعًا في الصعود فإنها لن تتمكن من تحمل أعباء القيادة قبل 2035 – بل ليست متعجله لهذا–، وهو ما يجعل بنية وتفاعلات النظام الدولي أقرب للنمط غير المستقر، ويعزز هذا بالتنافس في آسيا بين القوى المركزية وعلاقات العداء بينها "الهند والصين وباكستان" من ناحية و"اليابان والصين وكوريا" من ناحية أخرى، إضافة إلى عدم تماسك الاتحاد الأوروبي وتركه لأعباء الحفاظ على موقع الغرب في النظام الدولي على كاهل الولايات المتحدة، لكني أرى تحركه لأخذ دور بعيد عن الولايات المتحدة وسيطرتها عليه.

3 – لمواجهة كل ما سبق الولايات المتحدة ليس أمامها إلا أن تعمل على ترتيب أوضاعها الداخلية لتتمكن من التفاعل الذكي مع التحديات الكثيرة وغير المسبوقة التي يشهدها المجتمع المحلي و الدولي. ومن أهم التحديات التي تواجه الولايات المتحدة تتمثل في الديون (60 ٪ من الناتج المحلي)، والتفاوت الاجتماعي (1 ٪ يمتلكون 33,8 ٪ من الثروة القومية مقابل 50 ٪ من السكان يمتلكون 2,5 ٪ من الثروة القومية)، وفساد النزعة المادية، ونظام مالي قائم على المضاربة الجشعة، ونظام سياسي مستقطب، وجمهور أمريكي لا يعرف شيئًا عن العالم تقريبًا (75 ٪ منهم لا يعرف مكان إيران على الخريطة)، وهو ما يسهل للسياسيين التلاعب به كما حدث في فترة الرئيس بوش. وفي المقابل عناصر قوة في أمريكا مثل قوة اقتصادية إجمالية، وطاقة إبداعية من مختلف دول العالم. لكن التدخلات العسكرية الفجة بخاصة في العراق وأفغانستان ووجود دول متهمة بدعم داعش هى منها شوهتها، ناهيك عن فشلها في حل الصراع العربي–الإسرائيلي وتبنيها السياسات الإسرائيلية.

4 – دور الجماهير وما تفعله وسائل الاتصال والمواصلات في الترابط بين الثقافات والأحداث يستوجب التنبه لتداعيات ذلك على المسرح الدولي. وهو ما جعل الوقائع وتداعياتها تأخذ طابع "قفز الضفادع" في انتقالها من مكان لآخر، ويكفي مراقبة تداعيات الثورات العربية وانتقالها من دولة لأخرى.

5 – المنطقة الأكثر أهمية من الناحية الجيوسياسية خلال الفترة القادمة تتمحور حول أوراسيا.

6 – انتهاء دور الحملات العسكرية المباشرة كنتيجة من نتائج الصحوة السياسية العالمية – دور الجماهير– التي جعلت التكلفة أكبر كثيرًا من المراحل السابقة.

7 – الدول الصغرى تعاني من ضغوط القوى الإقليمية التي تجاورها مثل جورجيا التي يزداد النهم الروسي نحوها في حالة تراجع الولايات المتحدة، وأفغانستان التي يؤدي الانسحاب الأمريكي منها لتزايد احتمالات الحرب بين الهند وباكستان عليها، ذلك يعني أن النزاعات الإقليمية قد تشهد تزايدًا بخاصة في آسيا الشرقية والجنوبية، لكني أرى وجود فرص للسلام فيما بينها أرحب.

8 – وهناك مشكلة ما يسميه بريجنسكي المشاعات العالمية والتي قسمها إلى نمطين، هما:

الأول: المشاعات الاستراتيجية (البحار والفضاءات الإلكترونية والانتشار النووي.. إلخ).

الثاني: هو المشاعات البيئية (الموارد المائية والمناخ وتغيراته)، ويؤدي تراجع الولايات المتحدة إلى فتح المجال أمام منافسات وصراعات بين الدول على هذه المشاعات.

والسيناريوهات الأكثر احتمال للمستقبل هى عدم استقرار العالم من نهاية 2010 إلى 2040، ثم تعود حدته من 2080 إلى بدايات القرن ال22. وتغير أوضاعه وموازين القوة فيه، لعدة أسباب سيكون على رأسها ظاهرة التغير المتصاعد فى المناخ والتى يجبر فيها الملايين من البشر مغادرة منازلهم بسبب ارتفاع مستوى سطح البحر والآثار البيئية الأخرى التى تترب عليها.

سيعانى من عدم استقرار جغرافى وسياسى يؤدى فى نهاية المطاف إلى تغير خريطة القوى فى العالم أجمع، متوقعة أن تصبح الصين أكبر اقتصاد فى العالم بدلًا من الولايات المتحدة التى يزداد الفقر فيها و"نيجيريا" سوف تصبح قوة أما مصر وإيران أو السعودية[1] فستستحوذان على منطقة الشرق الأوسط، حيث تصبح مصر قوى عظمى فى المنطقة إذا ما اعتمد اقتصادها على الزراعة والصناعة والتجارة والموانئ والمخازن البحرية والخدمات اللوجستية العالمية والتكنولوجيا المختلفة، فى الوقت الذى يعانى فيه العالم من نقص الموارد فى الثروات الحيوانية بصفة خاصة.

الشركات العالمية سيكون مقرها فى عدد من الدول كمصر والمملكة العربية السعودية وإيران والجزائر وتونس والمغرب وتركيا، وستصدر الصين صواريخها إلى الولايات المتحدة وبقية دول العالم. وحتى عام 2040 إلى 2050 سيظهر جيل جديد من الناس متفوقين تكنولوجيًّا فى تلك الدول، ويمثلون مستقبل البشرية فى بقية القرن الحادى والعشرين.

وفى عام 2050 سيصل عدد سكان الأرض إلى 9 مليارات نسمة، 75 ٪ منهم يعيشون فى المدن، مقارنة بـ50 ٪ من سكان العالم اليوم، وما يقارب 50 ٪ منهم يعيشون فى إفريقيا وهو ما يعنى أن جزء كبير من القوى العاملة فى العالم سوف يعيشون فى القارة السمراء. والفارق بين السكان في مختلف دول العالم سيكون أيضًا اجتماعيًّا، لأن العالم سوف يشهد عظمة فى الثورة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للسنوات القادمة، ولن تكون أكثر مساواة، حيث تتناقص فى الولايات المتحدة وتتوسع فى أماكن أخرى. وبلدان فقيرة فى أفريقيا وآسيا التى لا تزال فى المراحل الأولى من التطوير، وبالتالى تتغير خريطة الدخل فى تلك الدول فالأغنياء يدفعون ضرائب أعلى. سوف يكون للمرأة أغلبية كبيرة فى قوة العمل، وستكون ممثلة بشكل أكبر فى مختلف المجالات خاصة السياسة.

تتمتع الصين بمكانة عالية كما كانت عليه فى القرن الـ 19 ويزداد عدد الفقراء فى الولايات المتحدة، وتحصد الصين لقب الاقتصاد وأعظم قوة فى العالم، حيث تبلغ

(1) حسب الاستقرار السياسي والاقتصادي في أي من السعودية وإيران.

حصتها 20 ٪ من الناتج المحلى الإجمالى العالمى فى عام 2050، مقارنة مع 14 ٪ فى عام 2010، وحصة أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية من الناتج المحلى الإجمالى العالمى سوف تنخفض من 40 ٪ فى عام 2010 إلى ٪20. وسوف تكون آسيا مسئولة عن نصف الناتج الاقتصادي العالمي.

وبما أن الولايات المتحدة تخشى الصين إلا أن هناك قارة كبيرة تحاول الدخول في منافسة الصين أيضًا وهى "إفريقيا" خاصة مصر ونيجيريا اللتان قد تصبحا سوق متنامي مع اقتصاد مزدهر، وهذا الذي يمكن مصر أن تصبح قوة عظمى ونيجيريا قوة كبرى، فى الوقت الذى تزدهر جليًّا فيه اقتصاديات كبيرة فى الشرق العربي على رأسهم إيران والسعودية. أما اقتصاديات دول مثل الجزائر وفنزويلا وتركيا وإندونيسيا وبنجلاديش "إن لم تحدث مشكلات سياسية فيهم" ستقفز لأكثر من 17 نقطة فى التصنيف العالمى للدول حسب حجم اقتصادها وسوف تنمو بسرعة كبيرة.

وفيما يتعلق بإسرائيل فوفقا للخبراء الاقتصاديين فى مجموعة HSBC العالمية فإن إسرائيل فى عام 2050 قد تكون فى الترتيب رقم 44 ضمن مجموعة أكبر اقتصاد فى العالم مقارنة بمركزها الـ 52. ولكني لا أعتقد انحسارها عالميًّا لأن وجودها في هذا الإقليم بنى خطأ- وبالتالي محتلة- لن تنعم بسلام. ويخطئ كثيرًا كل من يظن أن معركة الدول العربية والإسلامية معركتهم وحدهم، ذلك أن الهدف الرئيسي هو السيطرة على العالم بأسره والتحكم بمصائر جميع شعوب العالم كبيرها وصغيرها.

***

العالم من 2050 حتى 2100

إذا ما أردنا فهم المفاجآت غير العادية التي يخبئها المستقبل يتوجب علينا معرفة أساس ما كان منها في الماضى، ويساعد خاصة في الوعي بالإمكانيات الرائعة للتاريخ، فالنظام التجاري والمعلوماتي هو كلمة السر في صعود وانهيار الدول والممالك، وهو مرتبط أساسًا بقيم الفردية والجماعية، وانتصار مفاهيم الحرية الإنسانية. يحدث تراكم لرأس المال في مدينة قلب تصبح مركز للرأسمالية، وتنظمها على أساس المنافسة ووفقًا لقواعد الديمقراطية لذا هناك دومًا صلة بين السوق والديمقراطية والعنف، وحول هذا المركز"القلب" هناك وسط يتكون من المنافسين القدامى والجدد. وتشكل بقية الإقليم والعالم أو الطرف الخارجي المحكوم بالنظم الداخلية، والذي يبيع مواده الأولية، والأيدي العاملة للمركز/ القلب.

المدينة "القلب" هى من يتحكم إذن في معظم الأشياء تحديد السعر وتراكم الأرباح والتحكم في الأجور ونشر الجيش وتمويل المكتشفين والمخترعين وتطوير الفكر الذى يؤمن سلطتها، بالإضافة إلى السيطرة على الطاقة والاتصالات. والنموذج التجارى عَرف حتى اليوم تسعة أشكال من المدينة المركز/ القلب هى: بروج، البندقية، أنفرس، جنوى، أمستردام، لندن، بوسطن، نيويورك ولوس أنجلوس.

ونتيجة لعدة تناقضات خطيرة كالطمع والديون وعدم المساواة والفجوات بين الأثرياء والفقراء وازدياد العنف..إلخ ستبزغ تقلبات جديدة جغرافية وسياسية واقتصادية وتكنولوجية وثقافية مع مراكز قلب جديدة ومهزومين جدد.

وبدلًا من المدن الأمريكية الرئيسية في العالم نرشح مدنًا أخرى في دول أخرى لتصير هى المدن المركزية، لندن أو طوكيو أو إحدى مدن الدول الإسكندنافية" ستوكهولم"، هلسنكى، أوسلو، شنغهاى، بومباى، أو دولة أستراليا، أو بمصر، لكن انهيار المدينة المركز الحالية أو لوس انجلوس لن يحدث إلا بعد موجات ثلاث.

الموجة الأولى الإمبراطورية المفرطة: بعد الربع الثاني من القرن ال21، وتحت ضغط متطلبات السوق وبفضل وسائل تكنولوجية جديدة سوف يتحد العالم حول سوق بحجم الأقاليم المتعددة ثم الكوكب وبدون دول، وستبدأ الدول الفائقة تفكك الخدمات العامة والديمقراطية، ثم الدول، وحتى الأمم نفسها. وستكون السلع الاستهلاكية استمرار موسع للسلع الجوالة، التي ميزت الشكل التاسع من المدينة القلب"الهاتف المحمول أبرز تجلياتها"، وستكون ثقافتها هجينة وقيمها فردية، وستخلق التنمية التجارية بحلول 2035 في كل مكان، حيث لا توجد به ديمقراطية ليبرالية، في دول الجنوب، طبقة متوسطة سوف تقضى على الديمقراطية، وتضع ديمقراطية برلمانية أو شعبية اجتماعية، وستعمم السوق ثم الديمقراطية على معظم العالم بتدرج في فوضى أحادية الاتجاه. ستمس هذه الظاهرة مصر، إندونيسيا، نيجيريا، الكونغو، الصين وإيران. إجراء انتخابات حرة لن يكفي لتشييد دائم لديمقراطيات السوق فلابد أن تكون هناك رغبة حقيقية من المواطنين في الحياة المشتركة.

تتعادل الديمقراطية والسوق، وينتظم النظام التجارى كتجمع لديمقراطيات السوق، ويصبح العالم متعدد المراكز مع قوة مهمة أو اثنتين في كل قارة أو إقليم، يصير هناك الأمم التسع الكبار: الولايات المتحدة والبرازيل والمكسيك والصين والهند ومصر وروسيا والاتحاد الأوروبي، وقد تنضم إلى هذه القائمة نيجيريا أو غيرها.

هذه الأمم التسع التي تصبح سيدة النظام متعدد المراكز تقيم حكومة غير رسمية للعالم، لكن قد لا يستمر هذا النظام طويلًا، ويحدث الصراع العنيف، وتنتصر السوق على الديمقراطية، وتزول السيادة عن دول المركز ذاتها. هذه الموجة التي تبلغ ذروتها قبل 2100 وما تليها من خمس إلى عشر سنوات. سيكون فيها أجهزة جوالة جديدة تدمج في الجسم وتصبح وسيلة للتحكم والمراقبة وتوضع أجهزة إلتقاط وتصوير مصغرة في كل الأماكن العامة والخاصة، وتقوم بمراقبة الذهاب والإياب، ومراقبة المسافرين والعاملين والمستهلكين، يعلم الكثيرين الكثير عن الأشياء وهو ما يؤدي إلى اختفاء أغلب الأسرار.

تضعف الدول ويظهر في بعضها الحكم الديكتاتوري من جديد وتصل الرأسمالية إلى منتهاها ويكون الاستهلاك الهدف الأعظم للبشرية وتكون صناعتا الترفيه والتأمين المسيطرتين على إدارة الوقت التجاري وتصبح السياسة عرضًا عفى عليه الزمان. لكن الفقر يستمر ويزداد البؤس. وبعد 2050 تكون الدول الكبيرة عالم من عدم التوازن الشديد والتناقضات الكبيرة، وتنحسر قليلًا واقعة في شباكها الخاصة.

النزاع المتطرف هو الموجة الثانية من موجات المستقبل، فالطموحات الإقليمية أول أسباب هذا النزاع: كل الدول تتملكها الرغبة في الوصول إلى نفس الثروات، وتتصادم هذه الطموحات فيما بينها وتنتشر أعمال القرصنة والجماعات المؤجرة، وترتفع انتقادات المتدينين ضد فسوق السوق وقيمها اللا أخلاقية، وقد تصبح الولايات المتحدة الأمريكية عُرضة للحكم الديني بعد2040، وتصبح الديمقراطية فيها مجرد واجهة، وتزداد من جهة أخرى الصراعات الدينية في العالم.

حروب الندرة المتعلقة بالمياه والطاقة شكل آخر من أشكال النزاع المتطرف هى الحروب الحدودية من الشرق العربي إلى إفريقيا فأوربا وأمريكا الجنوبية، وتظهر كذلك حروب النفوذ وحروب بين قراصنة ومدنيين، ويحدث الصراع الكبير، حيث يصبح العالم ساحة صراع هائلة، لكن الخير غالب، فيرغب الجميع في السلام بشكل درامي كمأساوية تصور عن الصراعات والحروب.

وفي عام 2050 يكون عالم الطيران قد حقق 16 مليار راكب للنقل الجوي، وهو ما يسهم في انطلاق صناعة الطيران في تقصير الطرق الجوية، وخفض معدلات استهلاك الوقود وخفض الانبعاثات. وفي بداية النصف الثاني من القرن ثمة رغبة هائلة في الحياة ستولد من جديد، وتنبع حضارات جديدة قائمة على بقايا الأمم المستنزفة، وسوف تستقر ديمقراطية عالمية تحد من سلطة السوق، تحاول كسب حروب أخرى أكثر إلحاحًا ضد جنون الإنسان، وضد الخلل المناخي وضد الأمراض القاتلة، واستغلال البؤس، وحينئذ ترتفع الموجة الثالثة للمستقبل، موجة الديمقراطية الفائقة أو الديمقراطية الاجتماعية. وهى الشكل الذي يخلص إليه القرن[1].

(1) للمزيد يمكن النظر لكتابنا « من التحول الديمقراطي إلى الديمقراطية الاجتماعية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب،2018.

نهايات الفلسفة والدولة والأيديولوجيا (2140-2180)

يرى بعض العلماء والمفكرين أن نهاية الإغتراب والفلسفة الجدلية والأيديولوجيا باتت قريبة، وسيُضعف منها ويحل محلها الحقائق الملموسة والعلمية. ونهاية التفسيرات والتعديلات المستخدمة من قِبَل الطبقات المسيطرة ونهاية الطبقية الكبيرة نفسها قبل تلاشي الدولة من خلال اجتثاث الملكية الخاصة والقمع والسياسة وبناء مجتمعات بلا طبقات للوصول إلى مجتمعات الرخاء..إلخ. وكأن الاحفاد يعيدون الأرض لسيرتها الأولى عندما كانت وحدة العالم التي انقسمت إلى وحدة القارات ومنها إلى أقاليم ثم دول..إلخ.

وهذه النهايات قد تم طرحها منذ زمن بعيد، حيث تعكس مدى تأثير فكرة هيجل عن نهاية التاريخ على ماركس والتي تجسدت في الدولة المطلقة. لكني لا أرى أن هناك استدامة لحضارة، إنما الحضارات تتعاقب من إقليم لآخر، فلا دولة مطلقة لأن العالم والمجرة والكون كله مركب بدقة عظيمة والطبيعة لا تميل للديمومة المطلقة على مدى القرون والملايين من السنين.

وقد ساهم أوجست كانط في ترسيخ نهاية الأيديولوجيا، فقد أرجع صراعات عصره إلى نماذج فكرية وسلوكية تنتمي لمراحل منصرمة في مقابل مراحل تطورية، وصنفها إلى:

1 – مرحلة لاهوتية: ترى أن مصير الإنسان محكوم بقوى سماوية تمتد من بداية التاريخ حتى الإسلام.

2 – مرحلة الميتافيزيقا: عصر النقد والتمرد.

3 – المرحلة العلمية: مرحلة التاريخ المعاصر، حيث حلت معرفة الإنسان والطبيعة محل التأخر وأوهام عصور قديمة.

4 – ونضيف إليها مرحلة المعلوماتية، ثم تليها مرحلة التكنولوجية (الآلية)، والأهم مرحلة التوازن الكلي أو حتى مرحلة الفائقية التي يسعى إليها الكثيرين.

والصراعات الأيديولوجية عند كانط من المراحل الأولى والثانية من تطور الفكر البشري، فدعا لتطبيق القوانين العلمية لحل المشكلات الاجتماعية وبناء نظام يحقق استقرار المجتمع. كما تناول ماكس فيبر فكرة موت الأيديولوجيا عندما دعى إلى علم اجتماع علمي بعيد عن القيم والأيديولوجيا. والحقيقة أن المجتمع الإنساني الأفضل له التوازن الحياتي اجتماعي وثقافي وعلمي وروحي وأخلاقي وقيمي..إلخ.

وكالعادة خرج عن الفكر وتعرض للتحيز فقال كانط: إن أفضل صورة للحياة هى الرأس مالية، واعتبرها تتويج لتاريخ التطور الإنساني، ليته بحث عما هو أفضل وهو ما أرى دوره الذي استسلم للتحيز أو آخر ما وصل اليه فكر زمانه، فحاد عن تقديم الفكر الأفضل، أو تطوير الرسملة نفسها على أدنى تقدير رغم أن هذا الفكر غير مُجد، لأن بناء المستقبل وتقديم الأحدث أفضل من ترميم حطام الماضي. وكل النهايات التي ذكرت وتذكر هى نهايات لحضاراتهم، وصل إليها العقل، لكنهم لا يريدون أن يدركو أو يستمعوا إلى أصوات أخرى، ففسروها خطأ.

كارل مانهايم دعا إلى ربط الأيديولوجيا واليوتوبيا ضمن علاقة تكاملية، فعلى نظرة ماكس فيبر فيما يتعلق بين العلم والأيديولوجيا من جهة واليوتوبيا من جهة أخرى بغية الوصول إلى حقيقة محايدة وموضوعية. وقال: إن المثقفين والمفكرين هم المتحررين من الروابط الاجتماعية والمصالح الخاصة والإنتماءات للطبقات. إلاّ أن فعلته هذه هى محاولة لربط شيئين مختلفين بجسر بدلاً من مقاربتهما وتكاملهما الحقيقي الذي تحدث عنه.

المثقفون والمفكرون المتحررون من الأيديولوجيا هم أنفسهم منظروها وصانعوها والعلماء هم أبنائها، وكل علم له أنصاره وجماهيره. والأجدى هو تكامل العلوم وتعاونها مع الحفاظ على دقائق تخصص كل علم. وما أطلق عليه طبقة مفكرين هى مجرد مجموعة صغيرة مثل الأسرة التي تجمعها العائلة وهؤلاء يجمعهم تخصصهم وآخرين في تخصصهم..إلخ. وبعض المفكرين حتى لفترات قادمة يتم استخدامهم لخدمة أهداف بعينها إما طواعية أو مغرر بهم أو بحجج والاقتناع دون مشاركة قوية وفعالة.

بداية نظرة مانهايم كانت واضحة فراح يغوص في تشاؤم مستقبلي حتى جعله يخلو من كل شيء، بل وكل شيء مجرد تكرار للماضي، فكيف كل شيء ينتهي للعدم، ثم يتولد تكراره بطرق خطية؟ ألم يكن هناك مجرد عقل عادي يرفض تجريب المجرب واللاشئ هذا؟ مبرر ذلك باعتلال الإرادة الإنسانية، وكأن كل الإنسانية معتلة.

واختفاء اليوتوبيا قد يضفي على الطبيعة الإنسانية شيء من الجمود. ومثلما عجزت الاشتراكية عن استعادة الروح المفقودة للمثالية اليوتوبية، وأصبحت لا هى راديكالية ولا هى قادرة على غرس الأمل، حتى وصلت إلى نهايتها. سوف تنتهي تدريجيًّا الرأس مالية ولن تجد حينها شيء مبرر مقنع تقوله. وربط الأيديولوجيا بالحتمية والتقدم ومنافستها للأديان يجعلها أكبر من المقدسات وهو مايعني انها مطلقة. لكن مثلما للحتمية نهاية هذا الربط له نهايات وفصل تام. كيف تقنعني بأيديولوجيتك وغيرك له قوة اقناع في أيديولوجيته والكل يمجد ويفخم أيديولوجيته. وعند المواجهة يبدأ تكثير العظام الصلبة ويتم هدهدت الأيديولوجيات المختلفة.

وإذا كان قياديو ونجوم العالم هم الساسة والرياضيون والفنانون، فنجوم مابعد منتصف القرن ال21 والقرن ال22 علماء ومفكرون ومبدعون. وأهم خصائص القرون القادمة:

1 – التحول من اقتصاد إنتاج السلع لاقتصاد الخدمات.

2 – تفوق التقنيين والتجاريين.

3 – المعلومات مصدر للمجتمعات والمعرفة مصدر للتجديد.

4 – انتشار كبير للتكنولوجيا وخدماتها ولوازمها.

5 – الإستناد إلى التقنية الفكرية والمفكرين والمبدعين والباحثين في صناعة القرار، دون اختفاء الشخصيات القيادية بصفات ومقومات جديدة وأحدث وخفوت نجوميتها الكبيرة قليلًا.

الأحزاب نفسها ستتحول لقوة مرشح وبرامج وليس أيديولوجيا معينة وقوالب جامدة وخدمة مجموعة معينة، وتباعًا تتحول إلى أحزاب متخصصة منها ما يتبنى فكر التكنولوجيا ومنها الزراعي وثالث يتبنى القيم الاجتماعية، وهو تحول الأحزاب الراديكالية والمحافظة. وكل هذا في إطار مراحل اختفاء السياسة. وبالمثل فإن الاقتصاد الذي تشارك فيه الدولة مع مستثمرين واستثمارات الدولة في دول أخرى ومشاركة الموظفين في أرباح الشركات من ضرورات الحياة التكنولوجية، أي الديموقراطية الاجتماعية والاقتصاد المجتمعي وتمايز أقاليم العالم بمنتجات وخدمات معينة.

الأمم المتحدة والمنظمات العالمية توزيعها الحالي يحمل في طياته تعديلات المستقبل، فعلى الأقل لكل حضارة عدد من المقاعد في الأمم المتحدة ومجلس الأمن. وبالمثل مجموعة الثماني لابد من توزيعها وهو ماسيحدث، فالقوة العالمية مجموعة دول إقليمية تقودها دولة أو إثنتين ثم عالمية تقودها عدد من الدول. يلي ذلك اتحادات إقليمية وقارية وربما حضارية، وسوف تتراجع إلى أن تنزوي القومية في مقابل انتشار الدولية (وليست قومية) بمعنى أنها نتاج دول متعددة.

كل هذا غالبًا سيصب في قوة أو إتنتين أو ثلاث في العالم، منهم قوة حضارية إسلامية – وربما عربية– كبرى وهو مايعد لتوازن العالم إنسانيًّا وأخلاقيًّا. أما الدول الكبرى في الغرب فستكون ذات أغلبية إسلامية، وقبل ذلك ستعاد المنظمات العالمية بشكل وأسس أنضج وأنجع من مؤسسات ومنظمات مابعد الحرب العالمية والصراعات الدولية.

سوف يتوحد العالم تحت حكومة واحدة إلى ان تختفي السياسة ويقود العالم علماء ومفكرين وحكماء ثم يليه اختفاء فكرة التحكم والقيادة للعالم من خلال أنظمة تقنية مربوطة بنظام تقني كوكبي يستطيع معرفة كل شيء يمنح كل إنسان ما يشاء بلا نقود أو أي نوع من العملات أو بديلاتها. سوف تكون هناك حروب عاتية ودمار بيئي وصراعات في مختلف المجالات خاصة الإقتصاد والتجارة والثقافة والدين، لكنها سوف تضعف وتختفي وتختفي معها الجيوش والحروب الكبيرة، إلا عدد من الصراعات والمشكلات. وسوف تقل كثير من القيود والقوانين والمواثيق.

سوف يحدث انخفاض عدد وقوة الأديان، لتصبح كتاريخ، ونتيجة لفقدان الإنسان إحساس فطري بشئ داخلي باحث عنه يقوم أشخاص من آن لآخر بإيقاظ قليل منه، سرعان ما يخفت. غير العلم والعمل والإنجاز والقيام بالدور المنوط..إلخ، يشعر الإنسان خارجه انه أشبه بباحث (ولا أود القول أشبه بحائر) فيحوله لما هو مصمم له بشكل كبير عند البعض وقليل عند البعض الآخر..إلخ.

***

2145 حتى 2200 «التحكم في الطبيعة كنموذج»

تعتمد هذه النوعية على السيطرة على العمليات والتفاعلات التي تحدث في قشرة الأرض وفي غطائها الغازي والسائل، ويكون الغلاف الجوي الواقع على ارتفاع 10 إلى 60 كم هو ذو أهمية. وفيما يخص السيطرة على الطقس صار بمقدورنا عمل مدن جليدية للتزلج وسط الصحراء، أو فعل أشياء مشابهة. ويمكن للبشر التحكم في الطقس أو تعديله حسب الرغبة أو الاستفادة من قوة إعصار أو إنشاء مدن على المحيطات قبل إنشائها في قاعها.

والكيمتريل أحد أدوات تغيير الطقس، وهو عبارة عن سحابات صناعية يتم إطلاقها بواسطة الطائرات النفاثة، تعمل على حجب أشعة الشمس بحجم كبير. كما أنها تؤدي – من خلال ما بها من أكسيد الألمونيوم وأملاح الباريوم – إلى تبريد الهواء الأرضي بشكل واضح؛ نتيجة قيام هذه السحابة بدور المرآة العاكسة، فتعكس حرارة وأشعة الشمس إلى الفضاء مرة أخرى فيقل وصولها إلى الأرض؛ ما يؤدي إلى تبريد الهواء وانخفاض حرارته تدريجيًّا؛ فيشعر سكان المناطق الجافة بالبرودة، بينما يشعر سكان المناطق شبه الجافة بالبرودة الشديدة، وكذلك سقوط الأمطار غير العادية والرعد والبرق والصواعق، أما في المناطق الشمالية – مثل أوروبا – فإن البرودة الشديدة تؤدي إلى زيادة كثافة وسرعة تساقط الجليد؛ مما يمثل كارثة على هذه الدول. وكل ذلك بسبب التبريد الشديد الناتج عن إطلاق غاز الكيمتريل، وقد تزايدت الشكوك حول الغرض من استخدامه والذي يُعتبر غرض سري يكتنفه الغموض، كما أنه يُستعمل في برامج سرية يقودها مسؤولون حكوميون.[1]

ويعد الكيمتريل من أحدث ما توصلت إليه الترسانة العسكرية الأمريكية، فإذا

(1) هذا غير طرق الهارب.

كانت الجراثيم التي استخدمتها بريطانيا في الحرب العالمية الأولى هى أولى أسلحة الدمار الشامل، والسموم التي استخدمها هتلر في الحرب العالمية الثانية تمثل الجيل الثاني من هذه الأسلحة، والقنابل الذرية والنووية تمثل الجيل الثالث، فإن الكيمتريل يمثل الجيل الرابع من أسلحة الدمار الشامل.

والمثير للإنتباه في هذا الصدد أن الاتحاد السوفيتي السابق هو من اكتشف الكيمتريل، حيث تفوق مبكرًا على أمريكا في مجال الهندسة المناخية عندما حصل على نتائج دراسات قديمة في أوائل القرن الماضي للباحث الصربي نيقولا تيسلا الذي صنف بأنه من أعظم علماء ذلك القرن بعد أن نجح في اكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية وقام بابتكار مجال الجاذبية المتبدل، كما اكتشف قبل وفاته كيفية إحداث "التأيين" في المجال الهوائي للأرض والتحكم فيها بإطلاق شحنات من موجات الراديو فائقة القصر، وهو ما يسفر عن إطلاق الأعاصير الاصطناعية. وبذلك يكون نيقولا تيسلا هو مؤسس علم الهندسة المناخية الذي بدأه الاتحاد السوفيتي ثم تلته الصين .

أما بداية معرفة الولايات المتحدة بـ«الكيمتريل» فقد بدأت مع انهيار الاتحاد السوفيتي وهجرة الباحث الصربي نيقولا تيسلا والعلماء الروس إلى أمريكا وأوروبا وإسرائيل. وكانت آخر الاستخدامات السلمية الروسية لهذا الغاز ما حدث في الاحتفال بمناسبة مرور60 عام على هزيمة ألمانيا وانتهاء الحرب العالمية الثانية وذلك في مايو 2005 باستخدام وزارة الدفاع الروسية للطائرات في رش الغاز في سماء موسكو وخصوصًا الميدان الأحمر لتشتيت السحب وإجراء مراسم الاحتفالات في جو مشمس. وكان ضيف الشرف في هذا الاحتفال هو الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الابن وذلك للمرة الأولى وهى رسالة موجهة له ليفهم منها دقة التحكم في الطقس بتقنية الكيمتريل على مستوى مدينة واحدة هى موسكو.

وقبل التجربة الروسية السابقة قام السوفيت بإسقاط الأمطار الصناعية "استمطار السحب" وذلك برش الطبقات الحاملة للسحب وقد استفادت الصين من ذلك خلال الفترة ما بين 1995 و2003 واستمطرت السحب فوق 3 ملايين كيلو متر مربع

"حوالي ثلث مساحة الصين" وحصلت على 210 مليارات متر مكعب من الماء حققت مكاسب اقتصادية من استزراع تلك المناطق التي كانت جافة قدرت بـ "1،4" مليار دولار وكانت التكلفة العملية فقط "265" مليون دولار.

وبرنامج التحكم في الطقس نشطت منذ الستينات فيما يعرف بمشروع العاصفة، وكان المقصود منه التحكم في الأعاصير والعواصف بالمحيط الأطلسي، ثم تطورت أبحاث الكيمتريل على يد واشنطن وتوصلت إلى قواعد علمية وتطبيقات تؤدي إلى الدمار الشامل، ويطلق عليها "الأسلحة الزلزالية" وهى تمكن من إحداث زلازل اصطناعية مدمرة في مناطق حزام الزلازل وتقنيات لاستحداث ضغوط جوية عالية أو منخفضة تؤدي إلى حدوث أعاصير مدمرة.

وفى عام 1995 عرضت واشنطن على منظمة الأمم المتحدة رسميًّا أن تتبنى مشروع تحت اسم الدرع The Shield لمدة 50 سنة بتكاليف مليار دولار سنويًا تتحملها الولايات المتحدة وحدها تحت مظلة الأمم المتحدة عمليًّا وتطبيقيًّا؛ من أجل تحسين المناخ والحد من ظاهرة الاحتباس الحراري؛ بتطبيق براءة اختراع مسجلة باسم اثنين من العلماء الأمريكان من أصول صينية وهما ديفيد شنج و آي- فو- شي. وخلاصة براءة الاختراع هى عمل سحاب اصطناعى ضخم من غبار خليط من أكسيد الألمنيوم وأملاح الباريوم، يتم رشها "أيروسول" في طبقة"الإستراتوسفير" على ارتفاع يتراوح بين 8 و10 كيلومترات، والمتميزة بدرجة حرارة منخفضة تصل إلى "- 80" درجة مئوية، تنعدم فيها التيارات الهوائية، لتبقى السحابة مكانها لبضعة أيام قبل أن تهبط مكوناتها بفعل الجاذبية الأرضية إلى طبقة الهواء السفلى.

ويعمل أكسيد الألمنيوم في هذه السحابة عمل المرآة؛ فيعكس حرارة الشمس إلى الفضاء الخارجي لأكثر من أسبوع، إضافة إلى حجب ضوء الشمس عن الأرض؛ ما يؤدي إلى انخفاض شديد ومفاجئ لدرجة الحرارة؛ متسبب في تكوين مناطق للضغط المنخفض يندفع إليها الهواء من أقرب مرتفع جوي، فتتغير بسببها مسارات التيارات الهوائية الطبيعية، وتهب الرياح في اتجاهات غير معهودة في ذلك التوقيت من السنة.

وعند هبوط ووصول غبار الكيمتريل إلى طبقة الهواء الحاملة لغاز ثاني أكسيد الكربون المتسبب الرئيس في ظاهرة الانحباس الحراري تتفاعل أملاح الباريوم – التي يتحول جزء منها إلى أكسيد باريوم – معه، فيقل تركيز هذا الغاز وتنخفض حرارة الجو. وخلال تلك الفترة تفقد السماء لونها الأزرق المعروف، وتصبح أثناء النهار سماء ذات لون رمادي خفيف يميل إلى اللون الأبيض "ظاهرة السماء البيضاء".

وتشترك منظمة الصحة العالمية في المشروع منذ 1995 قبل تقديمه إلى الأمم المتحدة. وأسند المشروع إطلاق غاز الكيمتريل في أوروبا إلى الطائرات المدنية وطائرات حلف شمال الأطلسي/ الناتو، وفي بقية العالم إلى أساطيل شركات الطيران المدنية العالمية التي تمتلك طائرات البوينج للوصول إلى طبقة الإستراتوسفير. ويُشترط في العاملين بالمشروع أن يكونوا من مواطني الولايات المتحدة أو كندا، مع الالتزام بالسرية الكاملة عن كل ما يجري من أعمال به، ويوقّعون إقرارات بذلك.

ظلت تقنية الكيمتريل سر مقتصر على الطبقة السياسية والعسكرية الأعلى، حتى اكتُشفت بالصدفة في مايو 2003 عندما اطلع العالم الكندي ديب شيلد – والذي كان من بين العاملين في وزارة الدفاع الأمريكية/ البنتاجون – عن غير قصد على وثائق سرية عن إطلاق الكيمتريل فوق كوريا الشمالية وأفغانستان وإقليم كوسوفا أثناء الحرب الأهلية اليوغسلافية والعراق والخليج العربي في حرب الخليج. وتضمنت الوثائق إشارة إلى الجفاف والأمراض والدمار البيئي الذي نتج عن ذلك، وأدى إلى موت عدة ملايين من البشر خلال بضع سنوات. وأشار شيلد إلى أنه شخصيًّا مقتنع بفكرة مشروع الكيمتريل إذا كان سيخدم البشرية بتقليل ظاهرة الاحتباس الحراري، ولكنه يرفض استخدامه كسلاح لإبادة البشر وفرض السيطرة على الشعوب، واعتبره سلاح مدمر للجنس البشري، وقرر الانسحاب من العمل. وفى عام 2006 وُجد هذا العالِم مقتول في سيارته بعد ثلاث سنوات من كشف سر الكيمتريل؛ كلمة السر في الجيل الرابع من أسلحة الدمار الشامل، وحينها زعمت الأنباء أنه انتحر، ولكن زوجته أكدت أنه كان في حالة نفسية مزاجية يستحيل معها أن يُقدم على الانتحار.

في تصريحات لمجلة الأهرام العربي المصرية في 7 يوليو 2007 كشف الدكتور منير محمد الحسيني – أستاذ المكافحة البيولوجية وحماية البيئة بكلية الزراعة جامعة القاهرة – حقائق مثيرة وردت في بحث حول إطلاق علماء الفضاء والطقس في أمريكا لغاز الكيمتريل سر على مناطق مختلفة في أنحاء العالم من بينها مصر. ورجح أن يكون السبب في ارتفاع درجات الحرارة في السنوات الأخيرة في مصر وشمال إفريقيا وبقية البلدان العربية هو التجارب الأمريكية في هذا الصدد، وقال: عند هبوط سحابة الكيمتريل إلى سطح الأرض فوق المدن الكبيرة مثل القاهرة وغيرها، تسير ملايين السيارات في الشوارع التي ينبعث منها كم كبير جدًّا من الحرارة، فيقوم أكسيد الألومنيوم بعمل مرآة تعكس هذه الحرارة للأرض مرة أخرى؛ ما يؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة بشكل غير عادي؛ متسبب فيما يسمى موجات الحر القاتل كما حدث في باريس عام 2003، وجنوب أوروبا في يونيو 2007.

وأضاف: إن أسراب الجراد التي هاجمت مصر وشمال أفريقيا وشمال البحر الأحمر ومنطقة جنوب شرق آسيا فوق السعودية والأردن أواخر عام 2004، كان السبب الرئيس فيها هو غاز الكيمتريل، بعد رش تلك المنطقة بزعم خفض الاحتباس الحراري. واختفت السماء خلف سحاب الكيمتريل الاصطناعي خلال عدة ساعات، وحدث الانخفاض المفاجئ لدرجات الحرارة، وتكون منخفض جوي فوق البحر المتوسط، وتحول المسار الطبيعي للرياح الحاملة لأسراب الجراد الصحراوي إلى الجزائر وليبيا ومصر والأردن وغيرهم، وبهذا لم تتم الرحلة الطبيعية لأسراب الجراد. ويتابع الحسيني: في ذلك الوقت، لاحظ الباحثون أن الجراد الذي دخل مصر كان يحمل اللون الأحمر، بينما كان الجراد الذي يدخل مصر على طول تاريخها يحمل اللون الأصفر، واختلاف الألوان هنا جاء بسبب أن الجراد الأحمر هو الجراد ناقص النمو الجنسي، ولكي يكتمل نموه الجنسي كان لابد أن يسير في رحلة طبيعية حتى يتحول إلى اللون الأصفر كما تعودنا أن نشاهده في مصر، ولكن مع حدوث المنخفض الجوي الجديد، اضطر الجراد إلى تغيير رحلته دون أن يصل إلى النضج المطلوب. وتوقع د. الحسيني أن تعرف مصر ظاهرة الموت بالصواعق كما حدث في أبريل عام 2006 عندما قُل اثنان من رعاة الأغنام

بالمنصورة صعقًا، وكذلك في 13 أبريل 2007 عندما قتل ثلاثة مزارعين أثناء عملهم بالحقول في محافظة البحيرة في شمال مصر.

ويقول العالم المصري: إن هذا يفسر احتراق إيريال محطة الأقمار الصناعية في المعادي عام 2009 وحادثة الكرة النارية التي هبطت من السماء في مدينة طهطا بمحافظة سوهاج. كما يسبب هذا الغاز ظاهرة الاستمطار للسحب؛ ما يؤدي إلى حدوث أمطار غزيرة وفيضانات كما حدث في سيناء وأسوان. ولا تتوقف خطورة هذا الغاز عند هذا الحد، إلا أنه يُحمَّل ببكتيريا يستنشقها الإنسان وتسبب معظم الأمراض التي نسمع عنها الآن ونسميها أمراض العصر، وهذا ما يفسر إقدام شركات الأدوية على الاشتراك في تمويل مشروع الدرع بمليار دولار سنويًّا.

ونحن نتساءل مع بعض الباحثين والمهتمين بمثل هذه الأمور، هل ما يقال عن غرق دلتا النيل مجرد تخمينات، أم أنها تمهيد لما بعد ذلك لإغراق الدلتا بفعل فاعل وإظهار الأمر كأنه كارثة طبيعية!

فوجئ العالم بعد زلزال هايتي بتقارير صحفية تؤكد أن الزلزال المدمر ليس الجاني الحقيقي فيما أصاب تلك الجزيرة التي تقع في منطقة الكاريبي، وإنما للأمر أبعاد أخرى تتعلق بتجارب علمية أمريكية حول حروب المستقبل التي ستحدث تدمير واسع، بينما ستظهر كأنها كوارث طبيعية، ففي 20 يناير 2010، خرج الرئيس الفنزويلي الراحل هوجو شافيز بتصريحات مثيرة، كشف خلالها أن هناك تقرير سري للأسطول الشمالي الروسي يؤكد أن تجارب السلاح الزلزالي التي أجرتها قوات البحرية الأمريكية هى التي تسببت في وقوع كارثة هايتي. وأضاف شافيز في تصريحات لصحيفة آي. بي. سي الإسبانية: إن التقرير السري يشير إلى أن الأسطول البحري الشمالي الروسي يراقب تحركات ونشاط القوات الأمريكية في بحر الكاريبي منذ عام 2008 حين أعلن الأمريكيون نيتهم في استئناف عمل الأسطول البحري الرابع الذي تم حله عام 1950، وهو الأمر الذي دفع روسيا للقيام بمناورات حربية في تلك المنطقة 2009 بمشاركة الطراد الذري "بطرس الأكبر"، وذلك لأول مرة منذ انتهاء الحرب الباردة.

وتابع شافيز قائلًا: التقرير الروسي يربط بين تجارب السلاح الزلزالي التي أجرتها البحرية الأمريكية مرتين منذ بداية العام الجديد، والتي أثارت هزة قوتها 6.5 درجة في مدينة أوريكا في ولاية كاليفورنيا لم تسفر عن أية ضحايا، و الهزة في هايتي التي أودت بحياة حوالي 200 ألف بريء. ونُسب للتقرير القول أيضًا: إن واشنطن ربما توافرت لديها المعلومات التامة عن الأضرار الفادحة التي قد تتسبب بها تجاربها على السلاح الزلزالي، ولذا أوفدت إلى هايتي قبل وقوع الكارثة الجنرال كين قائد القيادة العسكرية الجنوبية للجيش الأمريكي ليراقب عملية تقديم المساعدة إذا اقتضى الأمر.

جريدة "آخر خبر" التي تصدر بالعربية في الولايات المتحدة لم تذهب هى الأخرى بعيد عما سبق، حيث كشفت في تقرير لها أن كارثة "تسونامى" التي ضربت جنوب آسيا قبل سنوات نجمت عن تجارب نووية أمريكية فى قيعان البحار وأعماق المحيطات، قائلة :" تحاول واشنطن الآن خداع دول وشعوب العالم بأن ما أصاب هايتى هو كارثة طبيعية نتيجة زلزال مدمر إلا أن العلم الجيولوجى ومراقبة ورصد حركات الأرض تعطى مؤشرات ونذير بوقوع الأخطار وحدوث الزلازل من خلال المتغيرات التى تطرأ على الأوضاع الطبيعية، حيث تظهر بوادر انقسامات أو تسطحات وتصدعات فى قشرة الأرض. أما التصدع الكبير والمفاجىء فهو يكون علميًّا ناجم عن محدثات صناعية متمثلة في تجارب نووية لمعرفة مدى تأثيرها وما تحدثه من تدمير أو تغير على شكل الطبيعة فى الأرض والبحار.

وتابعت: التجربة في هايتي أثبتت النجاح والآن يتم تجميع المعلومات وتحليلها وتسجيلها وهى إعادة لتجربة تسونامى، كما وأصبحت الآن تجربة علمية عسكرية أمريكية نجحت.

وحذرت الصحيفة الدول العربية وأفغانستان والصومال واليمن بأنهم الهدف التالي، قائلة: ما حدث في هايتي غير بعيد عن التجارب الإسرائيلية على مقاومة الكوارث الطبيعية وغير مستبعد أن المنطقة العربية مرشحة لتجربة مماثلة خاصة وأن التجربة الأمريكية في هايتى أصبحت مجدية بعد نجاحها في إحداث خسائر فادحة تعجز الحروب المباشرة عن تحقيقها.

ويبدو أن الأحداث التي تلت وقوع الكارثة ترجح صحة التقارير السابقة، فقد أعاقت سلطات المراقبة الجوية الأمريكية في مطار بورت أوبرانس بهايتي مهمة الطائرة التابعة لوزارة الطوارئ الروسية في نقل الإمدادات الإنسانية من فنزويلا وذلك بسبب تأجيلها الدائم لمواعيد الرحلات الجوية وعدم منحها الطائرة الروسية ترخيص.

وما يضاعف القلق تجاه نوايا واشنطن هو قيامها بتبرير العراقيل أمام الدول الراغبة بإغاثة هايتي بأن جنود البحرية الأمريكية في مطار بورت أوبرانس لايريدون أن يوزعوا كميات قليلة من الغذاء والماء وهم بانتظار وصول كميات أكبر، كما أنهم قلقون من توجه وكالات الإغاثة إلى المدينة التي لايحكمها قانون بدون دعم مسلح .

التبرير السابق غير المنطقي دفع صحيفة «فايننشيال تايمز» البريطانية لانتقاد الدور الأمريكي، قائلة: «إنه وسط الرعب الذي تعيشه هايتي فإن المناكفات بين الدولتين اللتين احتلتاها في الماضي «الولايات المتحدة وفرنسا» لا يساعد بأي حال من الأحوال في إغاثة المنكوبين».

وفى هذا السياق، فجر العالم الكندى «ديب شيلد» مفاجأة مفادها: أن إعصار «جونو» الذي ضرب سلطنة عمان من سنوات وأحدث خرابا وتدمير كبير ثم جنح إلى إيران بعد أن فقد نصف قوته كان ناجم عن استخدام «الكيمتريل»، وأضاف:"بكل تأكيد هو صناعة أمريكية وإسرائيلية، ولكن ليست سلطنة عمان هى المقصودة بهذا الدمار وإنما كان الهدف إيران، ولكن بسبب خطأ بعض الحسابات تحول الإعصار إلى سلطنة عمان وعندما ذهب إلى إيران كانت قوته التدميرية قد استنفدت.

وفي محاضرة ألقاها الكولونيل تامزي هاوس أحد جنرالات الجيش الأمريكي، ونشرت على شبكة معلومات القوات الجوية الأمريكية، وكشف فيها أن الولايات المتحدة سوف تكون قادرة في عام 2025 على التحكم في طقس أية منطقة في العالم، عن طريق تكنولوجيا عسكرية غير نووية يتم إطلاقها من خزانات ملحقة بالطائرات النفاثة، مشيرًا إلى أن الولايات المتحدة تسعى لاستخدام تقنية الكيمتريل كجزء من أدواتها الرئيسة للحروب المستقبلية.

كما تضمنت المحاضرة إشارة إلى توصية من البنتاجون تشير إلى استخدام سلاح الجو الأمريكي أسلحة التحكم في الطقس لإطلاق الكوارث الطبيعية الاصطناعية من الأعاصير والفيضانات أو الجفاف المؤدي للمجاعات، بالإضافة إلى التوصية ببدء نشاط إعلامي موجه لتجهيز المواطن الأمريكي لقبول مثل هذه الاختراعات؛ من أجل طقس مناسب لحياة أفضل، ثم إقناع المواطن الأمريكي بعد ذلك باستخدام هذه الأسلحة لحمايته من الإرهابيين.

وظهر مصطلح «كيمتريل» بمشروع قانون في 2001 بالولايات المتحدة، وهذا المشروع قدمه السياسي دنيس كوسينيتش أمام الكونجرس الأمريكي، حيث وصف فيه أن الكيمتريل سلاح يتسم بالغرابة، لكن قوبل هذا المشروع بالرفض ولم يتم ذكر هذا المصطلح في نسخات تالية.

وبمقابلة أُجريت في يناير 2002 من قبل الصحفي بوب فيتراكيس في جريدة كولوميوس ألايف، سأل هذا الصحفي كوسينيتش عن سبب ذكره لمصطلح كيمتريل في مشروع القانون بالرغم من أن حكومة الولايات المتحدة تنفيه بشدة، فأجاب كوسينيتش قائلًا:"السبب أنه يوجد برنامج كامل في وزارة الدفاع يُدعى فيجن بور 2020 وهو المسؤول عن تطوير هذه الأسلحة".

كما كشف تقرير لمجلة «العلم والسلاح الأمريكي»، أن إسرائيل قامت بتطوير سلاح إيكولوجي يسمى «الكيمتريل»، تحت إشراف علماء الطقس الإسرائيليين، تم إجراء اختبار عليه فوق الأردن ومصر والسعودية أو فوق العراق وأفغانستان.

وقام كليفورد كارنيكوم رئيس مؤسسة غير ربحية بتحليل عينات من الهواء التي جمعها على مستوى سطح الأرض بعد عمليات رش غاز الكيمتريل، وخلصت التحاليل إلى أنه يتكون من المعادن الثقيلة بما في ذلك الألمنيوم والباريوم وأملاح مثل المغنيسيوم والكالسيوم وغيرها من العناصر مثل التيتانيوم وألياف المكوثر المجهرية، كما خلصت الأبحاث التي قام بها لويجينا ماركيز، وهو مؤلف ملف عن رش المواد الكيماوية والتي قام بنشرها في مجلة إكس تايم عدد 3 أكد من خلالها دراسة كارنيكوم مشير إلى وجود

صلة بين المواد الكيميائية الجوية غير الزراعية المستخدمة وآثار الباريوم والألومنيوم في الزراعة العضوية. كما قامت عدة جهات في أريزونا وفينيكس بتحليل عدة تقارير قدمتها فرق من المواطنين من بينها سكاي ووتش الذين قاموا بمراقبة عمليات الرش، وخلصت النتائج إلى تواجد كميات من المواد الكيميائية السامة. وفي بحث آخر توصل علماء في تحليل مكونات هذه المادة، فهو خليط من وقود الطائرات JP8 +100 إضافة إلى نسبة كبيرة من ثاني بروميد الإيثلين (EDB) وقد تم حظر هذه المبيدات الكيماوية في 1983 من قبل وكالة حماية البيئة الأمريكية باعتبارها مادة مسرطنة، إضافة لكونها مادة كيميائية شديدة السمومة. وقال أحد الباحثين والمحققين ويدعى تومي فارمر أنه وعلى إثر تحليل عينات من الكيمتريل قد تبين أنه يحتوي على الحديدوز المؤكسد ويستعمل في إنجاز تجارب على الطقس.

وللكيمتريل تأثيرات خطيرة على صحة الإنسان، فهو يمكن أن يسبب مشاكل في التنفس، ويمكن في بعض الأحيان أي يسبب مرض ألزهايمر بسبب أنه يحتوي على الأليمنيوم. وأعلن المتحدث باسم الحزب المعارض في كندا وهو الحزب الديمقراطي الجديد في 18 نوفمبر 1998 جوردن إيرلي في شكل عريضة موجهة للبرلمان باسم سكان بلدة إسبانيولا في كندا ذكر فيها: وقع أكثر من 500 من سكان من منطقة إسبانيولا عريضة تتعلق بمخاوفهم بشأن إمكانية تورط الحكومة في دعم طائرات تقوم برش ضبوب ووجدوا آثارا عالية من جزيئات الألومنيوم والكوارتز في عينات من مياه الأمطار، ودفعت هذه المخاوف بالكنديين لاتخاذ إجراءات خاصة، كما سعوا إلى الحصول على إجابات واضحة.

ويسبب أيضًا التهابات حادة في الحلق والجيوب الأنفية التي تسبب الصداع وتورم في الغدد اللمفاوية ونوبات السعال وضيق في التنفس وفشل عام في الجهاز التنفسي كما يلحق ضرر بالقلب والكبد، والتعرض لثاني بروميد الإيثلين يجعل الأشخاص أكثر عرضة لعوامل بيولوجية أخرى بسبب التهيج الشديدة في الرئة. كما ظهرت أمراض جديدة بالولايات المتحدة مثل مرض مورجيلونز يمكن أن يكون سببه من عمليات

رش الغاز، وهو مرض يصيب الجلد نتيجة ظهور ألياف ملونة وملتوية. وبحسب اختبار التلوث لمادة الكيمتريل فإنه قد وُجد ألياف المكوثر المجهرية في الجسم.

وفي 8 ديسمبر 2000 في كندا، اتصل البرنامج بتيري ستيوارت مدير التخطيط والبيئة بمطار فيكتوريا الدولي ليطلب منه تفسير حول أشكال غريبة من الدوائر والشبكات والنسيج الدخاني فوق عاصمة كولومبيا البريطانية، ولكنه رد بواسطة رسالة صوتية قائلًا: "هذه مناورة عسكرية للقوات الجوية الكندية والأمريكية. فهم لا يريدون توضيح أكثر".

وفي يوليو 2004 في ألمانيا قامت مونيكا جريفاهن وزيرة البيئة السابقة في سكسونيا السفلى (1990–1998) بكتابة رسالة موجهة للنشطاء المكافحين لهذا الغاز قائلة: "أشاطركم القلق خاصة حول استخدام سبائك من الألومنيوم أو الباريوم والتي تتكون من مواد سامة. ومع ذلك، على حد علمي استخدمت فيها حتى الآن سوى نطاق محدود للغاية." وفي ديسمبر 2007 ذكر تقرير إخباري في قناة آر تي إل، بأن خبراء الأرصاد الجوية الألمانية أكدوا على وجود هذه الضبوب وكانت مرتبطة بالاختبارات العسكرية التي كان هدفها التلاعب في المناخ.

وقال الدكتور منير العكش الباحث في علوم الإنسانيات في كتابه أمريكا والإبادات الجماعية، ان الإمبراطورية الأمريكية أبادت 112 مليون إنسان بينهم 18.5 مليون هندى أبيدوا ودمرت قراهم ومدنهم ينتمون إلى أكثر من 400 أمة وشعب علي حد قوله – وخاضت أمريكا 93 حرب جرثومية شاملة وتفصيل هذه الحروب أورده الكاتب الأمريكي هنرى دوبينز في كتابه "أرقامهم التي هزلت" في الجزء الخاص بأنواع الحروب الجرثومية التي إبيد بها الهنود الحمر بـ 41 حرب بالجدري، و4 بالطاعون، 17 بالحصبة، و10 بالأنفلونزا، و25 بالسل والديفتيريا والتيفوس والكوليرا .

وهناك علاقة للكيمتريل الملون وآثار القنابل الكهرومغناطيسية التى تترك شكل فوسفوري يشبه فروع الشجرة فى السما. وللتخلص منه يجب سرعة إزالة آثار الكيمتريل من خلال الخل أو بخار الخل عبر طائرات أو الاستعانة بأجهزة إزالة اثار الكيمتريل لمنع هذه الكارثة .

وتطلق الصين في كل عام آلاف الصواريخ والقذائف المدفعية بالسماء وما أتحدث عنه هو معركة مع الطقس. إذ تأمل الحكومة الصينية من خلال برنامج تعديل الطقس التحكم بهطول الأمطار، ويقوم هذا البرنامج بتوظيف وتدريب 32.000 – 35.000 شخص عبر الصين، بعضهم من الفلاحين، ويستخدم الأسلحة الثقيلة لإطلاق رصاصات تحتوي على silver iodide إلى الغيوم. لأنه يعتقد بأنها تعمل على تكثيف الرطوبة مسببة هطول الأمطار، هذه العملية تدعى ببذر الغيوم cloud seeding والصين تستثمره بكثرة إذ تستخدم أكثر من 12.000 بندقية مضادة للطائرات وقاذفات صواريخ بالإضافة إلى 30 طائرة.

أما أسلحة النبض الكهرومغناطيسية، فهى أسلحة الذبذبات اللاسلكية كما تم تقييمها مؤخرًا بأنّها أحد أهم أسلحة الدمار الشامل العملية من الناحية التقنية، ويستطيع هذا السلاح إلحاق الضرر بالإنسان وعدد آخر من الأشياء وذلك عبر استخدام نبض كهرومغناطيسي (EMP) قوي جدًّا، وقد تم رصد وملاحظة تأثير النبض الكهرومغناطيسي خلال الاختبارات الأولية للتفجير الجوي للأسلحة النووية من على ارتفاعات كبيرة، لكن الأمر لم يتطلب كثيرًا من الوقت حتى أدرك العلماء فيما بعد أنه يمكن الحصول على تأثير النبض الكهرومغناطيسي من خلال ذخائر أخرى من مصادر غير نووية في الأصل. وتوصل الأكاديمي السوفيتي "أندري ساخاروف" إلى تصميم "قنبلة كهرومغناطيسية" غير نووية في الخمسينيات، وقد عمل من خلال تصميمه على توظيف الحقل المغناطيسي لل solenoid مضغوط بانفجار المواد الكيميائية المتفجرة لإنتاج تأثير نبض كهرومغناطيسي قوي جدًّا، وقام فريق من العلماء الروس في روسيا بقيادة الأكاديمي "فلاديمير فورتوف" في معهد "الخصائص الحرارية للظروف القاسية" بدور مهم في دراسة سلاح النبض الكهرومغناطيسي ووسائل الوقاية منه، والدراسة ركزت على وسائل التدمير للمعدات والتجهيزات الكهربائية أو الإلكترونية التي تشكل في الأساس البنية التحتية للعديد من الدول، ومع أن الاختصاصيين لا يعتبرون سلاح النبض الكهرومغناطيسي سلاح قاتل، إلاّ أنهم يصنفونها ضمن الفئات الاستراتيجية التي من الممكن أن تستخدم لسحق محطات المعلومات والاتصال وعقد النقل المعلوماتية لدى الخصم.

كما تم عرضه في الحملة الجوية لعاصفة الصحراء في 1991، فإن صواريخ كروز المحملة برؤوس كهرومغناطيسية يمكن استعمالها بشكل فعال لتعطيل شبكة الوظائف والبنية التحتية لمعالجة المعلومات التابعة للخصم، حيث تم تعطيل كل الأجهزة الإلكترونية التابعة لمركز التليفزيون العراقي بكامله في بغداد عبر قنبلة إلكترونية واحدة تم إلقاؤها من قبل القوة الجوية الأمريكية في خلال حملة 2003.

وهناك سلاح الأوزون وهو واحد من الأسلحة الجيوفيزيائية مصمم خصيصًا لاستخدام عدد من الوسائل التي من شأنها تعطيل وإتلاف طبقة الأوزون في سماء العدو، ومن الممكن تحقيق ذلك عبر صواريخ تحمل "الفريون"، ويؤدي انفجار مثل هذه الصواريخ في طبقة الأوزون إلى تحقيق عدد من الثقوب فيها وتسمح هكذا للأشعة الفوق بنفسجية للشمس بالاختراق إلى سطح الأرض، والأشعة الفوق بنفسجيّة ضارة جدًّا بتركيبة خلية الكائنات الحية خاصة فيما يتعلق بأنظمتها الوراثية أيضًا، كنتيجة لذلك فان حالات السرطان سترتفع بشكل كبير ودراماتيكي، كما أن استنزاف الأوزون سيجلب تناقص في درجات الحرارة بشكل أكبر وسيزيد من الرطوبة، مما سيشكل خطر خاصة على المناطق الزراعية غير المدعومة.

وفكر موشيه ألمارو من معهد ماساسوستش للتكنولوجيا بالولايات المتحدة الأمريكية، أن نثر جزيئات الكربون في غلاف الإعصار مع التعديل الخفيف في درجة الحرارة من جانب واحد، يمكن أن تبعده عن المدينة التي يستهدفها بشرط إلا تضر بلدان أخرى، وذلك بعد أن تكبدت بلاده ما يقرب من 5 مليار دولار في آخر إعصار.

***

تبدلات جيو[1] بيئية إلى ما بعد 2200

طموح العلماء وشغفهم الشديد بالكشف والمعرفة والتطبيق يدفعهم دائمًا وبحماس إلى بلوغ المراد، فمن خلال العلم عرفنا ان الشمس تستهلك في كل ثانية أربعة ملايين طن من غاز الأيدروجين وماذال لديها كميات ضخمة من الأيدروجين تصل إلى حوالي 98 ٪ من كتلتها الحالية. وكتلة الشمس في حدود 2 بليون بليون بليون طن وقطرها في حدود 4و1 مليون كم، أي انها أكبر من الأرض بحوالي 330 ألف مرة.

باستطاعة العلم أن يستشرف مصير الليل والنهار بعد خمسة آلاف مليون سنة مثلًا. وهناك دراسات تقول أن اليوم سيصير 36 ساعة بعد الفترة من 2080 بجزئين من ألف جزء من الثانية، فبطء سرعة دوران الأرض حول نفسها هو ما يجعل يومنا أقصر من غدنا بحوالي 25 جزء من ألف مليون جزء من الثانية – رغم تقدمنا وسرعة الإنجاز بالأجهزة والعلم، فيكون أفضل مدعاة لضيق اليوم وليس طول اليوم وهو ما أدعو إليه – وبالطبع هذا سيؤثر على المناخ والغلاف الجوي..إلخ. وبعد حوالي ألف عام يطول اليوم ليصبح أطول من يومنا بجزأين من مائة جزء من الثانية..إلخ. ورغم ذلك أرى ان عدد ساعات العمل سوف يقل عن 8 ساعات ليصل إلى 6 ساعات ثم 4 وربما وصل إلى 3 فقط أو يصبح يومان أو ثلاثة أو في مرحلة عمرية معينة محددة بسنوات قليلة في ظل تكنولوجيا وعلم أحدث. إضافة إلى ان الآلات يمكنها القيام بأضعاف ما يقوم به إنسان في 8 ساعات عمل.

وفي جنوب المحيط الأطلنطي سوف يسجل العلماء أطول كسوف لم يحدث مثله منذ مئات السنوات إذ ستكسف الشمس لمدة سبع دقائق و 28 ثانية في يوم 16 يوليو عام 2186.

(1) المقصود جيولوجية بيئية وبتأثيرات استراتيجية كوكبية.

ورغم هذه القدرة العلمية إلّا ان العلم يعجز حتى الآن عن تحويل جسيمات ذرة كربون أو نيتروجين أو فوسفور..إلخ إلى موجات كهرومغناطيسية، ثم يعيدها إلى سيرتها الأولى، أي إلى جسيمات في نواة تدور حولها إلكترونات. وعن خريطة العالم قديمًا وحاضرًا وبعد آلاف إلى عشرة ملايين عام ستتحرك القارات نتيجة تحرك القشرة الأرضية باستمرار وبسبب وتغيرات مناخية عديدة سوف تمر بها الأرض.

ففي المنطقة العربية مثلًا سنجد الخليج العربي قد اختفى وأن شبه الجزيرة العربية تتحرك كصفيحة إلى الشرق نحو إيران. البحر الأحمر سوف يكون مفتوح على البحر المتوسط، وستختفي بالطبع قناة السويس وخليج العقبة، لتصبح المنطقة بحر مفتوح اتساعه مئات الكيلومترات. وستظهر في المحيطات جزر كبيرة وتختفي أخرى. سوف يختفي بحر الشمال وتلتصق بريطانيا بأوربا، كما ستختفي إيطاليا وتركيا وهولندا والبحر الأسود والبوسفور والدردنيل..إلخ، أي انه سوف تختفي دول ومناطق عديدة من العالم. وهذه التوقعات العلمية بناء على تحرك الصفائح في اتجاهات مختلفة بسرعات مابين ثلاثة وثمانية سنتيمتر كل عام.

وإذا ما ذابت قمم الجليد القطبية والأنهار الجليدية وارتفاعت المياه إلى 80 متر ستغرق مدن كبرى ببريطانيا وأمريكا وكندا – كمثال-. فعند ارتفاع مستوى سطح البحر بمقدار80 متر سيترك ذلك لندن -على سبيل المثال- تحت كميات هائلة من المياه، مع ملايين من النازحين إلى بلدات «بوشي» و«بورهاموود» و«بارنيت» إلى الشمال و«كاترهام» و«بيجين هيل» و«شورهام» إلى الجنوب، أما ليدز ويورك فستغرق مع ارتفاع منسوب مياه 3 أمتار، وشرق يوركشاير مع ارتفاع منسوب مياه 5 أمتار.

وهذه الخرائط عمل على تنفيذها الباحث «جيفري لين» من جامعة ليدز في بريطانيا، كجزء من دراسة بعنون «الحياة في إنجلترا بعد 200 عام»، وكشفت أيضًا أن «شرق يوركشاير» و«يورك» ستغمرهما المياه، وستصبح «ليدز» مدينة ساحلية. وتم وضع الخرائط من قبل هيئة التخطيط العمراني في مدينة سياتل الأمريكية باستخدام معلومات من هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية التي رجحت أن منسوب مياه البحر قد يرتفع بأكثر من 80 متر إذا ما ذابت كل القمم والأنهار الجليدية.

كما أوضحت الخرائط أيضًا ما الذي يمكن أن يحدث لمدن كبرى أخرى في الولايات المتحدة، فلوس أنجلوس وبالم سبرينجس وسان دييو جنوب ولاية كاليفورنيا وبورتلاند في ولاية أوريجون وسياتل ونيويورك ستغمرهم المياه جميعًا. وفي كندا مدن مونتريال وفانكوفر وغيرهما في كندا ستغمرها المياه[1].

ولكن قدرت العلماء على التحكم في الكوكب سيكون لها دور كبير، خاصة في المناخ والبيئة والكائنات الحية..إلخ، وهذه المشكلات لن تكون على الأرض فقط، بل ستواجهها كواكب ومجرات والكون، لكن سوف يتم العمل على تفاديها وتقديم حلول كبيرة جدًّا لها في ظل حضارات المجموعات النجمية. حينها سوف يقل عدد الكائنات الحية – بما فيها عدد البشر – وظهور كائنات جديدة– منها طفرات بشرية تعطيه قدرات أكبر، خاصة عقليًّا. سوف يستطيع الإنسان التحكم في الجاذبية (كمثال للحضارة الكوكبية) فيبني مدن وفنادق متكاملة تتحرك في الهواك – تتعدي مساحات بعضها مساحات دول– مثلما هناك مدن وفنادق في المياه، وهذا ما سوف يوحي إلى بناء مدن في أنحاء الفضاء النجمي ثم المجراتي ثم الكوني بجانب الكواكب والأقمار في الحاضرات الكونية المتعاقبة. وحينها سوف تستطيع هذه المدن التحرك في مختلف الأرجاء الكوكبية ثم تليه مرحلة التحرك عبر الأنحاء النجمية ثم المجراتية ثم أنحاء الكون، كل هذا حسب المرحلة الحضارية التي قسمناها.

ومن جانب آخر يجب النظر إلى ان البيئة أصبحت بيئات منها بيئة طبيعية وبيئة صناعية وثالثة مشتركة بينهما وبيئة تقنية ...إلخ، وطالما هناك بيئات فهناك كائنات وتفاعلات وديناميات عديدة وهناك تحور في كائنات أيضًا، وهو ما يفيد في الحياة على كواكب لا تتوفق مع كوكب الأرض، بينما تكون لها مواصفات معينة ومتطلبات معينة، وبالتالي عمل ما يناسبها قبل استعمارها بتحوير كائنات وتعديل تحويل تفاعلات ..إلخ، وربما احتاج الأمر ان الأفضل تحوير بيئة الكوكب أو الكويكب ككل أو بعضها، وربما تحويل أجزاء من الكوكب لبيئات مختلفة..إلخ.

(1) للمزيد كتابنا» مناخ الأرض 2150»، ببلومانيا للنشر والتوزيع،2019.

وقد بلغت جملة الحيوانات والنباتات المهددة بالانقراض حوالي 589 ,15 نوع، منها 7266 نوع من الحيوانات و8323 نوع من النباتات والأشينات. و يتضح من الأبحاث أن نسبة الأنواع المهددة بالانقراض هي:

من كل «4» أنواع من الثدييات. «1» من كل «7» أنواع نباتية، «1» من كل «8» أنواع الطيور1.

وفي ظل التقدم العلمي سوف نجد ان كفة التنوع الحيوي تميل نحو الحيوانات المدجنة من قبل الإنسان مثل الأبقار والكلاب والقطط والخراف وغيرها، على جانب آخر نجد حيوانات كثيرة تنقرض بشكل سريع فمثلًا تعداد الذئاب في العالم لا يتجاوز ال200 ألف، بينما يوجد حوالي 400 مليون كلب مدجن على الكرة الأرضية. أيضًا يوجد حوالي 600 مليون قطة مقابل 20 ألف أسد (قبل قرن كان تعداد الأسود حوالي 200 ألف). الفيل والأسد الأفريقي وغيرهما المئات من الحيوانات المعرضة للانقراض.

الفكرة أننا نغير التنوع الحيوي على كوكب الأرض وقريبًا سيكون المكان الوحيد للتنوع الحيوي هو حدائق الحيوانات. سيصبح كوكب الأرض مكان يعيش عليه الإنسان وبقية حيواناته المدجنة. اليوم حوالي 90 ٪ من الحيوانات الكبيرة (عدة كيلوجرامات) التي تعيش على كوكب الأرض هى إما إنسان أو حيوانات مدجنة من قبل الإنسان.

ضمن تاريخ الحياة على كوكب الأرض حدثت 5 انقراضات شاملة قضت على أغلب الأحياء على كوكب الأرضن فالإنقراض الأول (الأوردوفيشي) حدث قبل 450 مليون سنة تقريبًا سببه تغيرات مناخية و تسبب في انقراض أكثر من60 ٪ من اللافقاريات البحرية. والإنقراض الثاني(الديفوني المتأخر) حدث قبل 350 مليون سنة تقريبًا و استغرق حوالي 25 مليون سنة، وهذا الإنقراض أثر على الحياة البحرية بشكل خاص وسبب انقراض 75 ٪ من الأنواع. والإنقراض الثالث(البرمي الترياسي) وحدث قبل 250 مليون سنة ويعتبر أكبر حدث انقراض شهدته الحياة على كوكب الأرض إذ تسبب في انقراض 95 ٪ من الحياة البحرية وحوالي 70 ٪ من الحياة الفقارية على اليابسة و57 ٪ من الحشرات. والإنقراض الرابع(الترياسي-الجوراسي) حدث

قبل 200 مليون سنة تقريبًا وتسبب في اختفاء 20 ٪ من الكائنات البحرية والكثير من الزواحف. والإنقراض الخامس (الطباشيري-الثلاثي) أو ما يعرف بحدث انقراض الديناصورات والذي حدث قبل 65 مليون سنة تقريبًا. وتسبب في انقراض أكثر من 80 ٪ من الحياة على كوكب الأرض ونجى منه فقط بعض أنواع الطيور والثدييات الصغيرة.

وهذا عصر الإنقراض السادس في تاريخ الحياة على كوكب الأرض. لكن هذه هى المرة الأولى التي يتسبب أحد الأحياء في انقراض كبير مثل الذي يحدث في هذا العصر. عادة تكون الإنقراضات بسبب تغير مناخي أو كارثة طبيعية، لكن اليوم الإنسان هو المحرك الأساسي لهذا الإنقراض. نعم النباتات و الحيوانات تشعر وتدرك اغفالنا الحقيقة، وهو مايجعلنا نتصرف بوحشية لا مثيل لها في عالم الحيوانات. سوف نتميز عن بقية الأحياء اننا محرك هذا الإنقراض القائم في هذا العصر. إلا انه لكل عصر كائناته، وطبيعته الأنسب حسب المتغيرات والمكونات والمناشط الواقعة، فسوف تحدث انقراضات وتغيرات عديدة، لكن هذا لا ينفي ان مناشط الإنسان سوف تكون من أسبابها.

والحقيقة لم تعد حماية الطبيعة في مواقع متفرقة كافية للحفاظ على نظام دعم الحياة، حتى ولو تضاعفت المناطق المخصصة لحماية النباتات والحيوانات بمعدل عشرة أضعاف، ومن ثم فسوف تحتاج البشرية إلى 30 كوكب أرض بحلول 2100، لمواجهة زيادة السكان، والاستهلاك المفرط وعدم كفاءة استخدام الموارد.

***

الفصل الثاني

التحكم في المادة والحياة والذكاء والأوتومية

العلم خلال المائتي عام

القرنان ال21 و22 خلافًا للقرون الماضية يتميزان بالتضافر والتلاقح بين الحقول العلمية المختلفة، مما يعد إيذانًا بنقطة تحول مهمة في تاريخ البشرية لم يسبق لها مثيل في التحكم في المادة والحياة والذكاء. ومدى الأعوام القادمة هو بداية مرحلة جديدة أو حد فاصل لحضارة جديدة يسميها البعض عصر الفضاء أو عصر المعلومات أو عصر الحضارة الإلكترونية أو الحضارة التكنوترونية أو عصر ما بعد الصناعة أو عصر الصناعة العملاقة أو عصر الثورة العلمية والتكنولوجية إلى آخر هذه التسميات التي تؤكد أننا دلفنا إلى حضارة جديدة، حيث تتضاعف قدرة الكمبيوتر كل 18 شهر، وتتضاعف قدرة الانترنت مرة كل عام، كما تتضاعف سلاسل ال(د. ن. أ) التي يمكننا تحليلها مرة كل عامين. وهذا يفضي إلى بيوت وملابس وسيارات وأموال ومجوهرات ذكية..إلخ، ومن أمثلتها:-1 حلم ينبوع الشباب: أكتشف الباحثون مفتاح يساعدهم في التحكم في نمو التيلوميراز، وباستخدام هذا المفتاح يستطيع الشخص إيقاف تقدم الخلايا في السن ويعزز قدرة السليمة منها على الاستمرار في الانفسام والتكاثر لاحقًا، وفي كل مرة تنقسم الخلايا تحصل عملية نسخ لكامل الجينوم الخاص بها، وبهذه الطريقة نقوم بتجديد الخلايا التالفة والهرمة في أعضاء الجسم المختلفة، من الجلد والكبد والرئتين، لكن هذه الخاصية لا تستمر للأبد.

في كل دورة خلوية يقصر طول التيلومير، وتتواجد هذه القطع الجينية في نهايات الصبغيات وتؤثر على نضج الخلايا وهرمها، حيث تعمل كغطاء في النهاية الصبغية، وهى عبارة عن مجموعة من تسلسلات القواعد النتروجينية التي لا ترمز لبروتينات وظيفتها ضمان عدم تآكل التسلسلات االجينية في نهاية الكروموسوم، ذلك أنه في نهاية كل انقسام خلوي يتم فقدان مجموعة من القواعد النتروجينية، لذلك يتم فقدان التيلومير بدلًا من فقدان الأجزاء المهمة من الشفرة الجينية. وعندما تقصر هذه القطع بسرعة تتوقف الخلايا عن الإنقسام.

في دراسة تبين أن طول التليومير يرتبط بكثير من الأمراض التي تصيب الإنسان، بل ويؤثر في العمر الذي يصل إليه الشخص. وتفرز بعض خلايا جسمنا إنزيم التيلوميراز المسؤول عن إعادة تشكيل التيلوميرات، ووجد كل من تيموثي توسي وفيكتوريا لوندبالد أن هناك آلية أو طريقة لإيقاف عمل التيلوميراز، وفهم آلية عمل هذا المفتاح قد تقودنا إلى السيطرة على تقدم الخلايا في العمر وتقلل سرعة خسارة التيلومير، وبالتالي زيادة معدل التجدد الخلوي حتى في الأعمار الكبيرة.

وكان يعتقد أن وجود هذا الأنزيم في الخلية يكافئ عمله، أي تشكيله للتيلومير في الخلايا المنقسمة، وكان يعتقد أن المشكلة الوحيدة هى قلة أو عدم وجود التيلوميراز في الخلايا. وأوصت الدراسات السابقة أنه يمكن تصنيع التيلوميراز فيبقى في الخلية عند الحاجة، لكننا وجدنا أن التيلوميراز يحوي في طبيعته ما يشبه المفتاح الكهربائي، أي تستطيع أن تشغله وتطفئه، وبالتالي تفكيك الإنزيم، أي أن الإنزيم موجود في الخلية ولكن غير فعال، مما يبطء هرم الخلية.

قام الثنائي بدراسة نمو الخلية وانقسامها في عضوية وحيدة الخلية، هى الخميرة المسماة Saccharomyces Cerevisiae خلال تضاعف جينوم الخلية، كان التليوميرز في شكله المعقد، حيث يفتقد لتحت وحدة جزيئية ضرورية لعمله، والتي تنضم إليه بعد انتهاء الخلية من نسخ الجينوم بالكامل، حينها يقوم الإنزيم المفعّل بإضافة التيلومير للنهايات الصبغايات ليضمن دخولها مرة ثانية في عملية الانقسام. وبعد تجمع التيلوميراز بشكل كامل فإن المركب يتحطم إلى معقد آخر غير فعال مطفئ المفتاح مرة أخرى.

ويرى الفريق البحثي أن هذا الطريق يساعد في بقاء التيلوميراز في مستوى منخفض داخل الخلايا، بينما يحدث العكس في خلايا السرطان التي تعتمد على وجود مستوى عال من التيلوميراز لتدخل في دورة تضاعف خلوية غير منتظمة.

2 – تواصل الحياة الافتراضي الاجتماعي: أليكسيس جيني يتصور اختراع جهاز إلكتروني يمكن وصفه بـنسخة متطورة من جهاز آيفون الحالي، بحيث يمكن للإنسان بواسطته تنظيم الصلات مع بقية العالم من حجرة معزولة. وهذا التصور بالتحديد هو

الإطار الذي يحدده للشخصية الروائية التي يقدمها في أقصوصته التي يطرح فيها رؤيته لعالم القرن الثاني والعشرين. تلك الشخصية الرئيسية هى امرأة تعيش وحدها في منزل معزول حيث تسوي كل أمور حياتها بطريقة افتراضية عن طريق شبكات التواصل الإلكترونية.

الجميع سيجدون أنفسهم في حالة تواصل عبر الشبكات الإلكترونية، بحيث يمكنهم تأمين جميع ما يحتاجون إليه دون أن ينتقلوا من المكان الذي يعيشون فيه، لكنه الإنسان سيقاوم كل محاولات إبعاده من ساحة الفعل، وهذا يعتبر الجوهر في ظل تضاؤل الحاجة للتواصل البشري طالما يمكن اللقاء عبر الانترنت. وتلك القدرة على العيش الافتراضي يترتب عليها تغيير مفهومنا للزمان والمكان.

3 – إنسان افتراضي بعد الموت: يعمل العالم إيان بيرسون على تجربة قد تصيبه بالجنون، أو تساهم في جعله أشهر علماء الكرة الأرضية عبر التاريخ، الأمر وما فيه هو أن إيان يحاول نقل الوعي الخاص بكل انسان إلى الكمبيوتر، وتسجيله على هيئة بيانات، ليتحول الشخص بعد وفاته إلى شخصية افتراضية تعيش داخل الكمبيوتر، وتعتمد الفكرة على الذكاء الاصطناعي والذكريات والقدرات المسجلة باسمه داخل الجهاز.

وعلى الصعيد الاجتماعي من المتوقع انقسام المجتمع إلى فئتين أساسيتين، الأولى فئة المستفيدين من ثمرات تطور التكنولوجيات البيولوجية التي تقدم لهم كل ما يشاؤون، والفئة الثانية هى جموع المحرومين من ثمرات تلك التكنولوجيات الذين يشكل المهاجرون لأسباب اقتصادية ومعيشية ومناخية السواد الأعظم منهم.

4 – رقائق ذكاء وقدرات إدراكية: ينفق الكثير الآن في محاولة عمل طرق لزرع أشياء داخل الدماغ دون أن يحفر في عظام الجمجمة، بمعنى العمل على زراعة رقائق تقنية متقدمة في الدماغ يحقق البشر من خلالها تقدم في مجال تعزيز ذكائهم وقدراتهم الإدراكية، فهل يمكنك أن تأكل شيء ما يصل فعليًّا إلى دماغك؟ هل يمكن تناول أجزاء يتم تجميعها داخل رأسك؟، ورغم ذلك حذر الدكتور موران سيرف عالم الأعصاب بجامعة نورث ويسترن من أن هذا الأمر قد ينشأ عنه شكل جديد من عدم المساواة الاجتماعية، خاصة وجود فوارق شاسعة في الإدراك والذكاء داخل المجتمع الواحد. وأضاف عندما يصبح العقل البشري متصل بالإنترنت يذهب إلى موقع ما، وعندما

يفكر في أمر معين يحصل على إجابة. ويعمل الدكتور موران سيرف على تطوير واحدة من تلك الرقاقات بهدف تحسين الذكاء البشري من خلال دمجه مع التقنية الحديثة.

وظهرت هذه الفكرة خلال مبادرات مثل Neural ink التي يدعمها إلون ماسك، والتي تعمل على تطوير واجهات حاسوبية داعمة للعقل البشري. كما أعلنت وكالة مشاريع البحوث المتطورة الدفاعية" داربا" عن مواصلة اهتماماتها بهذا المجال، حيث تعمل على تعزيز القدرات الإدراكية للجنود وتطويع التقنيات الحديثة.

وحققت هيئة الأبحاث بالبنتاجون تقدم في مشروع يهدف لسد الفجوة بين البشر والآلات، كما اختارت «داربا» عدد من الفرق لتطوير واجهة عصبية كجزء من برنامجها N3 الجديد بهدف تطوير أنظمة تسمح للجنود بإرسال واستقبال المعلومات باستخدام الموجات الدماغية. وهذا يعني أنه سيصبح بإمكان القوات التحكم في الطائرات بدون طيار وأنظمة الدفاع الإلكترونية وغيرها من التقنيات بعقولهم فقط. ويتحقق ذلك بإحدى طريقتين: جهاز غير اجتياحي خارج الجسم، أو نظام غير جراحي يمكن ابتلاعه أو حقنه أو توصيله عبر الأنف.

ومولت الوكالة ثمانية بحوث منفصلة لتحديد إمكانية استخدام التحفيز الكهربي بأمان تعزيز مهارات التعلم والتدريب. فالبرنامج المعروف باسم برنامج تدريب المرونة العصبية المستهدفة "تي ان تي" يهدف لاستخدام الجهاز العصبي الطرفي للجسم في تسريع عملية التعلم. ويمكن أن يتم ذلك عبر تنشيط عملية تسمى بـالمطاوعة المشبكية بالتحفيز الكهربي، وهذه العملية هى العملية الرئيسية في المخ المسؤولة عن التعلم. هذه المساعي ستمكن الشخص من إتقان المهارات المعقدة التي تحتاج عادة إلى آلاف الساعات من التدريب والممارسة في وقت أسرع بكثير.

5 – زوال السجون وهجرة السجناء: عمل جان بيرار لسنوات مدير لأحد السجون، أكد أن عالم السجون سيزول من عالم القرن الثاني والعشرين. وهو يقدم أفكاره عن تراجع عدد المساجين بصيغة ذكريات مدير سجن. فعملية تراجع عدد المساجين مقابل أعدادهم المتزايدة أكثر فأكثر اليوم ستبدأ اعتبارًا من أواسط القرن الحادي والعشرين.

بشرية خضراء معطرة

منذ بداية ظهور الإنسان على الأرض بدا واضح انه غير قنوع بنفسه وبقدراته، غير قابع بما لديه من إمكانيات، فصنع امتداد له من عصي وجلد حيوان وسيارات وطائرات ومكوك فضاء وأدوات واختراعات عديدة. وكل منها لتقوية عضو ما، فالسيارة والطائرة والمكوك امتداد المشي على القدمين، والتليسكوب امتداد العينين، والتليفزيون والراديو والتليفون والسماعات امتداد الأذن. لذا قد يتمخض عن الأجيال القادمة تغيير في صفات الإنسان نفسه أو تخليق سلالة جديدة كامتداد له. وهناك الكائنات غير ذاتية التغذية أو عضوي التغذية أي لا بد أن يحصل على طاقه من مادة عضوية يكونها كائن آخر. والإنسان يتبع هذا القسم لكنه يختلف في الكيفية. وأيضًا هناك كائنات ذاتية التغذية.

من هنا يرى بعض العلماء إمكانية خلط بعفو المكونات الوراثية الموجودة في النبات الأخضر بالمكونات الوراثية الموجودة في الحيوان فتنشأ من ذلك خلية هجينة تجمع بين صفات النبات والحيوان. وسيتبع ذلك مستقبلًا تحقيق إنجازات أضخم وأعظم نتيجة للتطور في الوسائل العلمية والفهم الأعمق، كل هذا وغيره سوف يؤدي إلى تحوير وتعديل وتطوير في البرنامج الوراثي للإنسان ذاته فيكتسب صفات جديدة عن إنسان العصر الحاضر. قد يؤدي إلى إنتاج سلالة بشرية جديدة تدخل في تكوينها الوراثي بعض الصفات النباتية المرغوبة وعلى رأسها عملية التمثيل الضوئي التي يتميز بها النبات عن الحيوان والإنسان. وهو ما يعني ان الإنسان الحالي قد يتحول إلى مخلوق أخضر يستفيد بالطاقة الشمسية أو الضوئية استفادة مباشرة ويكون بها غذاؤه ويصبح ذاتي التغذية كالنبات تمامًا. وإنتاج أول خلية إنسانية تحمل ضمن مخططها جزء من المخطط النباتي. يمكن نسخها بعد ذلك ثم زرعها في أرحام لتعطي ذرية كلوروفيلية أو خضراء وتسود بعد ذلك بصفاتها الجديدة المكتسبة، وعندما يحدث التزاوج بين أفراد هذه السلالة تختلط

الصفات الوراثية لتعطي أجيال مختلفة الطباع والشكل والصفات، ولكنها تتميز جميعًا بالصفة الكلوروفيلية التي تجعلها ذاتية التغذية.

وحيوان يوجلينا Euglena حائر بين علماء تقسيم مملكة النبات وعلماء تقسيم مملكة الحيوان، فهو كائن يحيا الحياتين. لكن الأمر قد يصبح أكثر تعقيد في بعض الكائنات الأرقى قليلًا إذ تقوم بين كائن حيواني وكائن نباتي حياة تكافلية كليهما يكفل الآخر أو أنهما يتبادلان المنفعة بينهما. الإنسان الكلوروفيلي قد يتواجد بعد مائتين أو ثلاثمائة من السنين[1]، بحيث ينتشر الإنسان الأخضر، وربما هجر الإنسان الأخضر زراعة الأرض وتربية الضرع. إذ لم يعد هو في حاجة إلى زرع وضرع . وبهذا تتحول الأرض الزراعية إلى غابات وبساتين وتمرح فيها الحيوانات وتغرد الطيور وتتفح الزهور وترفرف الفراشات وتتساقط الثمار لتكون من نصيب الحيوان لا الإنسان لأن الإنسان جسمه يغذي نفسه بنفسه، وما يهم الجسم على صورة ميسرة من صور الطاقة التي تمنحه النشاط والحيوية والحياة. وليس هناك ما هو أفضل من الطاقة الشمسية أو الضوئية فتتحول في خلايا بشرته الكلوروفيلية إلى طاقة كيميائية لتدير له عملياته الحيوية. كل هذا سوف يؤدي إلى اختفاء المجازر والمخابز والمطاحن وإغلاق المطاعم من الانواع القديمة. والإنسان يفرز عرق وقد يكون منفر، لكن قد يمكن التغلب على ذلك من خلال بعض الجينات النباتية التي تكون العطور الطبيعية. وعندئذ ستؤدي إلى إنتاج سلالات بشرية معطرة تفرز عطور بدلًا من العرق. فتكون مقاييس الصحة والجمال متطورة جدًّا، رغم أن شكل الإنسان الحالي أجمل. إلا أن هؤلاء عندما يعطشون يشربون ماء مزود بأملاح معدنية وأخرى بتركيزات قليلة ونيتروجينية غير عضوية. والطعام حينها سيكون حلو المذاق طيب النكهة فلقد أضافوا إليه مركبات كيميائية معروفة)مثل السكارين أو بعض البروتينات التي استخلصها العلماء من نبات استوائي وتمتاز بحلاوة فائقة) أو مركبات أخرى اشتقوها وأضافوها إلى محاليلهم لتناسب حياتهم. وربما السبب في تحيز هذه السلالات البشرية الخضراء إلى هذا النوع من الحياة هو اهتمامهم بعقولهم دون

(1) يمكن الاستزاده من كتابنا» حضارات الكون العظمى».

بطونهم. وهو ما يهبهم النشاط والحيوية والشباب والقضاء على أمراض الإنسان السابق ومكروباته وجراثيمه هو وكائنات أزمنته القديمة. فلا طعام ولا هضم ولا ميكروبات ولا سموم ولا أغلال كيميائية تسرع به إلى الشيخوخة، بل قد تصل الحياة في المتوسط إلى 180 أو إلى مائتي عام. تبادل المنفعة على أسس كيميائية حيوية بين كائن أو نظام يكفل أحدهما الآخر يؤدي إلى نشاط أوفر وحيوية أكثر وعمر أطول. وطالما تواجد انسان أخضر ربما توصل العلماء إلى إنسان بألوان مختلفة، فالمراة مثلًا قد نرى منها نساء بلون وردي وأحمر، أو قد نجدها تستطيع تغيير لونها لفترات ومدد طويلة. أي ليس تغير في اللون من خلال الجينات حسب الحاجة، بل ومن مواد كيميائية وحيوية تكسبها اللون الذي تريده وحسب المدة التي تريدها.

ففي الإنسان الأخضر ثاني أكسيد الكربون الناتج من عملية التنفس سيصبح متاح لعملية التمثيل الضوئي في هذا الطراز الإنساني الجديد ويعطى بدلًا منه الأكسجين وهو بدوره إكسير الحياة وهو الذي يوقد فينا جذوة الحيوية والنشاط ويمنحنا الطاقة الكيميائية التي تدير في داخلنا "الدينامو" الحي، أي كأن الإنسان الأخضر جمع في تكوينه الحسنى مع اختفاء الضار وظهور النافع تبعًا لذلك. هؤلاء البشر الخضر ممشوقو القوام نحيفو الأجسام لأن الإنسان الأخضر يحصل على عناصر الحياة بحساب ومقدار.

بعد مائتي أو قبل ثلاثمائة عام سوف تصبح فروع المعرفة في أوج عظمتها ومجدها، فالعقول الإلكترونية ستصبح أكثر إثارة من الأجهزة التليفزيونية ستخرج مع الناس وتلعب معهم وتقدم لهم من أنواع التسلية والرفاهية مالا يستطيع تقديمه نجوم الضحك أو الكوميديا. وعلى جانب آخر يستطيع الإنسان تطوير النباتات والحيوانات أيضًا، فاستطاع تطوير نبات Capsella Grandiflora في جين S R K تغيرت آلية التلقيح به فبدل من إنتاجه من حبوب اللقاح و تخصيب نباتات قريبة أصبح يخصب نفسه بنفسه فتغير اسمه إلى Capsella Rublla.

تقطع فحل النخل وبعد قطعه نبت في أصله ومن جذعه وجذوره نخل يثمر وكان ذلك على خلاف العادة، لكنه دال على قدرة الله تعالى وانه خالق الذكر والأنثى. أما في

الحشرات الدقيقة وتكاثرها فهو فوق الحصر والحد وقد ذكرو في عالم الحشرات الدقيقة من يلقح نفسه بنفسه باحتكاك بعض فخذيه ببعض وحشرات مما لا يكاد يرى بالعين مع ذلك فإن فيه الذكورة والأنوثة. وهذا ليس دليل على التطور! فنظرية التطور تنص على تغير في النوع.

وهناك نتاج تجارب علمية استغرقت عقد من الزمن أفرزت كائن مجهري ذو خلية أحادية تحمل برمجية وراثية تم تركيبها في المختبر. واعتبره البعض بمثابة إعلان عن ولادة الخلية الحية المصنعة ضمن مشروع علمي تولاه معهد كريج فنتر في ولاية ميريلاند الأمريكية.

وفنتر من الباحثين الرواد على الجينوم البشري «الخريطة الوراثية» يشتهر بوضعه مختصر لفك شفرة الجينات. لكن الصحافة الغربية أجمعت تقريبًا على إضافة عناصر أخرى للتعريف به، بينها أنه يملك ثروة تقدر بملايين الدولارات وكان من المشاركين في حرب فيتنام، بل وتزيد أنه مبدع أيضًا في مجال الترويج لأعماله وعقد صفقات لتمويلها مثل اتفاقه مع شركة أكسون موبيل النفطية باستثمار نحو 600 مليون دولار في أبحاثه.

ما توصل إليه كريج وفريقه المؤلف من 24 عضو، أحدث صدى واسع شأنه شأن عمليات الاستنساخ ووضع خريطة الجينات. والتقنية العلمية التي أعلن عنها هى تصنيع خلية حية، بواسطة حقن مادة وراثية عبارة عن سلسلة قصيرة من الحامض النووي "د. ن. أ" إلى داخل ميكروب (من نوع مايكوبلازما) فرغ من مادته الوراثية. والخلية المنتجة بدت مشابهة تمامًا للخلية الطبيعية. كما أنها دخلت أيضًا في دور الإنشطار الحيوي وانقسمت مليارات المرات، منتجة نسخ تتحكم فيها البرمجية المصنعة التي أدخلت للخلية الأم.

وسلسلة "د. ن. أ" التي أدخلت إلى الخلية محمولة على كروموسوم مصنع، تم تركيب شفرتها على جهاز كمبيوتر، لذلك يقال عليه انه مخلوق أنجبه الكمبيوتر. وتعددت المواقف من هذه التقنية فهناك من يراها نقطة تحول في علم الجينات وهناك من يعتبرها تدخل في الهرمونات الطبيعية، وهناك من يعتبر أن تصنيع الحياة يشكل خطر على الحياة ذاتها.

وفي إطار دعتوتنا العودة للتطبيعة يمكن استخدام جزيء(د. ن. أ) كأداة تشفير وتخزين للمعلومات واستدعائها عند الحاجة، لأول مرة في التاريخ سوف يصبح بإمكاننا تخزين المعلومات داخل النظام الحي ذاته بطريقة غير تقليدية على الإطلاق، كما سوف تفتح أعيننا أيضًا على وسيلة جديدة لفهم كيفية تعاطي الخلايا الحية مع المعلومات، وستساعدنا بمقارنتها مع التقانات الأخرى في فهم أفضل لكيفية عمل المخ وكيفية تكون أشياء مثل الذاكرة.

وتتحدث بيريت بروغارد في كتابها "العقل البشري الخارق: أطلق العنان للذكاء القابع بدماغك" عن عالم شجاع جديد، نتوقع أن نرى فيه عقاقير جديدة وتقنيات حديثة تساعد على استغلال قدراتنا العقلية الاستثنائية. بدأت بدراسة حالة "التصاحب الحسي"، وهى حالة عصبية تتمثل في المزج بين الحواس المختلفة؛ كربطِ الأصوات بالألوان، الذي قد يؤدي عادةً إلى سماع الألوان؛ حيث يتمكن الأشخاص المصابين بهذه الحالة عادةَ من سماع أصوات للألوان بطريقة ما.

ماقدمناه مجرد نماذج لإنسان فائق ذو مميزات عديدة يجمع ما بينها في تكوينه من الكائنات الأخرى سواء حيوانية أو نباتية أو طبيعية وصناعية، كإنتاج الطاقة الذاتية ومقاومة الأمراض وقوة العيون والأعضاء والجسد ..إلخ. لكن هل هذه الآلية يمكن أن تكون موجودة عند البشر؟ أترك لكم الإجابة التي تستطيعون استنتاجها مما سبق.

***

يوجينيا الإنسان الفائق

هل المعرفة تنقذ الإنسان أم انها تقتله؟ بالطبع تنقذه، لكنها قد تقتله أيضًا، وربما لم يعرف ما إذا كان قتله بسبب المعرفة التي اكتسبها أم بسبب المعرفة التي لم يكتسبها، والتي كانت ستنقذه لو انه عرفها. ونهاية التاريخ لا تأتي إلاّ بنهاية المعرفة وليس بنهاية علم أو حضارة معينة عمومًا، وطالما هناك حياة هناك معرفة وعلم وفكر متطور واستئناف مجددًا، فلا ثبات لمخلوق زمن ولا فكر ولا ثقافة، بل قد يتم الإسراع منهم، فالعلم يختصر من الزمن الإنساني ويهمش من الصدفة.

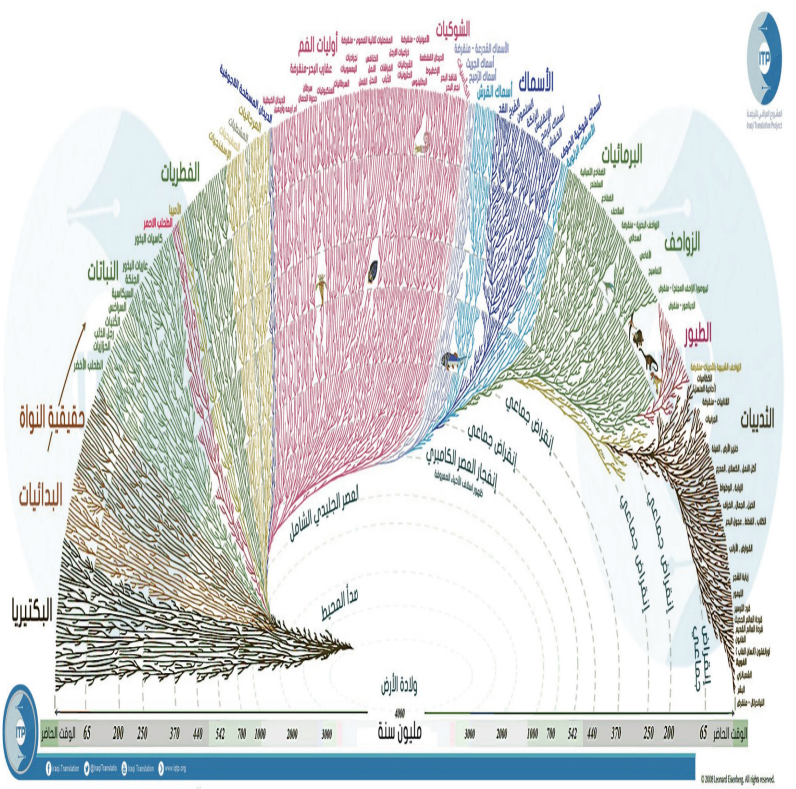

هاجر الإنسان من إفريقيا من مصر عبر سيناء إلى آسيا وأوربا ولم يكن شعره أشقر ولا عينيه زرقاء. وهذا التغير ليلائم البيئة، ومثلما يورث الإنسان جيناته يورث حضاراته وهذا أثر على جيناته فبدل حاجته للشعر الكثيف صنع ملابس ثقيلة وبيوت دافئة تحميه برد الشتاء. وتوريث المنجزات الحضارية يؤثر على الجينات وتحويرها. أي تأثير الثقافة على الجينات مثلما تؤثر البيئة على الإنسان.

ومنتجات العلم والتكنولوجيا حورت منتجات عديدة في الزراعة والحيوانات والصناعة والتكنولوجيا، فأصبح التغير في البيئة أكبر من تطور الإنسان الذي تسبب في سرعة تغيرها وإصابتها بعلات منتجاته الحضارية. وربما وصل الإنسان إلى تسريع التطور الوراثي، فإذا استطاع اختصار زمن التطور والتحور الوراثي والوصول به لقمم كبيرة بهدف إيجاد إنسان فائق عنا، فإن ذلك يجعلنا كنوع من أنواع الإنسان. وما أقصده هو تطوير الكائن الحي خاصة الإنسان إلى درجات أكبر وأكبر ليصبح أفضل وأسرع بكثير من التطور عبر الزمن البشري البطئ وهو ما يفتح الباب أمام أنواع عديدة على مدى آلاف وملايين السنين القادمة لأنواع أخرى من الإنسان، وكل شخص حسب الطلب وفق متطلبات وصفات وقدرات معينة، فهناك الإنسان الذى تحور ليواكب الحياة فى البحار والمحيطات، وهناك الإنسان المتحور والمتوافق مع الكوكب الذى يعيش فيه ويتميز بمميزات كوكبه ومجموعته الشمسية ومجرته، وهكذا عدد آخر من البشرية. وهذا ما كان يجب أن يركز عليه الإنسان بعمل قدرات إنسانية في مختلف الأماكن والأزمان وحسب كل احتياجات وفق الطبيعة، حيث كان يمكنه الإتصال عبر التخاطر والتردد والتفكير العالي، كان يمكن أن يرى إنسان آخر في مكان بعيد ودول وأماكن أخرى بإمكانات بصرية وعقلية بيولوجية تم تطويرها، كان يمكنه امتلاك ذاكرة تفوق كل ذاكرة يصنعها، كان يمكنه الإنتقال بسرعات عالية عبر تطوير عضلات معينة أو الإستعانة بحيوانات مطورة سرعة أو قوة أو حجم، كان يجب أن يبدأ طبيعي وبيولوجي، بدلًا من الصناعة والآلات – من النار إلى ما بعدها– التي اختارها واختار طريقتها فغير في البيئة وأساء للطبيعة وأضر نفسه.

كل شيء في الكون مكون من ذرات والذرات من جزيئات..إلخ، وهى تتكون في العمق من ترددات، وكل تردد له قياس، وهذه الترددات تتقارب وتتجاذب مع بعضها البعض وفقًا لتشابهها وتوافقها أو حتى تقاربها في بعض الخصائص والصفات وبناء على ذلك يمكن أن يتشكل التواصل والإتصال البشري. ووفق ما اختار الإنسان حياته سوف تكون الأخلاق والعواطف فيها متبدلة، بل سوف تتغير وتصبح حضاراتنا وثقافاتنا مجرد تاريخ في مراحل التحضر البشري. وربما اتخذوا قواعد وأسس رأوها متناسبة مع أزمنتهم. ومثلما كان نياندرتال"الذي يرى بعض العلماء انه إنسان" وعاش فترة زمن الإنسان العاقل ثم انقرض، حدث مع الإنسان العاقل، حيث يعيش فترة مع الإنسان الفائق إلى أن ينقرض دون حرب، وفي الحقيقة حال ذلك فإننا نتعرض لحرب، بالتكنولوجيا وتغير البيئة قتل بطئ، بعد أن سخرنا الطبيعة لخدمة الصناعة والتقنية وليس العكس. قد تتم معاملة الإنسان العاقل مثلما يعامل بعض ساسة الغرب الكائنات الحية في جنوب الأرض وعلى رأسها الإنسان.

وفكرة تحسين الإنسان في عقول المفكرين قديمة، عالجها افلاطون ونيتشه، فهى تعني أن هناك بشر أفضل من بشر وراثيًّا- كمثال- وانه من الممكن الوصول إلى الإنسان الفائق. وهذا يفتح المجال لإنسان مهجن أو مختلطة مكوناته من مكونات أخرى غير اللحم والدم واتصاله بالمغناطيسية والكهرباء والالكترونيات ..إلخ، ومن خلال النانومتر يمكن إدخال مكون صغير في الجسد بشكل بسيط، وبالتالي التحكم في بعض البشر حتى على بعد آلاف الكيلومترات. ورغم أمانيهم وطموحاتهم لا تنسو أن الكمال لله وحده. كما أن الجين لايمكن صناعته مهما تم التحوير فيه. وهدف علماء البيوتكنولوجيا الرئيسي هو نفس هدف علماء ثورة اليوجينيا، القضاء على الفقر والمرض.

التاريخ لا ينتهي إلا بنهاية العلم والأخلاق والإنسان نفسه، وربما ظهر بديل للعلم مثلما حل العلم محل الفلسفة. ورغم أي شيء نحن نعيش في جوف مرحلة هائلة من التقدم في مختلف العلوم. فمع إضعاف العائلة البيولوجية لم يعُد للأشواق والعواطف والوحشة قوة ولم يعد البشر بمعنى الكلمة المعتادة بعد أن فقدوا كثير من الصفات

التي تضفي جلال البشرية، بل والسلالة البشرية نفسها معرضة لتحور كبير، عالم اللا أخلاقيات البيولوجية. هؤلاء جردوا من بشريتهم، وربما لم يعيروا الأمر اهتمام، سعداء سعادة الرق. لكن مؤكد سنجد من يقولون لماذا نفرض تابوه معين على بشريتنا؟ ولماذا لم يكن هذا تطور طبيعي للبشرية عبر ملايين السنين؟. أي يتفق هؤلاء مع إزالة الإنسان بالبيوتكنولوجي، مع انتهاك الأخلاق والأديان وتحوير المخلوقات. وهنا يختلف الصح والخطأ والعدل والظلم من زمن لآخر ومن مجتمع لآخر. كل هذا دون إدراك أن طبيعنا البشرية والدين محددان رئيسيان في قيمنا وبشريتنا. وتناولنا ليس فيه معادات لأحد وإنما يقدم تحذيرات وتوصيات ومناقشات تحفذ العقول وتثير الإهتمام بما هو نافع. ومع تفوق الإله والكائنات الملعوب في مكوناتها أن تقتل الإنسان. وهذا يتطلب قوانين ومواثيق ومنظمات ومحاكم محلية وعالمية.

وبدلًا من البحث فيما يضر الإنسان علينا التركيز في البحث في الكون وخيرات وافادة الإنسان من خيرات العلم، حيث أن الإنسان غير متقدم في علوم الفضاء. كما أن الكون ليس مجرد كواكب ونجوم وفضاءات جامدة، بل يعج بالقصص والحيوية، فليس منطقي أن كون بهذا الحجم يضم أكثر من 50 مليار مجرة شيء عشوائي أو بدون خالق عظيم. وعلى العلماء البحث خارج الصندوق ففكرة البحث عن كون بنفس مواصفات الأرض أمر محال، ولكن التقارب جائز. فمن المؤكد انه مثلما للأرض مميزات وعيوب هناك كواكب وكويكبات وأقمار بمميزات وعيوب أيضًا. ففكرة البحث عن كائنات تعيش على الماء والنباتات والضوء أمر مطلق في حياتنا الأرضية، لكنه قد تكون هناك اختلافات في الحيوات على الكواكب والمجموعات الشمسية الأخرى. فالأرض تتميز بالجاذبية في حين نجد هذه الجاذبية تقل في الفضاء. ويتميز الكون بالتمدد وهذا ليس من مواصفات الأرض. وعلي جانب آخر من الوارد إيجاد إنسان يعيش على كواكب أخرى وفق قواعدها وفق المتاح، إنسان يتحلى بصفات تتوافق ويتكيف بها مع هذا الكوكب أو ذاك. أرضنا ذاتها كانت كوكب ميت مثل العديد من الكواكب. وليس قليل أن يعيش على الأرض حوالي 100 مليار إنسان حتى 2020 دون أن نستفيد ولو بنسبة 90 ٪ من طاقة الشمس.

ودون أن يقطن الإنسان خارج كوكب واحد في كون ملئ بالنجوم والطاقات الهائلة، فمستقبلنا في الفضاء. وخلال مائة عام قد نملك أجهزة كمبيوتر كمومية تتيح للأفراد أن يصلوا على الفور إلى أي معارف عن طريق شبكة مدمجة فينا أو في كيانات هجينة من البشر والآليين. وبعد ألف عام من الآن ليس من المستبعد تصور سفرنا أو حياتنا بين النجوم. ولكن من المهم وضع النظريات والقوانين حسب كل كوكب وحسب كل مجموعة شمسية وحسب كل مجرة..إلخ. وعند وجود تشابهات بين مجموعة كواكب أو مجموعات نجمية أو مجرات تعمم عليهم النظريات، ولكن مؤكد هناك اختلافات قليلة على الأقل. بطريقة أوضح لكل دولة على الأرض ثقافة ومجتمع..إلخ. ولكل إقليم نفس الشئ وكل قارة ثم العالم. هكذا بشكل تقريبي بالطبع تكون الحياة في مختلف أرجاء الكون في الكواكب والمجموعات النجمية والمجرات.. إلخ. وبالتالي فكرة نظرية موحدة لكل شيء أمر غير مجدي، ولكن مجموعة نظريات هو الأهم. وكل زمن حسب فكرة نظرية واحدة لكل الكون سوف يبطلها زمن آخر. والحقيقة فكرة نظريات لكل كوكب ومجموعة نجمية ومجراتية أمر مجهد، وبالتالي الأفضل مجموعة نظريات عامة، ولا مانع من ظريات فرعية أو أخرى مستقلة. أكد باحثون أستراليون وأميركيون خلال أبحاث أجروها أنهم إكتشفوا عوالم مماثلة لعالمنا.

وبالتالي نظرتهم الجديدة يمكنها أن تشرح ظواهر غامضة تواجهنا. وأشاروا إلى أن العوالم الأخرى تؤثر بقوة على عالمنا ومن شأنها أن تنتج ظواهر لا يمكننا تفسيرها. وبحسب هذه النظرة فإن عالمنا لا يشكل سوى جزء كبير من سلسلة من العوالم، بعضها تشبه عالمنا وأخرى تختلف عنه. وهذه العوالم تؤثر إحداها على الأخرى عبر قوة التنافر والتجاذب وغيرهما.

***

تقنيات النانو

يهتم النانو بدراسة ومعالجة المادة على المقياس الذري والجزيئي. وعادة تتعامل تقنية النانو مع قياسات بين 0.1 إلى 100 نانومتر أي تتعامل مع تجمعات ذرية تتراوح بين خمس ذرات إلى ألف ذرة. وهى أبعاد أقل كثيرًا من أبعاد البكتيريا والخلية الحية. وتقنية النانو تتعامل مع أي ظواهر أو بنايات على مستوى النانو الصغير.

ويمكن أن تتضمن التقييد الكمي الذي تؤدي إلى ظواهر كهرومغناطيسية وبصرية جديدة للمادة التي يبلغ حجمها بين حجم الجزيء وحجم المادة الصلبة المرئي. تتضمن الظواهر النانوية أيضًا تأثير جيبس- تومسون - وهو انخفاض درجة انصهار مادة ما عندما يصبح قياسها نانوي، أما عن بنايات النانو فأهمها أنابيب النانو الكربونية.

يستخدم البعض مصطلح تقنية الصغائر للتعبير عن النانو رغم عدم دقته، فهو لا يحدد مجاله في تقنية النانو أو الميكرونية إضافة إلى التباس كلمة صغائر التي قد تفهم بمعنى جسيم لأن البعض يسمى الجسيمات بالدقائق. نستطيع أن نستبدل ذرة عنصر ونرصف بدلًا منها ذرة لعنصر آخر، وهكذا نستطيع صنع شيء جديد ومن أي شيء تقريبًا. وأحيانًا تفاجئنا تلك المواد بخصائص جديدة لم نكن نعرفها من قبل، مما يفتح مجالات جديدة لاستخدامها وتسخيرها لفائدة الإنسان، كما حدث قبل ذلك باكتشاف الترانزيستور، ولكن هناك مخاوف من تأثيرات تقنية النانو وضرورة ضبطها.

لقد كان التطور التقني الهائل هو السمة الفريدة في القرن العشرين، وأجمع الخبراء على أن أهم تطور تقني في النصف الأخير من القرن هو اختراع إلكترونيات السيليكون أو الترانزيستور والمعامل الإلكتروني، فقد أدى تطويرها إلى ظهور الشرائح الصغيرة والتي أدت إلى ثورة تقنية في جميع المجالات مثل الاتصالات والحاسوب والطب وغيرها. فحتى عام 1950 لم يوجد سوى التلفاز الأبيض والأسود، وكانت هناك فقط عشرة حواسيب في العالم أجمع.

ولم تكن هناك هواتف نقالة أو ساعات رقمية أو الإنترنت، كل هذه الاختراعات يعود الفضل فيها إلى الشرائح الصغيرة والتي أدى ازدياد الطلب عليها إلى انخفاض أسعارها بشكل سهل دخولها في تصنيع جميع الإلكترونيات الاستهلاكية التي تحيط بنا.

سيمكننا النانو من صنع أي شيء وذلك عن طريق صف جزيئات المادة إلى جانب بعضها البعض بأقل كلفة ممكنة، فيمكننا عمل حواسيب فائقة الأداء يمكن وضعها على رؤوس الأقلام والدبابيس. كما يمكننا عمل أسطول من روبوتات النانو الطبية والتي يمكن لنا حقنها في الدم أو ابتلاعها لتعالج الجلطات الدموية والأورام والأمراض المستعصية.

وتقنية النانو هى القاعدة هى مواد وأدوات يتم بنائها من الجزيئات التي تجمع بينها عناصر كيميائية مستخدمة مبادئ الاعتراف الجزيئي؛ الآخر "من القمة إلى القاعدة" التي تعارض نانو مبنى أكبر من الكيانات دون المستوى الذري.

زخم النانو نابعة من اهتمام جديد صمغي العلوم إضافة جيل جديد من الأدوات التحليلية مثل مجهر القوة الذرية (ساحة) ومسح حفر نفق المجهر (آلية المتابعة- العمليات المشتركة والمكررة) مثل شعاع الإلكترون والطباعة الحجرية هاتين الأداتين في التلاعب المتعمد، ونانوستروستوريس وهذا بدوره أدى إلى رصد ظواهر جديدة. والنانو أيضًا مظلة لوصف التطورات التقنية الفرعية الناشئة والمرتبطة بالبعد المجهري. على الرغم من الوعد العظيم التقنيات المتناهية الدقة عديدة مثل حجم النقاط والنانومترية، حقيقي الطلبات التي خرجت من المختبر إلى السوق والتي تستخدم أساسًا مزايا صمغية "نانوبارتيكليس" في معظمه شكل مثل سمرة الشمس المستحضر ومستحضرات التجميل والطلاءات الواقية وصمة المقاومة الملابس.

ويرى العلماء أن تقنية النانو ستحل مجموعة من التحديات التي تواجه البشرية كالأمراض وتوفير المياه النظيفة للجميع فضلًا عن رحلات فضائية رخيصة لا تؤثر فيها الإشعاعات.

والنانو جزء من المليار؛ فالنانومتر هو واحد على المليار من المتر، ولكي نتخيل

صغر النانو متر نذكر ما يلي: تبلغ سماكة الشعرة الواحدة للإنسان 50 ميكرومتر أي 50,000 نانو متر، وأصغر الأشياء التي يمكن للإنسان رؤيتها بالعين المجردة يبلغ عرضها حوالي 10,000 نانو متر، وعندما تصطف عشر ذرات من الهيدروجين فإن طولها يبلغ نانو متر واحد. ولو مكعب من الذهب طول ضلعه متر واحد ولنقطعه بأداة ما طول وعرض وارتفاع سيكون لدينا ثمانية مكعبات طول ضلع الواحد منها 50 سنتيمتر، وبمقارنة هذه المكعبات بالمكعب الأصلي، نجد أنها ستحمل جميع خصائصه كاللون الأصفر اللامع والنعومة وجودة التوصيل ودرجة الإنصهار وغيرها من الخصائص ماعدا القيمة النقدية بالطبع، ثم سنقوم بقطع واحد من هذه المكعبات إلى ثمانية مكعبات أخرى، وسيصبح طول ضلع الواحد منها 25 سنتيمتر وستحمل نفس الخصائص بالطبع، وسنقوم بتكرار هذه العملية عدة مرات وسيصغر المقياس في كل مرة من السنتيمتر إلى المليمتر وصول إلى الميكرومتر. وبالاستعانة بمكبر مجهري وأداة قطع دقيقة سنجد أن الخواص ستبقى كما هى عليه وهذا واقع مجرب في الحياة العملية، فخصائص المادة على مقياس الميكرومتر فأكبر لا تعتمد على الحجم.

ومن المناسب أن نذكر القانونين التجريبين الذين وضعهما جوردون مور رئيس شركة إنتل العالمية ليصف بهما التغير المذهل في إلكترونيات الدوائر المتكاملة. فقانون مور الأول ينص على أن المساحة اللازمة لوضع الترانزيستور في شريحة يتضاءل بحوالي النصف كل 18 شهر. هذا يعني أن المساحة التي كانت تتسع لترانزستور واحد فقط قبل 15 سنة يمكنها أن تحمل حوالي 1,000 ترانزستور في أيامنا هذه. وقانون مور الثاني يحمل أخبار قد تكون غير مشجعة ؛ كنتيجة طبيعية للأول فهو يتنبأ بأن كلفة بناء خطوط تصنيع الشرائح تتزايد بمقدار الضعف كل 36 شهر.

إن مصنعي الشرائح قلقون بشأن ما سيحدث عندما تبدأ مصانعهم بتصنيع شرائح تحمل خصائص نانوية. ليس بسبب ازدياد التكلفة الهائل فحسب، بل لأن خصائص المادة على مقياس النانو تتغير مع الحجم، ولا يوجد هناك سبب محدد يجعلنا نصدق أن الشرائح ستعمل كما هو مطلوب منها، إلا إذا تم اعتماد طرق جديدة ثورية لتصميم

الشرائح المتكاملة. وفي 2010 أصبحت جميع المبادئ الأساسية في صناعة الشرائح قابلة للتغيير وإعادة النظر فيها بمجرد أن نبدأ بالانتقال إلى الشرائح النانوية منذ أن وضع مور قانونيه التجريبيين.

إن إعادة تصميم وصناعة الشرائح لن تحتاج إلى التطوير فحسب؛ بل ستحتاج إلى ثورة تتغير معها المفاهيم والتطلعات. هذه المعضلات استرعت انتباه عدد من كبرى الشركات وجعلتهم يبدؤون بإعادة حساباتهم وتسابقهم لحجز موقع استراتيجي في مستقبل شرائح النانو. ويمكن من خلال تقنية النانو صنع سفينة فضائية في حجم الذرة يمكنها الإبحار في جسد الإنسان لإجراء عملية جراحية والخروج بدون جراحة. كما تمكن من صنع سيارة في حجم الحشرة وطائرة في حجم البعوضة وزجاج طارد للأتربة وغير موصل للحرارة وأيضًا صناعة الأقمشة التي لا يخترقها الماء بالرغم من سهولة خروج العرق منها. و قد ورد في بعض البرامج التسجيلية أنه يمكن صناعة خلايا أقوى 200 مرة من خلايا الدم ويمكن من خلالها حقن جسم الإنسان بـ10 ٪ من دمه بهذه الخلايا فتمكنه من العدو لمدة 15 دقيقة بدون تنفس!.

وتمكن باحثون في جامعة هانج يانج في سيؤول من إدخال نانو الفضة إلى المضادات الحيوية. وسينزل عملاق الكمبيوتر «هاولت باكارد» إلى السوق رقاقات يدخل في صنعها نانو الكترونات قادرة على حفظ المعلومات أكثر بآلاف المرات من الذاكرة الموجوده حاليًا في كل قرن أسبق. وقد تمكن باحثون في IBM وجامعة كولومبيا وجامعة نيو أورليانز من تملق وجمع جزيئين غير قابلين للاجتماع إلى بلور ثلاثي الأبعاد. وبذلك تم اختراع ماده غير موجودة في الطبيعة "ماغنسيوم مع خصائص مولده للضوء مصنوعة من نانو وأوكسيد الحديد محاط برصاص السيليناید. وهذا هو نصف موصل للحرارة قادر على توليد الضوء. وهذه الميزة الخاصة لها استعمالات كثيرة في مجالات الطاقة والبطاريات. وقد أوردت مجلة الإيكونوميست مؤخرًا أن الكلام بدأ عن مادة جديدة مصنوعة من نانو جزيئات قسم « Quasam » تضاف إلى البلاستيك والسيراميك والمعادن فتصبح قوية كالفولاذ خفيفة كالعظام وستكون لها استعمالات كثيرة خصوصًا

في هيكل الطائرات والأجنحة، فهى مضادة للجليد ومقاومة للحرارة حتى 900 درجة مئوية وأنشأت شركة كرافت المتخصصة في الأغذية السنة الماضية اتحاد الأقسام البحوث العلمية لاختراع مشروبات مبرمجة. ويقول الدكتور إريك دريكسلر " ليس هناك من حدود، استعدوا للرواصف الذين سيبنون كل شيء. من أجهزة التلفزيون إلى شرائح اللحم بواسطة

تركيب الذرات ومركباتها واحدة واحدة كقطع القرميد، بينما سيتجول آخرون في أجسامنا وفي مجارى الدم محطمين كل جسم غريب أو مرض عضال، وسيقومون مقام الإنزيمات والمضادات الحيوية الموجودة في أجسامنا. وسيكون بإمكاننا إطلاق جيش من الرواصف غير المرئية لتتجول في بيتنا على السجاد والرفوف والأوعية محوله الوسخ والغبار إلى ذرات يمكن إعادة تركيبها إلى محارم وصابون وأي شيء آخر بحاجه إليه.

ومع مرور الأزمنة سيتمكن الإنسان من صنع شمس مصغرة قبل الوصول إلى صنع شمس كاملة يستطيع استخدامها عدة استخدامات أهمها كبديل لانطفاء وضعف النجم الذي يوجد به كوكب الأرض والكواكب التي سيعيش فيها عند انطفائها أو وجود كوكب مناسب يحتاج لما يشبه الشمس..إلخ.

***

الجزء الثاني

السياسات الكوكبية العامة والصراع على القمة

سنركز في الكتاب الأول عن القرن ال22/ هذا الكتاب على مناطق «أفرو أوراسيا» أو «يور افراسيا» وكلاهما مصطلحان لوصف أوراسيا وافريقيا كقارة ضخمة ومتكاملة، وعندما اصطدمت إفريقيا بأوروبا وأسيا قبل 600 ألف سنة تقريبًا عندما لامس الطرف الجنوبي لاسبانيا كتلة إفريقيا، وعندما حدث ذلك عزل البحر المتوسط عن المحيط الأطلسي. ويتوقع بعض العلماء بأن إفريقيا سوف تصطدم بأوروبا خلال الخمسين مليون سنة القادمة، مسببة إغلاق الحبر المتوسط ثانية وعمل سلسلة جبلية مستقبلية جديدة إضافة إلى سلسة الألب.

وتلك اليابسة تحتوي على 147 دولة وتشغل مساحتها 84 مليون كم و5 مليار و700 مليون نسمة أو بالتقريب 85 ٪ من عدد سكان العالم، وتنقسم تلك الكتلة عند قناة السويس[1] ما بين «أوراسيا» وافريقيا. ورغم ذلك المشاريع العالمية تطلق على هذه المنطقة تارة أورسيا في مشروع أو الحزام والطريق في مشروع أو أجزاء منها تحت مسميات عديدة كالشرق الأوسط.

وانكماش دور الاتحاد الأوروبي بسبب ضعفه وتراجع في قدرته على المواكبة وبزوغ نجم مناطق جغرافية أخرى أهم وأوسع، من شأنها أن تحل محل دول أوروبا الشرقية والغربية على حد سواء أو تنافسها وتتفوق عليها. ومن هذه المناطق أوراسيا، التي تضم 90 بلد بمساحة لا تقل عن 55 مليون كيلو ويزيد عدد سكانها على خمسة مليارات نسمة وتحتوى على مجمل الأراضي الأوروبية والآسيوية من لشبونة إلى شنغهاي أو إلى جاكارتا.

وتشكلت أوراسيا قبل حوالي 350 مليون سنة بعد اندماج القارات: سيبيريا وكازاخستان والبلطيق التي اندمجت مع لورينتيا التي تمثل الآن أمريكا الشمالية لتشكل

(1) أي الرابط بين الثلاث قارات قناة السويس، وبالتالي مصر يمكنها ان تعتبر نفسها استراتيجيًّا دولة افريقية أسيوية أوربية.

أورأمريكا. يحدها من أقصى الغرب جزر أيرلندا والمحيط الأطلسي الذي يمتد بذراعه الجنوبي وهو متمثل في البحر المتوسط بأحواضه المختلفة، ومن الشرق مضيق بيرنج وبعض الجزر مثل كامشتكا وسخالين والمحيط الهادي، ومن الشمال يحده جزر فرانس جوزيف والمحيط المتجمد الشمالى، ومن الجنوب جزر تيمور والمحيط الهندي بذراعيه المتمثلين في البحر الأحمر والخليج العربى.

واعتبرها بعض الجغرافيين كقارة واحدة مثل الأمريكيتين وافريقيا، حيث أن القارتين غير منفصلتين بمحيط أو بحر كبير، كما قسم الإغريق العالم إلى ثلاث مناطق: آسيا وأوروبا وافريقيا، وهذا الاستخدام لا يزال سائد حتى الآن. ويوجد تقسيم آخر هو أوراسيا الشرقية والغربية، حيث تمثل أوراسيا الغربية أوروبا والشرق الأوسط، كما يضيف إليهما البعض شمال إفريقيا على اعتبار المنطقة منفصلة عن بقية إفريقيا بواسطة الصحراء الكبرى. وتمثل أوراسيا الشرقية بقية آسيا عدا منطقة الشرق الأوسط.

وقال خبير العلوم السياسية الدكتور برونو ماكايس: «أوراسيا هى أضخم منطقة برية في الكرة الأرضية، وهى المكان الذي شهد ولادة وتطور واحدة من أعظم الحضارات في تاريخ الإنسان على الأرض» ثم يتطرق إلى موقف أوروبا، التي يرى أنه سيكون لعبة ذكاء توازن خاصة، كي تتمكن من إنشاء علاقة معقولة ومتناغمة مع لاعبين آسيويين أساسيين، هم روسيا والصين والهند، إضافة إلى اليابان وأندونيسيا، باعتبارها من أهم دول في المنطقة، وهى أيضًا دول متطورة اقتصاديًّا وتكنولوجيًّا ولديها موارد بشرية وإمكانات مالية واقتصادية كبيرة، تمكنها من أداء أدوار مهمة في العالم. وفي 2007 قال المؤرخ جون دارون: «مركز الجاذبية في تاريخ العالم الحديث يقع في أوراسيا»، وهذه القوة والقدرات هى التي تجعل من آسيا مركز تفرد، كانت تتمتع به أوروبا حتى وقت قريب، ولكن من سيقودها، الصين أم ألمانيا؟، باعتبار أن الصين تتصدر حاليًا قارة آسيا من جوانب عدة، فيما تتصدر ألمانيا أوروبا من جوانب عديدة أيضًا.

وسطوع نجم أوراسيا أمر تنبهت إليه في وقت مبكر الصين وروسيا، حيث طرحت الصين مشروع "الحزام والطريق" في عام 2013، بهدف بناء طريق حرير عصري يربطها

بمختلف أنحاء شرق آسيا ووسطها، ثم الشرق الأوسط وأوروبا وافريقيا. أما روسيا فمن الواضح أنها فكرت في هذه المسألة في وقت سابق عند إنشاء الاتحاد الاقتصادي الأوراسي في عام 2014.

وأوراسيا كيان موجود منذ زمن، ومن ضمن مشاكله قضية المهاجرين واللاجئين الذين يتدفقون على أوروبا ومشكلة أوكرانيا بين أوروبا وروسيا. وغالبًا سيكون بروز أوراسيا في إطار ظهور نظام عالمي جديد، لن يكون أمريكي ولا آسيوي فقط، بل سيقوم على علاقة مشتركة بين الصين وروسيا وأوروبا في الأساس، وبالتالي على أوروبا التعامل مع طريق الحرير الجديد الذي تشقه الصين.

***

الفصل الثالث

الاستراتيجيتان الأمريكيتان «العظمى» و«الكبرى»

يصنف العالم اليوم إلى ثلاثة أصناف: دول العالم الأول وهى الأكثر تقدم، العالم الثاني والعالم الثالث الذي نقبع فيه، إضافة لتصنيف أنثروبولوجي "قديم" رابع، وهو الشعوب التقليدية/ البدائية، رغم اننا جميعًا نعيش في عالم واحد، بل ويتم استخدام كلمة عالم بكل عشوائية فيطلق البعض على الدول الإسلامية" العالم الإسلامي" والدول العربية" العالم العربي". وفي إطار عالم واحد سوف نتناول في هذا الجزء أشهر المشروعات الإقليمية والكوكبية.

فرط السلسلة العالمية

مؤيدو النظام العالمي القائم على القواعد متعددة الأطراف يشعرون بالقلق، فنحن نشهد نهاية الاستقرار ضمن نظام السيطرة الأمريكية، أو نهاية الأمركة بمعناها العام فعليًّا، ونهاية دعم الولايات المتحدة لنظام عالمي أنشأته هى وحلفاؤها بعد الحرب العالمية الثانية. وتبشر سياسة بعودة النزعة التجارية "الميركانتيلية" بانهيار التجارة الحرة والسلسلة العالمية، وهذا سيحمل آثار اقتصادية علينا جميعًا. كما ان جميع الشواهد تشير إلى مشاكل كبيرة ستحدث في أمريكا ولو حدثت ستكون هبة تشغل أمريكا عنا وينهار عملاؤها في منطقتنا، وسيكون ذلك سبب في تحولات كبيرة في منطقتنا والعالم كله[1].

في الحقيقة تم تحذيرنا مسبقًا، إذ ان دونالد ترامب كان صريح منذ التسعينيات بشأن ازدرائه للعديد من جوانب النظام العالمي الجديد. ومنذ ما قبل فوزه بالرئاسة بعقود- وهو الفوز الذي كان مزعج للمؤسسات الأمريكية، وأتى مدعوم من قِبل أولئك الذين أُهمِلوا وتلقوا الازدراء من قِبل السلطة وأصبحوا غرباء في أوطانهم، حسب وصف آرلي هوتشيلد، فقد عُرف عن دونالد ترامب انتقاده الشديدة للعولمة والنظام التجاري العالمي، بل وفي بداية 1993 هاجم اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة "نافتا" بشدة. كما انتقد ترامب علاقات أمريكا مع الصين منذ أوائل العقد الأول من القرن الحالي. وتغريدات ترامب متسقة مع مواقفه السابقة وتعهداته الانتخابية 2016 التي اعترض فيها بشكل جذري على المعايير الاقتصادية لليبرالية الدولية في الماضي، أي في فترات رئاسة كل من أوباما، بوش الابن، كلينتون، وبوش الأب.

ومع سياسة أمريكا أولًا يأتي الجميع في المرتبة الثانية والثالثة إلى ما هو أسوأ، فصدى

(1) للمزيد يمكن الرجوع لكتابنا «سقوط إمبراطورية الغرب العظمى وصعود إمبراطورية الشرق الأعظم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2013.

حقبة الثلاثينات والفترة الانعزالية بات صادح. لقد ألغى ترامب وعلى الملأ القيادة الأمريكية للنظام العالمي عندما رفض التوقيع- بطريقة صدامية- على بيان مجموعة الدول السبع الكبار في 2018، وعندما رفض حتى الإشارة اللفظية لـ"نظام عالمي مبني على النظم والقوانين" - وهى عبارة دبلوماسية جوفاء في الأساس- في البيان. وقد أشار في خطابه الذي ألقاه في الأمم المتحدة 2018، بوضوح:"لقد هجرنا أيديولوجيا العولمة، واعتنقنا مذهب الوطنية". ومنذ ذلك الحين تركت سياسة آثارها المفزعة - للبعض والإيجابية للبعض- على نظام التجارة العالمي.

سيواجه نظام التجارة الدولي القائم على النظم أخطر تحدياته منذ 1944، فمنظمة التجارة العالمية واقعة في جمود مميت، ونظام تسوية الخلافات بالكاد يعمل تحت إشراف هزيل من ثلاثة قُضاة فقط، وسيتوقف عمل هذا النظام مع توجه المزيد من القضاة نحو التقاعد، وإن لم يتم إيجاد بدائل لهم فإن العمليات التجارية على مستوى منظمة التجارة العالمية ستتوقف. وهدد ترامب بمغادرة منظمة التجارة العالمية إذا ما تعارضت قراراتها مع مصالح الولايات المتحدة، وهو أمر ممكن. في الوقت نفسه سيحدث توسع التعاملات الثنائية الجديدة يمكن أن يؤدي إلى ترسيخ نظام تجاري أكثر تعقيد، وأكثر حرية؛ أقل عدالة لأنه سينحاز أكثر للدول الكبرى، مما سيلحق الضرر بالدول الأصغر والأضعف. واستبدال التعاملات التجارية العالمية الشائعة بمجموعة من التعاملات الثنائية هو بطبيعته مسألة أكثر تعقيد، وبالطبع أكثر صعوبة بالنسبة للشركات الصغيرة.

ويقود هذه التعاملات الثنائية موظفون كبار معادون للنظام العالمي مثل بيتر نافارو مساعد المدير الرئيسي للتجارة والسياسة الصناعية، ومؤلف كتاب "الموت القادم من الصين1"، الذي يتبنى آراء الرئيس ترامب بالكامل. وعلى المنوال نفسه أمضى الممثل التجاري للولايات المتحدة روبرت لايتيزر عقود وهو يرفع الدعاوى القضائية للدفاع عن منتجي الحديد في الولايات المتحدة ضد مستورديه من الصين وكوريا الجنوبية. ولنا أن نتخيل لايتيزر وفريقه المختار بعناية على طاولة المفاوضات ليناقشوا فائدة منظمة التجارة العالمية والتجارة الحرة وهم يحملون وجهة النظر المعادية تلك. ولكي تربح

الولايات المتحدة يجب أن يخسر أحد ما، وإن كان هناك إيجابية لطرف آخر، وهذا يعني أن هناك خسارة للولايات المتحدة. وتعكس كيفية إبرام الصفقات بالنسبة للبيت الأبيض العقلية التي يفكر بها الرئيس عندما كان مقاول، فقد اعتاد على طرح صفقته والمغادرة فورًا في حال تلقى رد لا يتضمن الموافقة الكاملة عليها. هذا التبسيط قائم على أكلاشيه «هذا هو المتاح خذه أو اتركه» عديم الواقعية في الدبلوماسية الدولية التي تتطلب مقايضات معقدة وتفاهمات تمت صياغتها على مدى سنوات في العديد من المجالات.

ومفهوم ترامب للدبلوماسية لا يمكن أن يكون بطريقة ناجحة جدًّا لبناء العلاقات الدبلوماسية اللبقة والسلسة مع الحلفاء والخصوم. ويجمع المفاوضون على أن أسلوب ترامب ليس ناجع للحصول على صفقات ذات مصداقية كبيرة فللوصول إلى ذلك هنالك حاجة لمعرفة وجهة نظر خصومك وفهمها وتخمين أهدافهم النهائية وما هى المساحات التي يمكن تقديمها لهم من أجل الحصول على ما أسماه روبرت بوتنام بقطاعات الربح، أي تلك التي يستطيع فيها الطرفان الادعاء بالقبول أو الفوز. وهذا ما يجعل العالم في مواجهة تامة مع المخاطر السياسية المختلفة.

جدول (١-١) أنواع الخطر السياسي

الأنواع الرئيسية لصدمات أحداث الخطر	أمثلة				
جيوبوليتيكية	حروب دولية	تحولات كبرى في السلطة	عقوبات وقرارات حظر اقتصادية		
طاقة عالمية	قضايا عرض وطلب تم إقرارها سياسيًّا				
إرهاب	تدمير ملكية		سلب / نهب		
نزاع سياسي داخلي	ثورات	حروب أهلية	انقلاب	حركة قومية	عدم استقرار اجتماعي (إضرابات، مظاهرات)

وتعد الاتفاقية الجديدة بين الولايات المتحدة والمكسيك وكندا USMCA أسوأ بكثير من اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة NAFTA. وتتضمن هذه الاتفاقية شروط المحتوى المحلي والحد الأدنى للأجور ما قد يجعل منطقة التجارة في USMCA أقل ربحية للشركات التي تعتمد على سلاسل التوريد المتكاملة. ومع ذلك الصفقة هى أفضل ما نتوقعه من رئيس كان الدافع له التخلي عن NAFTA. وانه تجنب الفراغ الكبير فقط بعد قرار رئيس المجلس الاقتصادي القومي الأمريكي جاري كوهين سحب خطاب إعلان خروج الولايات المتحدة من NAFTA من مكتب الرئيس قبل أن يتمكن من التوقيع عليه. وبالنظر إلى المستقبل- وبخلاف بريطانيا الـ"بريكست" اليائسة والفاقدة للأصدقاء-، سيكون هنالك عدد قليل من الدول المستعدة للإنضمام إلى هذه التعاملات الثنائية مع أمريكا لأن الإدارة الأمريكية تطالب بالاستسلام ولا تبذل سوى قليل من الجهد لفهم مواقف الآخرين، في حين تضع مطالبها المصلحية أمامهم وكأنها صخور. ولا أتوقع من دول كثيرة أن تتقدم للحصول على صفقات متعثرة، تقر فيها بهزيمتها إثر تلقيها إهانات دبلوماسية. لكنها نهاية الهيمنة الأمريكية الناعمة ومواجهة بين التعددية وصعود الميركنتيلية.

المدافعين عن النظام التجاري العالمي ليس أمامهم إلا ان يخطيطوا لغياب أمريكا، لذا يجب على القادة الأمميين الاستعداد لعالم ما بعد أمريكا؛ ويجب عليهم أن يضعوا خطط لمواجهة سيناريوهات التغيرات المناخية وتطوير سياستهم الخارجية إزاء بؤر التوتر والتحضير للصفقات التجارية الجديدة دون التعويل على الدور الأمريكي. فقد يستمر هذا الخواء الأمريكي لست سنوات إضافية، فمن المحتمل أن يفوز ترامب بفترة رئاسية ثانية، خاصة بعد أن انخفضت نسبة البطالة إلى 3.7 في المائة، وهو أدنى مستوى لها منذ 49 عام. وعادةً ما يُعاد انتخاب الرؤساء الأمريكيين إذا كان الاقتصاد قوي في فترة ولايتهم الأولى، وغالبًا ما يرجِح هذا فوز الرؤساء بولاية ثانية.

ستكون هنالك حاجة لإعادة تشكيل تحالفات بدون الولايات المتحدة وربما إلى جانب الصين. وقد أخذ الرئيس الصيني شي ج. بينج على عاتقه بالفعل دور المدافع

عن العولمة في المنتدى الاقتصادي العالمي وأيضًا في الأمم المتحدة، وهذا يشير إلى أنه قد يكون شريك مرغوب. يبدو الرئيس الصيني واعي لضرورة التمسك بالأسس التي ارتكز عليها ازدهار الصين الاقتصادي والتي تحمل فرص نجاحها في المستقبلات.

ستسرع سياسة أمريكا أولًا من التراجع الجيوسياسي النسبي- المتزايد- لأمريكا وتقوض فعالية قوتها الناعمة بدلًا من تعزيز موقفها. ومع انسحابها يبدو أن آخرين بما في ذلك الصين مستعدون لملء الفراغ والمساهمة في دعم النظام الدولي، وسيكون على الاتحاد الأوروبي أن يفعل شيء بشأن ذلك بالطبع، فيجب على الاتحاد الأوروبي وقادته أن يعملوا بقوة على تغييب الهيمنة الأمريكية بدلًا من هرولة دوله منفردة للبحث عن امتيازات قصيرة الأمد. ويقول الرئيس الفرنسي ماكرون: «لا تقبل نهاية التعددية، لا تقبلوا أن يتفكك تاريخنا».

يتعين على الحكومات أن تفعل الكثير من أجل الناخبين والعمال الذين خذلهم الاقتصاد الرقمي بعد أن سحب نظام التشغيل المؤقت البساط من تحت أقدامهم. إن المحاججات السياسية بأن التجارة المفتوحة كانت جيدة للعالم، هى محاججات صحيحة لكنها غير كافية، كونها فشلت في تلبية احتياجات أولئك المتضررين الغاضبين من العولمة، كالعاطلين عن العمل في مرسيليا وأصحاب الأجور المتدنية اليائسين في أثينا، والشباب المحبط في برلين وبرشلونة ومعظم دول جنوب الأرض.

تهديد حدوث مزيد من التآكل في البنية السياسية ليسار الوسط ويمين الوسط اللذين يرتكز عليهما استقرار العالم وازدهاره، لا سيما في أوروبا قادم، وإذا انهار الدعم للأحزاب السائدة كما حدث لأحزاب يسار الوسط في فرنسا، ألمانيا، بولندا، المجر وغيرهم، فإن الأسس الانتخابية للتوافق والتقدم الاقتصادي مهددة هى الأخرى. كما يصدح صوت الشعبوية ومن المحتمل أن يتصاعد أكثر في المستقبل القريب، وكتاب كيف "تموت الديمقراطيات2" يفصل في الأسباب التي تدعو للقلق. كما يخبرنا التاريخ أن الأنظمة الأوتوقراطية انتخبت نتيجة ارتفاع منسوب الغضب والعداء للأجانب والقومية، إذ يمكن للديمقراطيات أن تضعف وتنهار عندما يكون الناخبون غاضبين ومستلبين وباحثين عن جواب يقوم على على "نحن" في مواجهة "هم".

استراتيجية زعامة القرن ال21

الاستراتيجية الكبرى لأمريكا في القرن ال21 تنطوي على مفهوم عملي توفق فيه الدولة بين الأهداف والوسائل في سعيها إلى الأمن. وتشمل الاستراتيجية الكبرى في زمن السلم تحديد مصالح الدولة الأمنية وتمييز الأخطار التي تهدد تلك المصالح وتخصيص موارد عسكرية واقتصادية ودبلوماسية للدفاع عن مصالح الدولة.

وبهذه الصورة تتناول الاستراتيجية مسائل عدة منها المناطق المهمة لأمن الولايات المتحدة في العالم، وهل ستنهض دول عظمى جديدة تهدد المصالح الأمريكية؟ وما التحالفات التي يجب أن تلتزم بها الولايات المتحدة؟ وهل للولايات المتحدة مصلحة في "الاستقرار " الإقليمي في أية مناطق وفي الاعتماد الاقتصادي المتبادل؟ وما التوازن المناسب بين التزامات الولايات المتحدة الخارجية واحتياجاتها الداخلية؟ ما القوى العسكرية التي تحتاجها الولايات المتحدة للدفاع عن مصالحها؟ وبعبارات ملموسة تجري الاستراتيجية الكبرى أسبوعيًّا تقريبًّا بشأن توسيع الناتو، الصين، العلاقات الأمريكية اليابانية، الشرق العربي، سياسة الولايات المتحدة بشأن انتشار أسلحة الدمار الشامل، السياسة التجارية وموازنة الدفاع. وهذه ليست قضايا منفصلة، وإنما تقع على الاستراتيجية الكبرى التي تقيم الإنسجام بينها.

ويرى المخططون المستقبليون الأمريكيون انه توجد خمس مناطق مرشحة فى العالم لأن تكون «خطوط تصدع نشطة خلال القرن الحادى والعشرين»:

أولاها- منطقة حوض المحيط الهادي.

وثانيها- أوراسيا عقب سقوط الاتحاد السوفيتى وظهور روسيا الاتحادية كوريث قوى

وثالثها- أوروبا فى إطارها النهائي/ الإتحاد الأوربي

ورابعها- المكسيك ودول الأمريكتين.

وخامسها- الدول العربية والإسلامية: وأزماتها المختلفة الجارى احتواؤها، ولكنها ككل ستظل غير مستقرة. ورغم أن عدم الاستقرار هذا لن تتحول إلى انتفاضة عامة، إلا أنه يزيد من احتمال استغلال دول إسلامية هذه الحالة من عدم الاستقرار وضعف الدول الأخرى لفرض نفسها كقوة إقليمية، ويمكن أن تفعل ذلك إندونيسيا باعتبارها أكبر دولة إسلامية فى العالم، لكنها ليست فى وضع يسمح لها بفرض نفسها. كذلك باكستان ثانى أكبر دولة إسلامية فى العالم، وهى قوة نووية، لكنها منقسمة داخليًّا للغاية، لدرجة أنه يصعب تصور كيف ستتطور لتصبح قوة إقليمية، وهناك ثلاث دول كبرى أكبرها مصر وتعداد سكانها 100 مليون نسمة، والثانية تركيا وتعداد سكانها 81 مليون نسمة، والثالثة إيران وتعداد سكانها 65 مليون نسمة، ولكن حينما ننظر إلى الدول الثلاث من الناحية الاقتصادية، فإن تركيا لديها الاقتصاد السابع عشر فى العالم وإيران التاسع والعشرون ومصر ستدخل بين العشرين الأول عالميًّا، لكن حجم الاقتصاد ليس كل شىء من الناحية الجيوسياسية.

أما عدوانية إيران تجاه دول عربية فى الواقع خطؤها الأساسى فى محاولتها حماية نظامها من الولايات المتحدة ومن المسلمين السنة، حيث تضطر إيران لأن تظهر حزمها مبكرًا وقبل الأوان المطلوب، وخلال هذه العملية تجذب الانتباه فيتم التركيز عليها كقوة خطيرة. وفى الوقت الذى تحاول فيه إيران أن تصبح قوة إقليمية تركز أكبر قوة فى العالم انتباهها على كل خطوة تخطوها، لذا أقل ما يقال فى هذا الأمر أنها لن تولد إلا بصعوبة.

تركيا حالة مختلفة جدًّا، فهى ليس فقط لديها اقتصاد رئيسى حديث، ولكنها أيضًا أكبر اقتصاد فى المنطقة حتى الآن ــ أكبر من إيران ــ وربما اقتصاد حديث وعلى الدول الإسلامية كلها. والأهم من ذلك، أنها تقع فى موقع استراتيجى بين أوروبا والشرق الأوسط وروسيا، وهى ليست معزولة أو مقيدة، فلديها عدة اتجاهات تستطيع أن تتحرك من خلالها، لذا فهى لا تواجه تهديد مستمر من الولايات المتحدة مثلًا. وإذا استمر

صعود اقتصادها فمن المحتمل أن تعود لممارسة دورها القديم، وهو القوة المسيطرة فى المنطقة، ولكني لا أعتقد ذلك.

إن مصر هى أكبر دولة عربية وافريقية والقائد التقليدى لهما ونجحت في عهد محمد على وجمال عبدالناصر، الذي تولد معه توقفها عن محاولة توسيع نطاق قوتها، لكنها لن تقع فى نطاق نفوذ دولة أخرى سواء كانت تركيا أو الولايات المتحدة أو روسيا «وإن كان هذا قدر مصر بالفعل لعدة قرون». وكثيرًا ما تحاول الصعود كقوة إقليمية وعالمية، فقد كانت أول حضارة في التاريخ ثم استفاقت في عهد محمد على ثم جمال عبدالناصر، وبالتالي يمكن أن تصبح مصر قوة إقليمية فى أى إطار زمني قصير.

وحينما ننظر إلى الحطام المتبقى من دول عربية وإسلامية عقب الغزو الأمريكى للعراق فى 2003، نجد ان أكثر دولة حليفة في المنطقة للولايات المتحدة–غير إسرائيل– يبدو من الواضح أنها تركيا، وفى إطار محاولة تركيا إظهار نفوذها فى الشرق الأوسط كان مخطط ان تكون النقطة الفاصلة فى ذلك تتمثل مواجهة اعتراض مصر، والحل الرئيسي كان صناعة عدم الاستقرار لأزمة داخلية واستخدام تركيا لوضعيتها كقائدة للدول الإسلامية، وبالتالي إرسالها قوات إلى مصر لتحقيق الاستقرار فيها وتواجد قوات حفظ السلام التركية فى مصر فجأة، بحيث تسيطر على قناة السويس، وبالتالى تمارس تركيا عادتها التقليدية القديمة فى التمدد بشمال وشرق إفريقيا.

وإذا ما استغلت تركيا هذه الفرصة فإنها تصبح القوة الرئيسية فى منطقة غرب أوراسيا، وبالنظر إلى أن إسرائيل ستظل دولة قوية إلى هذا الحين، فإن وضعية تركيا تجبرها على التكيف مع القوة الإسرائيلية وتنظر إليها كصديق. وسيطرة الأتراك على قناة السويس سيفتح المجال أمام احتمالات أخرى بالنسبة لتركيا، حيث ستمكنها من دفع قواتها إلى البحر الأحمر، وبالتالى إحكام السيطرة على شبه الجزيرة العربية وتحقيق إنجاز كبير لها يمكنها من أن تصبح فى وضعية تهدد إيران. أما تركيا ومنطقة البلقان، فالمواجهة فى البلقان بين تركيا من جهة وائتلاف من دول أوروبا الشرقية/ وغالبًا الغربية التي ستقوده ضدها.

وقد كانت استراتيجية الولايات المتحدة، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تُصاغ بشكل ظاهر وبدافع احتواء الاتحاد السوفييتي، ثم جعلت متطلبات الحرب الباردة سياسة الولايات المتحدة الخارجية واضحة الهدف. ومع نهاية الحرب الباردة صار من الممكن إعادة النظر في المبادئ الأولى لسياسة الولايات المتحدة الخارجية وإعادة تصور الدور العالمي لأمريكا من البداية.

كان في وسع الولايات المتحدة بعد اختفاء الدولة العظمى المنافسة لها أن تعيد النظر لو أنها أرادت في مختلف الأعباء الدولية التي كانت تتحملها في أثناء الحرب الباردة. كان التهديد من جانب الاتحاد السوفييتي هو الحافز على التزام أمريكا بالناتو وعلى الوجود العسكري الأمريكي في شرقي آسيا. وكان تدخل الولايات المتحدة في الدول النامية يذكيه التنافس الجيوسياسي مع الاتحاد السوفييتي .وبعد انتصار الولايات المتحدة في الحرب الباردة كان بإمكانها التخلي عن التزاماتها الخارجية ذات الكلفات الباهظة وتركيز طاقاتها لحل سلسلة من القضايا الاجتماعية والاقتصادية الداخلية التي طال إهمالها.

في الحقيقة لم يطرأ تبدل مواز على استراتيجية الولايات المتحدة الكبرى، فلا تزال الولايات المتحدة تتبع في مجال الطموحات والمصالح والتحالفات الاستراتيجية الكبرى ذاتها التي كانت تتبعها منذ 1945 حتى 1991، أعني استراتيجية الهيمنة. والحقيقة أن صانعي السياسة الأمريكية سعوا بعد الحرب العالمية الثانية إلى خلق نظام عالمي تتزعمه الولايات المتحدة يعتمد على قوة عسكرية واقتصادية وسياسية أمريكية متفوقة وعلى قيم أمريكية مميزة، وقد كان ذلك جوهر سياسة الهيمنة.

من المؤكد أن استراتيجية الولايات المتحدة الكبرى مرت بعد الحرب الباردة بعدة مراحل، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية كانت خطة واشنطن لما بعد الحرب تقوم على أن هيمنتها التي يجب أن تعتمد بالدرجة الأولى على قوتها المالية والاقتصادية الكبيرة التي عبر عنها نظام بريتون وودز الدولي وعلى التأثير السياسي والدبلوماسي الذي تمارسه عبر المنظمات المتعددة الأطراف والدولية ولا سيما الأمم المتحدة.

وعلى الرغم من أن احتكار الأسلحة النووية كان بمثابة خلفية استراتيجية لسياسة

الولايات المتحدة خلال الفترة من 1945 إلى 1948 فإن القوة العسكرية لم تكن هى الأداة الأساسية في سياسة واشنطن. ولم تصبح سياسة الولايات المتحدة الخارجية عسكرية إلا في فترة 1945 إلى 1948 التي شهدت انتصار الشيوعية في حرب الصين الأهلية وتفجير الاتحاد السوفييتي أولى قنابله النووية واندلاع الحرب الكورية.

ومهما يكن الأمر فقد كانت واشنطن تسعى إلى التفوق على النطاق العالمي قبل مدة غير قليلة من ظهور المنافسة ثنائية القطب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. كانت الولايات المتحدة، على حد قول جون لويس جاديس «تتوقع أن تصبح زعيمة النظام العالمي الجديد» بعد 1945 ، «وقليل بين المؤرخين من ينكر أن الولايات المتحدة كانت تتوقع السيطرة على المسرح الدولي بعد الحرب العالمية الثانية، وأنها كانت تسعى إلى هذا قبل أن يبرز الاتحاد السوفيتي كخصم ظاهر وحاضر». وحتى بعد اندلاع الحرب الباردة كانت الهيمنة الأمريكية، لا احتواء الاتحاد السوفييتي، هى القوة الدافعة وراء استراتيجية الولايات المتحدة الكبرى.

وقد ظهر هذا في ورقة لمجلس الأمن القومي تضمنت القاعدة الفكرية لسياسة احتواء «كوكبية» و«عسكرية»، جاء في هذه الوثيقة: التي شهدت انتصار/ تصبح سياسة الولايات المتحدة الخارجية عسكرية بعد فترة 1949 الشيوعية في حرب الصين الأهلية، وتفجير الاتحاد السوفييتي أولى قنابله النووية واندلاع الحرب الكورية. وقد ظهر هذا بوضوح في ورقة مجلس الأمن القومي «NSC- 68» كما قلنا والتي تضمنت القاعدة الفكرية لسياسة احتواء «كوكبية» و«عسكرية». جاء فيها:

1 – هدف القوة الأمريكية "تشجيع قيام بيئة عالمية يستطيع النظام الأمريكي أن يعيش فيها ويزدهر.

2 – استراتيجية الهيمنة هى "الاستراتيجية التي ربما اتبعتها الولايات المتحدة ولو لم يكن الاتحاد السوفييتي موجود.

3 – دور الاتحاد السوفييتي في استراتيجية الولايات المتحدة الكبرى كان دور غريب، فمن جهة كان التهديد السوفييتي عرضي تمامًا في الحقيقة بالنسبة لاستراتيجية

الولايات المتحدة لأن مطامح أمريكا الدولية كانت قائمة بصرف النظر عن وجود الاتحاد السوفييتي، ومن جهة أخرى، كان وجود الاتحاد السوفييتي ضروريًّا جدًّا لتحقيق أهداف الولايات المتحدة الاستراتيجية لأن الحرب الباردة اسبغت في داخل البلاد وخارجها معًا شرعية على توسع القوة الأمريكية- استراتيجية عدو خارجي- ولولا الحرب الباردة لما توافر لصانعي سياسة الولايات المتحدة الحجة لتبرير سعي أمريكا إلى الهيمنة الشاملة وحروب أفغانستان واحتلال العراق.. إلخ.

وإذا سلمنا بأن أهداف استراتيجية الولايات المتحدة الكبرى بعد الحرب لم تكن ذات صلة بالمنافسة بين الدولتين العظمتين فليس من المستغرب أن تظل الاستراتيجية الكبرى بلا تغيير على الرغم من اختفاء الاتحاد السوفييتي. واليوم، كما كان الحال بعد الحرب العالمية الثانية تسعى استراتيجية الهيمنة إلى زيادة تحكم الولايات المتحدة في النظام العالمي عن طريق منع بروز دول عظيمة منافسة لها في أوربا وشرقي آسيا. وكما كان الحال بعد الحرب العالمية الثانية تعكس الاستراتيجية الاعتقاد بأن الاعتماد الاقتصادي المتبادل يعد مصلحة أمنية حيوية للولايات المتحدة.

واليوم، كما كان الحال في أعقاب الحرب العالمية الثانية، تعتمد الاستراتيجية على مناطق مؤلفة من ثلاث خطوات، أولها الاعتماد المتبادل، وهو المصلحة العليا التي تشجعها الاستراتيجية؛ ويعد عدم الاستقرار تهديد للاعتماد المتبادل. وثانيها الردع الموسع، فهو الوسيلة التي تلجأ إليها الاستراتيجية لمواجهة هذا التهديد. وثالثها الهيمنة أو الزعامة، وهى استراتيجية تسعى إلى إدامة السيطرة الجيوسياسية. ويعتقد أنصار الهيمنة أنه على الولايات المتحدة أن تسعى إلى زيادة قوتها النسبية إلى أقصى حد أي قوتها بالمقارنة مع قوة الدول الأخرى، وذلك لأن السياسة الدولية على قدر كبير من التنافسية.

وتقوم استراتيجية السيطرة على افتراض أن الدول تكسب الأمن لا من خلال توازن القوى، بل عبر اختلال توازن القوى لمصلحتها أي بسعيها إلى الزعامة، ففي العالم الذي

تغلب عليه الخشونة والتنافس يعتمد أمن الدولة على القوة "الصعبة " القوة العسكرية ودعاماتها الاقتصادية، ومن الأفضل للدولة أن تكون هى الدولة رقم واحد بين الدول. كما يرى أنصار الاستراتيجية أن الاستقرار المنسق غياب كل من الحرب والسباقات الأمنية وانتشار الأسلحة مرتبط بقوة الولايات المتحدة العسكرية.

وتفترض استراتيجية السيطرة أن الولايات المتحدة ذات مصلحة حيوية في الحفاظ على "الاستقرار" وهو اصطلاح فضفاض ومبهم في النظام الدولي، تنطوي أسسه الاستراتيجية على الخوف مما قد يحدث في عالم لم تعد قوة الولايات المتحدة المهيمنة هى التي تعطيه شكله. وأنه من الضروري استمرار زعامة الولايات المتحدة لأنها تبدو شرطًا للاستقرار الشامل. وينطوي عدم الاستقرار على خطر لأنه يهدد بالقضاء على الرابطة التي تصل ما بين أمن الولايات المتحدة والمصالح الاستراتيجية التي نمّاها الاعتماد الاقتصادي المتبادل، والاعتماد الاقتصادي المتبادل هو إحدى مصالح الولايات المتحدة العليا اعتقادًا بأنه سبب السلم والاستقرار في النظام الدولي ونتيجة لهما في الوقت ذاته. وفي الحقيقة نرى ان دور الاعتماد المتبادل في استرداد الهيمنة هو دور دائري، فالاعتماد المتبادل هو مصلحة حيوية لأنه يؤدي إلى نشر اعتقاد السلام والاستقرار والازدهار. ولابد من توافر السلام والاستقرار في النظام الدولي قبل أن يتوافر فيه الاعتماد المتبادل.

ومن حيث الجغرافيا تنظر استراتيجية الهيمنة إلى كل من أوربا وشرق آسيا والخليج العربي كمناطق تقوم فيها للولايات المتحدة مصالح أمنية حيوية. وتعتبر أوربا وشرق آسيا منطقتين مهمتين لأنهما يمكن أن تبرز منهما دول عظيمة جديدة، وربما تندلع بهما في المستقبل حروب بين الدول العظيمة؛ ولأنهما تقومان بدور مركزي في عمل نظام اعتماد اقتصادي متبادل دولي؛ ولأنهما حيويتان لازدهار الولايات المتحدة، أما الخليج العربي فهو مهم بسبب النفط. وتؤلف هذه المناطق الثلاث جغرافيًّا، مصالح أمريكا الحيوية، لكن مصالح الولايات المتحدة الأمنية ليست محصورة في هذه المناطق، ولابد لها أن تهتم أيضًا بالأطراف وهى مناطق بعيدة جغرافيًّا عن القلب لأن الاضطراب فيها يمكن أن يؤثر في القلب.

وتعين استراتيجية الهيمنة تهديدين رئيسين لمصالح أمريكا المتشابكة أولهما ظهور دول عظيمة جديدة، و"تدفق" عدم الاستقرار من مناطق طرفية استراتيجيًّا إلى مناطق مصلحة استراتيجية مركزية. وثانيهما يمكن أن يكون لظهور دول عظيمة جديدة، وكلاهما نتيجتان مؤذيتان للولايات المتحدة بسبب أولًا- يمكن أن تطمع في الزعامة الدول العظيمة الجديدة، وإذا ما نجحت في هذا فسوف تهدد أمن الولايات المتحدة تهديدًا جديًّا.

ثانيًا- كان بروز دول عظيمة جديدة في التاريخ ظاهرة جيوسياسية مضرة بالاستقرار. هنا يَرِد إلى الذهن كيف أن بروز الولايات المتحدة، ألمانيا واليابان كدول عظيمة في أواخر القرن التاسع عشر قد أسهم في حدوث اضطراب دولي بلغ الذروة في الحرب العالمية الثانية.

إن معظم العاملين في سياسة الولايات المتحدة الخارجية يعترفون ولو على مضض بأنه لا يمكن عمل شيء لمنع بروز الصين دولة عظيمة جديدة لأنها تقع خارج نطاق نفوذ الولايات المتحدة، لكن يجب أن نلاحظ أنه توجد فئة بين الاستراتيجيين تعتقد بأنه على الولايات المتحدة أن تحول بين الصين وبين أن ترتفع إلى مصاف الدول العظيمة وذلك بالتحريض على الاضطرابات الداخلية فيها أو، إذا لم ينجح هذا، بشن حرب وقائية عليها. وقد يكون على الولايات المتحدة أن ترضى ظاهريًّا عن نهوض الصين إلى وضع دولة عظيمة، ولكن في نطاق نفوذ واشنطن. ويظهر بوضوح أن استراتيجية الهيمنة تهدف إلى منع بروز ألمانيا واليابان كدولتين عظيمتين، وهذا بإدخالهما في إطار الأنظمة الأمنية والاقتصادية الخاضعة للويات المتحدة. ويخشى صانعو سياسة الولايات المتحدة من "إعادة" اليابان وألمانيا أو كليهما إلى ما يمكن أن يطلق عليه تفاعل سلسلة جيوسياسية معاكسة إلى حظيرة القومية "Renationalised" اصطلاح مربك يستخدمه محللو السياسة الأمريكية"Renationalisation" إن "العودة إلى حظيرة القومية الخارجية لوصف عواقب السماح لطوكيو وبرلين باتباع سياسة خارجية وسياسية عسكرية مستقلتين، أي سياستين لا تعودان محصورتين بممارسة القوة الأمريكية. وهذا

الاصطلاح أسلوب ما أيضًا كلمة رمزية يستخدمها صانعو السياسة الأمريكية لتجنب قول ما يدور فعلًا في أذهانهم، أي أنهم لا يثقون بأن اليابان الناهضة وألمانيا الناهضة ستسلكان سلوكًا مسؤولًا.

وتفترض استراتيجية السيطرة أن انبعاث القوة الألمانية واليابانية- وأضيف لهما روسيا- مرة ثانية من شأنه أن يوقظ من جديد لدى جارات هاتين الدولتين في أوربا وشرق آسيا المعضلة الأمنية التي كانت نائمة في أثناء الحرب الباردة، فمعضلة الأمن" توضح عامل محرك مهم في السياسة الدولية، فنظرًا لعدم وجود سلطة مركزية تسن القواعد وتفرضها في السياسة الدولية تضطر الدول إلى الاعتماد على نفسها حين يتعلق الأمر بأمنها، أي تصبح كل دولة مسؤولة عن تأمين بقائها الذي لا يمكن ضمانه إطلاقًا، كما ثبت بمصير الاتحاد السوفييتي، النمسا، المجر، الإمبراطورية العثمانية ويوغسلافيا الدفاع عن مصالحها الخاصة ما لم تأخذ الولايات المتحدة طبعًا على عاتقها القيام بهذه المهمات بدلًا منها، لكن الأعمال التي تقوم بها إحدى الدول دفاعًا عن نفسها تبدو تهديدًا في نظر جاراتها فترد عليها بدورها باتخاذ تدابير دفاعية خاصة بها، وتكون النتيجة غير المقصودة ظهور توترات سياسية من فعل ورد فعل وسباق تسلح/ سباق أمني".

وقد حسنت الولايات المتحدة وضع المعضلة الأمنية في أوربا الغربية وشرق آسيا بالقيام بدور «المهدئ» لتلك المناطق بحسب تعبير محلل السياسة الخارجية جوزيف جوفي، وكان الناتو والمعاهدة الأمنية اليابانية الأمريكية أداتي التهدئة، وقد خلقت تهدئة أمريكا في شرق آسيا وأوربا الظروف للاعتماد الاقتصادي المتبادل الذي نما بعد 1945 على الرغم من أن الحرب الباردة قد انتهت. لا يزال صانعو السياسة الأمريكيون يرون أن دور أمريكا المهدئ في أوربا وفي آسيا دور حيوي يقوم على الوجود العسكري الأمريكي في تلك المناطق. ويخشون من أنه إذا اضطرت الولايات المتحدة إلى الإنسحاب من أوربا وشرق آسيا وإلى ترك ألمانيا واليابان للاهتمام بأمنهما الخاص فسوف تنشأ سباقات أمن إقليمية، وتكون النتيجة في أحسن الأحوال ازدياد التوتر السياسي، الأمر الذي يجعل التعاون الدولي أصعب. وتؤدي «إعادة بعث القوميات» و«الشوعبية» في

أسوأ الأحوال إلى تقويض الاستتقرار الإقليمي وربما قادت إلى الحرب، وفي الحالتين تتعرض للخطر مصالح الولايات المتحدة الاستراتيجية التي ازدهرت بفضل الاعتماد الاقتصادي المتبادل، وهنا تقوم روسيا بدور معاكس لها.

وإلى جانب ظهور دول عظيمة جديدة يمكن أيضًا أن يسيء إلى مصلحة أمريكا في الاستقرار الدولي الاضطراب الذي يحدث في الأطراف والذي ينشأ نتيجة لسقوط الدول أو للصراعات التي تشعلها الخلافات العرقية والدينية والقومية، ويمكن للفتن التي تقع في الأطراف أن تحفز حلفاء الولايات المتحدة إلى العمل بصورة مستقلة من أجل الحفاظ على النظام في الأطراف، كما يمكنها أيضًا أن تطلق شبح "العودة إلى القومية" وانطلاقه إلى القلب فتقضي على الازدهار بقطع الصلات الاقتصادية التي تربط الولايات المتحدة بأوربا وشرق آسيا.

إن الضمانات الأمنية الأمريكية لأوربا وشرق آسيا هى الوسيلة التي تحافظ بها استراتيجية الهيمنة على نظام سياسي دولي يؤدي إلى الاعتماد المتبادل، فمن خلال هذه الضمانات تحتفظ الولايات المتحدة بمسؤولية الدفاع الأولى عن مصالح ألمانيا واليابان الأمنية سواء في قلب البلاد أم في أطرافها.

وبناء على ذلك تنكر الولايات المتحدة على ألمانيا واليابان القيام بمبادرات للعودة إلى سياسة قومية خارجية وأمنية، وللتحول إلى دولتين عظيمتين. ولهذا الولايات المتحدة ستقوم بتنفيذ استراتيجية الهيمنة بصورة أخرى. بمعنى أن تقوم بعمل "حسابات كافية لمصالح الأمم الصناعية الكبيرة لئلا تتشجع على تحدي زعامتنا، أو تسعى إلى قلب النظام السياسي أو الاقتصادي المستقر. وقد حاولت الولايات المتحدة منع ظهور منافسين جيوسياسيين جدد، فكانت "الحرب الوقائية" التي لم تكن خيار جدي، لكنها كانت هى الطريقة التي تراها تمنع دول أخرى من الوصول إلى مرتبة الدولة العظمى، وصاعدًا صممت الولايات المتحدة أن تبقى الدولة العظيمة الوحيدة في نطاق نفوذها الخاص، أعنى في العالم. وصانعو السياسة في الولايات المتحدة يرون انه يجب ألا يسمح بقيام أوربا متحدة أو ألمانيا قوية وكلاهما تمّا رغمًا عن إرادتها أو يابان مستقل كقوة ثالثة

أو كتلة حيادية. ليس من السهل أن ننسى أن الولايات المتحدة كانت خلال الحرب الباردة، وخارج العالم غير السوفييتي، هى القوة العظمى الوحيدة التي كانت تسعى إلى إبقاء الأوضاع على تلك الصورة.

يمكن الاعتراض طبعًا بأن الولايات المتحدة بدلًا من كبح عودة ظهور أو ظهور مراكز قوة منافسة لها في نطاق نفوذها فشجع هذا تسهيل استعادة أوربا الغربية واليابان عافيتهما، ولكن يرد على هذا أن الولايات المتحدة كانت في الوقت ذاته تحافظ على سيطرة سياسية محكمة على هذه الدول.

فقد كانت واشنطن تريد أن تكون أوربا الغربية واليابان على درجة من القوة كافية للإحتواء، أي لا تريد لهما أن تصبحا على درجة من القوة الكافية لتحدي الزعامة الأمريكية، وبهذه الصورة استراتيجية أمريكا ذات احتواء مضاعف، أي أن الولايات المتحدة تسعى في الوقت ذاته إلى احتواء الاتحاد السوفييتي وإلى احتواء ألمانيا واليابان أيضًا.

لكن، وفي عالم الواقع يمكن أن تكون هذه الاستراتيجية ذات أضرار للهيمنة وللمصالح الأمريكية أكثر من منافعها، فالحكم على صلاح الاستراتيجية يتوقف على الإجابة عن الأسئلة الآتية، هل تستطيع الولايات المتحدة منع نهوض دول عظيمة جديدة فتبقى على زعامتها إلى مالا نهاية؟ هل يؤدي الاعتماد الاقتصادي المتبادل إلى السلام حقًّا؟ هل تبقى الضمانات الأمنية التي يعتمد عليها نجاح الاستراتيجية، محافظة على مصداقيتها في القرن الحادي والعشرين؟ من المؤكد لا.

***

انتخاب منطقة أو دولة محتملة التفوق

الاتحاد الأوروبي بعيد جدًّا عن إرساء قواعد الائتلاف الصحيحة بين أعضائه، حتى أن قراء فرضية جاك آتالي (مستقبلي فرنسي) حول قيام الاتحاد الأوروبي كقطب بديل يجدون في آراء بريجنسكي وتحليلاته ازدراء" ليس بآتالي وحده وإنما بكل من قبل هذه الفرضية. ولو نحن راجعنا سلوك دول الاتحاد الأوروبي أثناء حرب كوسوفو وموافقتها على تعديلات حلف الناتو لوجدنا أن بريجنسكي كان مدرك" لهذه النتيجة قبل سنتين من وقوعها. بل أكثر من ذلك فإن برجينسكي يرى في تعزيز السيطرة الأمريكية على حلف الناتو جسر للعبور إلى القوقاز، كونه يرفض فرضية قدرة دول الناتو على تصدير الليبيرالية إلى ما وراء بحر قزوين والحزام الأوراسي.

واحتمال لعب اليابان لدور القطب البديل، فيستبعدها أيضًا" لجملة أسباب منها خلافاتها مع محيطها وحاجتها الملحة للآخرين عدا عن مشاكلها الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية وانتهاء بمجاورتها للصين. أما الهند فهى تداري فقرها وزيادتها السكانية بملكيتها للسلاح النووي الذي يؤهلها لمجابهة الصين (أي انها في حالة احتواء مزدوج- بحسب القاموس السياسي الأمريكي وإن تجنب بريجنسكي استخدام هذا المصطلح). ومع ذلك فهو يرى أن من مصلحة الهند أن تبقى على علاقاتها الجيدة مع الولايات المتحدة.

والصين بدورها مستبعدة من قبله (أقله على المدى المنظور كما يقول) وذلك لأسباب متداخلة أهمها تناقضاتها بين نظام متشدد وانفتاح اقتصادي مقنن وبين الفوارق بين سكانها على صعيد المستوى المعيشي والرفاهية ونمط الحياة اليومية. وأيضًا التناقضات الدينية والفكرية بين سكانها. مع إيلاء المؤلف الأهمية الأكبر لاعتقاده بعجز الصين عن الاحتفاظ بمعدل التنمية الراهن والذي يعتبر شرط ملزم لإمكانيات تطورها وفق

التزامها بخطة إنفاق عسكري ضمن الحدود الراهنة (سوف تضطر لزيادة الإنفاق العسكري لو انها سعت للعب دور القطب البديل). ويصل إلى تشبيه الأوضاع الاقتصادية الراهنة للصين بمثيلاتها في الاتحاد السوفيتي المؤدية لانهياره. وبهذا يتطرف برجينسكي في استبعاده للصين وصولًا لإيحائه بقرب انهيارها وفق النموذج الكارثي السوفيتي. ثم يصل إلى اندونيسيا الغارقة في فقرها وفي تعددية أعراقها بما يكفي لاستبعادها أيضًا. ورغم ماسبق من التحيز والبعد العلمي في الاستشراف، تعد الصين أقوى من سيتفوقون على قوة الولايات المتحدة تليها الهند.

أما المنطقة الأوراسية التي تناولناها في عدد من الموضوعات بشكل إيجابي ومشرق، فمتوقع أيضًا أن تقوم الولايات المتحدة ودول أخرى بجوانب سلبية إن فشلت في التعاون والإيجابية من دولها، خاصة أن المنطقة تعاني من الضعف الآسيوي الشامل، فالقارة الآسيوية مليئة بالبيادق مما يجعلها قابلة للإنفجار على دفعات متتالية. وهو يستعير لهذه التفجيرات مصطلح "البلقنة". مؤكد أن تناقضات الدول التي تؤلف الحزام الأوراسي كفيلة بتفجير سيرورة بلقنة أكثر حدة من البلقنة الأساسية.

وبمعنى آخر هناك منطقة متفجرة تضم أكثر من 500 مليون إنسان مهددين بالوقوع ضحايا الحروب الحروب الأوراسية والصراعات القادمة التي تقتضي التدخل الإنساني الأمريكي لإنقاذهم. إنها كوسوفات جديدة تحتاج لدورات تربوية بالأسلحة الأمريكية المتطورة- لم يقل بريجنسكي ذلك إلا انه التفسير الوحيد لطرحه- وعلى غرار كوسوفو فإن التدخل الإنساني يحتاج إلى طلبات رسمية للتدخل على أن تأتي من دول المنطقة الأقوى! بما يعادل تورط هذه الدول وخضوعها لشروط الحلول الإنسانية الأمريكية، وبالتالي فإن الصراعات التي تفتح أبواب التدخل الأمريكي يجب أن تكون في بعض هذه البلدان.

لم أرد التدخل في المضمون بالتطبيق على مناطق أخرى في العالم كما في سوريا والعراق وليبيا.. إلخ مستقبلًا، لأذكِّر بتطبيق نفس النموذج في هذه الدول وغيرها، لكن النموذج فشل في تحقيق الأهداف المبتغاة هذه المرة، لكون دول العالم خاصة روسيا والصين ودول غربية أكثر فهم وعلم ومعرفة بسياسات الولايات المتحدة.

ومنذ أواسط الثمانينات توزعت وجهات النظر الاستراتيجية في أمريكا على تيارين رئيسين هما:

1 – **التيار الانعزالي**: ويدعو إلى العزلة الأمريكية لإجراء ثلاثة إصلاحات أساسية في النظام وهى:

أ. تراجع الحصة الأمريكية من الناتج الاقتصادي العالمي. وتنامي حصص اليابان وأوروبا الغربية والدول الصناعية الحديثة من هذا الناتج.

ب. تراجع النفوذ السياسي الأمريكي كنتيجة لتراجع النفوذ الاقتصادي.

ج. عدم جواز الاستمرار في الإنفاق العسكري لأن اقتران هذا الإنفاق مع التراجع الاقتصادي إنما يعني بداية النهاية للولايات المتحدة.

2 – **التيار الدولي**: القائل بأن الحفاظ على الدور الأمريكي القيادي للعالم الحر يقتضي تقديم هذه التضحيات الاقتصادية. شرط قدرتها على التجدد والتطور بما يحفظ لها القيادة والنجاح في اختباراتها، فإذا ما حدث ذلك فإن هذه السلطة تعوض الاقتصاد.

وكسب التيار الدولي معركته تدريجيًّا". إذ انهار الاتحاد السوفياتي وبرزت الولايات المتحدة كقطب عالمي أوحد ثبت نجاحه في اختبار القوة. ثم فاز هذا التيار بالضربة القاضية في 1998 عندما بدأ الاقتصاد الأمريكي بتحقيق الفوائض للمرة الأولى منذ 1956. وربما مشروع لبلقنة المنطقة الأوراسية يعد الاقتصاد الأمريكي بأرباح كبيرة وبحصة غير مسبوقة للولايات المتحدة في الناتج الاقتصادي العالمي.

لكن هذا كله لايعني البتة إهمال التيار الإنعزالي والتنكر له، فقد أثبت هذا التيار صدقيته عندما عجزت الولايات المتحدة عن الموافقة على الإنزال البري في كوسوفو. وهو عجز أحرجها كونه يعكس انعزالية المواطن الأمريكي المقترنة مع رغبته الملحة بالرخاء. وعلى هذا الأساس رأينا الولايات المتحدة تتجنب التدخل في مسألة تيمور الشرقية تاركة قيادة القوات فيها لأوستراليا. كما وجدناها غائبة تمامًا عن الصراع في الشيشان (انسحبت منه بعدما تبين أن مخزونه النفطي أقل كثيرًا من المتوقع).

ولعل المراوحة بين هذين التيارين تفسر لنا تأرجح طروحات الولايات المتحدة وتفاوتها بين الاستخفاف الظاهري بالأعداء المقترحين وبين التحذير الضمني من خطرهم واحتمالات مصادمتهم للولايات المتحدة. ولقد تجلت هذه المراوحة أكثر في التحليل موقف روسيا ومستقبلها.

نحن نقوم بتقديم بعرض وتحليل كامل لرؤية الولايات المتحدة الاستراتيجية في كتاب موجه للجمهور، وهو ما لم يقدم عليه مالكي المعلومات غير الشعبية. لأن المحظورات باتت شبه محدودة وإن اختلفت باختلاف المواضيع. إنه من حقنا كقراء أن نطرح جملة أسئلة تتداعى إلى الذهن في سياق متابعتنا للإستشراف والتحليلات ولعل أهمها:

1 – تشكل أوستراليا استنساخ للولايات المتحدة، وذلك بسبب تشابه ظروف النشأة والموزاييك السكاني والمنطلقات السياسية. وهذا ما جعل الأمريكيين "وفي مقدمتهم نيكسون في مذكراته" يرون أوستراليا نسخة عنهم باقية بعد زوالهم. ومرشحة لخلافتهم، وتمت الإشارة لذلك في 1999 عندما دعيت أوستراليا للإنضمام إلى حلف الأطلسي. وعندما عهد إليها بقيادة القوات الدولية في تيمور الشرقية والبقية تأتي. وهنا يطرح السؤال: لماذا تيجاهل أغلب المفكرون والمؤلفون الأمريكان أوستراليا كبديل للولايات المتحدة مع انها بديل غير عدواني؟

2 – معظمنا على اضطلاع معمق على دور الفاتيكان في مساعدة بولندا الكاثوليكية على تحسين مستوى معيشتها أثناء الحكم الشيوعي. ومن ثم لاحقًا على دوره في اخراجها من الشيوعية ومساعدتها على التكامل في المجتمع الأوروبي الغربي. عدا التسهيلات التي أمنتها الكنيسة للمهاجرين البولونيين في أنحاء العالم. وعليه فإن الاتحاد الأوروبي المتعثر لا يتعارض مع وجود تجمع كاثوليكي أوروبي قابل للتعولم وقادر على لعب دور مؤثر في السياسة العالمية والأمريكية الداخلية أيضًا فلماذا هذا التجاهل؟

3 – إن ما يخيف الولايات المتحدة من الصين هو انبعاث قوميتها وليس نظامها الاشتراكي، فلماذا تجاهل إمكانية تحويل هذا النظام في الاتجاه القومي؟ وهو

تحول كان نيكسون قد حذر منه في مذكراته معتبر" ان المشاعر القومية في الصين عميقة، بحيث تملك القدرة على على تجاوز كل التناقضات والخلافات. كما أعرب عن دهشته من الاحترام الذي أظهره ماو تسي تونغ تجاه خصمه شان كاي تشك" متجنبًا ذمه أمام أمريكي غريب".

واليوم نحن أقدر على استكشاف ما يحاول البعض اخفاءه وتجنبه إظهار علائم القوة الصينية، وهى العلائم التي تبدت للجمهور في مشاهد غاية في الصدق. منها احتجاج التايوانين على قصف السفارة الصينية في بلجراد. ومنها أيضًا تجنب حلف الأطلسي (عبر تعديلاته الاستراتيجية) الإعلان عن وجود مصالح له في المنطقة المحيطة بالصين وعلى تخومها.

4 – إن الولايات المتحدة لاتزال ترتعد خوف من سيطرة الجنرالات الروس على السلطة، لأن هؤلاء مستعدون لفتح أبواب ترسانتهم العسكرية لدول العالم الثالث لتجنب الواقع الاقتصادي المذل لبلادهم. ولعل توريط هؤلاء في حرب الشيشان خطوة على طريق الخلاص منهم.

5 – إن توازن الرعب القائم في الشرق الأوسط لم يعد مريح للولايات المتحدة بعد أن تولت قواتها العسكرية تأمين مصالحها في المنطقة، بحيث باتت المنطقة مصدر إحراج وإنهاك للإدارة الأمريكية، فتكاليف الدعم لإسرائيل بات يشكل عبء على الخزانة الأمريكية وعلى سياساتها وتوجهاتها واقتصادها وأعبائها. وكان السلام أحد أسهل وأقرب الحلول لهذه المشكلة، لكن قناعة أمريكية ترسخت ومفادها أن السلام الأمريكي مرفوض من جميع الأطراف، خصوصًا بعد أن فقد مصداقيته في مفترقات عدة منها المسار الفلسطيني الذي وصل إلى حدود الإبتزاز الإسرائيلي تحت رعاية أمريكية تقود جوقة عرابين يهود في الإدارة الأمريكية.

وهذا الواقع – وفق الفكر والرؤية الأمريكي – يتطلب تدخل أمريكي حاسم السلام وتحول الشرق الأوسط إلى الحرب الباردة ريثما ترسخ الولايات المتحدة أقدامها في الحزام الأوراسي، حيث استثماراتها القوقازية تبلغ أكثر من 250 مليار دولار مقابل

40 مليار لإسرائيل. وتلك البلاد كانت بلاد المتهودين الخزر، فهل يمكن أن يخبرنا مؤلف أمريكي عن الموقف الإسرائيلي من العودة إلى أرض الخزر لو هى أمنت له رخاء أفضل مما يحصل عليه في أرض العرب؟

على القادة في الولايات المتحدة أن يكونوا على وعي بعدم التشبه بالإمبراطورية الرومانية التي كانت تستخدم فيها مصطلحات قريبة جدًّا من المصطلحات التي تصدر عن مسؤولين في واشنطن مثل «الدول المارقة» و«محور الشر».. إلخ، فالغطرسة التي كانت تمارسها روما أدت بالإمبراطورية إلى الإنهيار، وعلى هذا الأساس يجب أن تكون أمريكا كما ورد في العظة الأخيرة للسيد المسيح عليه السلام «مدينة مشعة وفي سلام مع العالم، لا قلعة على جبل» لا مدينة تثير المشكلات العالمية، ولا كئيبة تستقبل جثث جنودها على وقع الموسيقى الجنائزية.

***

الفصل الرابع

التنين المتعاظم

النزاع والصدام بين الولايات المتحدة والصين الشعبية

يمكننا أن نخلص إلى أن فريق القيادة بالصين برئاسة تشي جين ومعه رئيس الوزراء يبدون في صورة نظام الحكم الأكثر استقرار واتساق في العالم، فالملاحظ أن فائض تجارة الصين مع الولايات المتحدة يتزايد ليصل إلى مستويات قياسية خطيرة حتى وإن لم تحدث سوى أضرار اقتصادية ضئيلة.

صدرت عن الصين سلسلة مراسيم وقائية تثير غضب رجال الأعمال الأمريكيين، وهى لماذا يضعون العراقيل في طريق الشركات الأجنبية لإدارة أعمالهم في الصين، في نفس اللحظة التي هم في أمس الحاجة إلى استثمار أجنبي جديد؟، يبدون أن هذه إجراءات لها أثرها في السلام السياسي والاجتماعي الداخلي بالصين، لذلك نتوقع أن يستمر هذا الإتجاه وقد ينطوي على إثارة توترات في العلاقات بين الولايات المتحدة والصين، خاصة في المجالات الاقتصادية والتجارية.

أمريكا لن تقف مكتوفت الأيدي أمام قيام صين قوية مستقلة وناجحة اقتصاديًّا، لذلك ستعمد إلى تقويضها وإعاقة نموها ومحاولة تدمير جهود التطوير واحتواء الصين عسكريًّا واستراتيجيًّا، وكلما ضعفت روسيا سهل على الولايات المتحدة اتخاذ الصين عدو، وبالتالي لابد أن تستجيب الصين على نحو ملائم وربما بالطريقة نفسها، وهنا يتحول الأمر إلى صدام ناجم عن هذا.

وعلى النقيض ترى مدرسة فكرية متنامية ومؤثرة بين استراتيجيين السياسة الأمريكية تؤكد أن الصين قررت أن تصبح عدو-غير معلن بالطبع- للولايات المتحدة وأن تهدد السلطة الأمريكية الكوكبية وأن الولايات المتحدة ليس أمامها خيار سوى أن تستجيب بالطريقة ذاتها وتصبح عدوانية مع الصين وتستعد لصراع القرن ال21 أو قرن النزاع والصدام.

إن حافز الصينيين للتحرك في اتجاه الحداثة والأسواق والديمقراطية بدا حافز إصرار وبدت تجربة الصين كأنها تصحيح للرؤية الأمريكية عن عالم ما بعد أمريكا على الأقل- وربما معظم الغرب- نظرًا لأن الصينيين شأنهم شأن أي مجتمع آخر يتطلعون إلى السلع الاستهلاكية الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكي، إلا انهم على استعداد لعمل ما يتعين عليهم من جانبهم للتلاؤم مع النظام العالمي الخاضع للنفوذ الأمريكي أو الذي أثمر لأولئك الذين التزموا قواعده بعد أن حققوا عبره مايبغون.

لم يكن هناك نقص في الخبرات وأصحابها ليذكرونا بأن عالمية مشروعات الأعمال والاقتصادات هو إتجاه من الإتجاهات الموجهة صوب المستقبل، هكذا نرى السرعة الصينية التي تتحول بها إلى عامل رئيسي في مشروعات الأعمال الدولية السياسة والأيديولوجيا والنزعة القومية والقوة العسكرية التي تعتبر قوى ذات سطوة بلغت ذروتها خلال النصف الثاني من القرن العشرين. وبات لزامًا أن تنحسر وتتراجع ولو قليلًا إلى ما وراء المسرح لكي نجد في الصدارة منطق القرن ال21 عن النزعة الاستهلاكية والأسواق والتكنولوجيا والمعلوماتية والاقتصاد الكوكبي القائم على المعرفة.

المناقشة الاقتصادية حلت محل النزاع العسكري وأصبحت هى الصيغة الأساسية للتنافس بين القوى العظمى والكبرى أيضًا، وستبدو الحروب الساخنة شيء من تراث الماضي، وبالتالي مشكلة الصين نسترجعها إلى أن تكون مشكلة اقتصادية أكثر منها سياسية أو عسكرية.

لا يزال الصينيون يصفون أنفسهم بانهم شيوعيون ولا يزال الحزب الشيوعي يحكم الصين بقبضة من حديد، ولكن سيواجه بصعوبات في مواجهة معدلات النمو الاقتصادي التي تزيد عن ثلاثة أو أربعة أمثالها في الولايات المتحدة وسيواجه باقتصاد رأسمالي صرف. جاك ويلش رئيس مجلس ادارة شركة جنرال إليكتريك أشار إلى أن سوق الصين ستصبح مركز الجذب لشركته في ضوء استراتيجية النمو المرسومة لها خلال القرن ال21، وروبرت إلن رئيس مجلس إدارة "اه. تي أند. تي" أوضح انه على مدى الأربعين عام القادمة ستكون الصين السوق التي تشهد نصف النمو العالمي في مجال مشروعات أو

أعمال خطوط وتحويلات الهاتف، وبعد الصين ستصبح جميع الفرص الأخرى ضعيفة. كما يرى ويليام وأرويك مدير شركة"اه. تي. أند. تي" بالصين أن شركات الهاتف العالمية ستحقق عوائد من الصين تفوق كثيرًا عوائدها من سوقها المحلية.

اقتصاد الولايات المتحدة يمكن أن يحظى بدفعة قوية تحفزه للنمو بفضل استثمارات وتجارة الولايات المتحدة مع الصين. وإلتقاء الغرب مع آسيا التي تشكل الصين قوة الدافع لها سوف يفضي إلى حالة ربح متبادل لجميع الأطراف. ما يجب على الصين أن تخلق لنفسها إطارها الأساسي الاقتصادي والسياسي الذي يحتل موقع الصدارة بالاقتصاد الاجتماعي والديمقراطية الاجتماعية وهو الأقرب للقيم الآسيوية والغربية.

وأكبر خطأ وقع فيه جورباتشوف في الاتحاد السوفيتي السابق انه سمح بالحرية السياسية قبل أن يجدد الاقتصاد، وهذا ما أكده هسياو دنج. أي يأتي التحديث الاقتصادي أولًا ثم الإصلاح السياسي، هذا بالنسبة للحالة السوفيتية والصينية، وهو ما نراه في اقتصاد الصين الذي يبلغ ثلاثة أمثاله، بينما نجد مجموع إجمالي الناتج المحلي لجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق قد انخفض لأكثر من النصف.

لا بد من واقعية تحدد من أين تتحرك الصين وإلى أين تتجه؟ فمخاطر الصين على الولايات المتحدة ليس على الجوانب الاقتصادية فقط، فهناك وجهة نظر أمريكية تشير إلى أن الصين باعت معدات نووية إلى باكستان وصواريخ بعيدة المدى لإيران وانها احتلت جزر متنازع عليها في بحر الصين وأن مصانع الصين تحوز بصورة غير مشروعة أجهزة وأقراص مدمجة أمريكية مهربة. وأن شركات الصين عمدت إلى الحصول على تكنولوجيا مزدوجة الاستعمال من الولايات ابلمتحدة تحت غطاء انها للإستخدام المدني ثم تسليمها مباشرة إلى المؤسسة العسكرية، بالإضافة إلى أصوات تنادي أن يتم اعتبار واشنطن عدو وتحث المواطنين على رفض كل ما هو أمريكي، وإن صح هذا فمعناه أن هناك فارق بين الإعتراف بسوء سلوك بعض الشركات الصينية والاعتقاد بأنها تمثل خطر وهو ما يقوله الصحفي بصحيفة نيويورك تايمز ستيفن إيرلانجر"حذار مما تراودك الرغبة فيه إذ ربما يصبح حقيقة".

الصين ستصبح أكثر ديمقراطية من أي وقت مضى في تاريخها على مدى خمسة آلاف عام، كذلك سوقها ستكون أكثر انفتاح للتجارة والاستثمار من بعض بلدان الإقليم. والصين على مدى عشرين عام مضت، وهى فترة استثنائية في تاريخها فقد سجلت نجاحات هامة في التنمية والتغيير والتحديث، بل تجاهد في حذر وبتمهل لتدخل تحت هالة الضوء الغربي للديمقراطية والأسواق، ولكن بعد هذا كله تعامل وشنطن بكين معاملة تنطوي على قدر من الإمتهان أكثر من السابق وقتما كانت بكين غير ديمقراطية خلال السبعينيات، وتدرج واشنطن بكين ضمن حوارات المستوى الأدنى للقيادات وحقوق الإنسان.

وفي الربع الأول من القرن ال21 معظم الدول النامية سيكون اقتصادها بطئ النمو وزيادة سكانية سريعة، سيصبح أقل من 1 بين كل أربعة من السكان يعيشون حياة اقتصادية موسرة مما يجعل أغنياء العالم أقلية كبيرة – مثلما كان في القرون السابقة – يحاصرها محيط من المعدمين، لكن أغنياء الصين وغيرها كالبرازيل والهند– وربما مصر– ..إلخ ودمجهم في النظام العالمي سيؤدي إلى زيادة تلقائية في عدد الموسرين ليصل إلى ما يحاول الاقتراب من نصف سكان العالم، مما يجعل مثل هذه الدول مثال يحتذى لشعوب البلدان الأخرى.

في الحقيقة لا يوجد بلد آخر مثل الصين يفرض على جدول الأعمال الأمريكي – أطول فترات القرن ال21 – مثل هذه المسائل المهمة في مجالات الأعمال والاقتصاد والسياسة والاستراتيجية" لكن روسيا تتشارك سياسيًّا واستراتيجيًّا". ويصل الإغواء إلى حد الخطر، حيث يمكن أن تكون الشركات التي مقرها أمريكا شريكًا للصين في الاستثمار وتحديث الاقتصاد إذ أن الصينيين معجبون ببراعة الأمريكان في مجال الاقتصاد فهم أكثر حسم من الأوربيين وأيسر من اليابانيين. من هنا أي شبح لحرب ستؤدي إلى تقييد قدرة الأمريكان على الاستثمار ورؤوس الأموال فضلًا عن الفرص التي يسيل لها اللعاب، والتي حان الوقت لقطافها.

إن نشوب حرب حقيقية مع الصين إنما يعني على الأقل مزيد من النفقات الدفاعية للإنفاق على قوات أمريكية مرابطة في الخارج، ويعني تعطل جانب ضخم من الاقتصاد والتجارة وأزمة مع حلفاء أمريكا في آسيا، وقدر أكبر بكثير من النزاعات داخل مجلس الأمن وربما يعني مزيد من الانتشار النووي. وانه يعني عالم أكثر خطر وتعقد وأقل قدرة على التنبؤ بمستقبله. ثم ما المانع من تهيؤ المسار بشكل إيجابي بتحقيق منافع متبادلة للجميع وليس بينهما فقط خلال القرن ال21؟، ولكن سيناريو ضربة أمريكية مباغته وقوية للصين مثلما حدث مع اليابان واردة، والصين تعي ذلك.

***

فكر محليًّا واعمل كوكبيًّا

إذا ما تهيأت الفرصة للصينيين الحصول الكافي من اللحوم مثل الأمريكيين ربما يحدث عجز في المراعي اللازمة على كوكب الأرض لتلبية حاجات البشر. وإذا أكل الصيني أسماك بقدر ما يأكل الياباني فإن الصين سوف تستهلك ما يعادل من حيث الحجم إجمالي الصيد من الأسماك على نطاق الكوكب. هكذا يستطيع المرء أن يمضي أكثر بأمثلة عديدة للطرق التي ستؤثر بها الصين في بقية البشر في العالم. بيد اننا لسنا مع أولئك الذين يرون أن الصين ضخمة أكثر من اللازم، وأن مستقبلها سوف يهز العالم وأن النجاح الكامل أو الفشل الكامل للاقتصاد العالمي معلق بطيبة تطورها، فثورة الإلكترونيات الرقمية والمجتمع الناضج سوف تكون لهما أهمية حاسمة في اقتصاد القرنين ال21 و22.

أصبح العجز التجاري الأمريكي مع الصين واضح جدًّا، كما أن كميات كبيرة من الصناعات كثيفة العمالة انتقلت كاملة بالفعل إلى الصين كلعب الأطفال والمنسوجات واللدائن والالكترونيات الاستهلاكية والعدد اليدوية..إلخ.

أصبح للصين قدرة على تخريج علماء في مختلف المجالات، مما دعى الشركات إلى الذهاب للصين لإنتاج ما تريد بعلماء وأيدي عاملة أرخص من نظيرتها الغربية، كما استطاعت الصين أن تصبح ثاني أو ثالث أكبر دولة لديها احتياطي عملات أجنبية، بل استطاعت الصين شراء معظم الدين الأمريكي، أي انها تقوم نيابة عن الحكومة الأمريكية بعملية الإدخار، كما استطاعت أيضًا غزو الأسواق الأمريكية المحلية بمنتجاتها المختلفة، هكذا ندرك أن هناك شيء ما يحدث بشكل قوي في جوانب أخرى من العالم.

ويري البنتاجون أن الصين تنفق ما بين 24 إلى 36 بليون دولار على الجيش سنويًّا وتمثل 16 ٪ من ميزانية الصين الكلية، لكنها مقارنة بميزانية الجيش الأمريكي تبدو كشظية إذ تبلغ حوالي السبع. ويتصور بعض العسكريين الأمريكيين أن الصين لديها

خطة للسيطرة على الممرات البحرية في آسيا، وأن بكين قد تسد الطريق على تدفق النفط إلى اليابان وغيرها من الدول مستقبلًا إذا اضطرت لذلك. وحوالي ٪40 من دخلها القومي منصرف إلى التجارة العالمية، وهذا قد يعزها إلى تطوير أسطولها الحربي، خاصة انها مرشحة قوة عظمى أيضًا، وهو ما بدأته بالفعل في تطوير حاملات طائرات، رغم أن تطوير حاملة طائرات يستغرق سنوات، لكن الصين اقتصرت الوقت بأجهزة أحدث ساعدت على ضيق الوقت الذي يستغرقه تطوير حاملات الطائرات «كان بين 10–15 سنة». ورغم ذلك أود التأكيد على أن ما تفعله الصين حتى 2025 لا يقارن بما تفعله الولايات المتحدة عسكريًا، لكن رؤوس الصين النووية موجهة مباشرة صوب الولايات المتحدة، وهى من بين ثلاثة دول في العالم الموجهة رؤوسها صوب واشنطن. وللحقيقة هناك فترة طويلة تتعدى 20 عام لتصبح الصين الثانية عسكريًا بعد الولايات المتحدة، وخلال هذه الفترة تكون الولايات المتحدة قد تقدمت في التكنولوجيا العسكرية عليها.

وفي السنوات الأخيرة ثمة نمط سلوك يفزع المفكرين في مختلف أنحاء العالم، وهو قيامها بمجموعة من الأخطار الاقتصادية تجاه الولايات المتحدة ابتداء من تنامي فائض تجاري ضخم مع واشنطن وانتهاء بتشغيل مصانع مملوكة للدولة. كما ان الصين تاجر سلاح كبير وبعض أسلحتها منافسة لدرجة كبيرة في الأسواق العالمية، علاوة على أن بعض أهدافها السياسية الخارجية يمكن تعزيزها عن طريق مبيعات السلاح، خاصة للأنظمة التي تراها واشنطن خطيرة. لكن بالمقارنة بالولايات المتحدة تعتبر تاجر سلاح صغير إذ يبلغ إجمالي مبيعاتها 20 ٪ من صادرات السلاح الأمريكية.

وترى بكين باكستان من أهم بلدان العالم، حيث تعتبرها الثقل الاستراتيجي المقابل للهند وتراها حلقة وصل بينها وبين الدول الإسلامية والعربية الخصبة في الشرق العربي وشمال إفريقيا وقلعة ضد نفوذ الدب الروسي في أقصى الغرب الآسيوي.

ورغم ما يقوله الأمريكوون على الصينيين، فإن بكين بلد خرج للنور من موقع العزلة الدبلوماسية منذ أكثر من 30 سنة إلى موقع العضو النشط والمسئول في الأمم المتحدة. والملاحظ أن الصين عند التصويت داخل مجلس الأمن نادرًا ما استخدمت

حق النقض/ الفيتو. ويشهد الواقع انها ساندت الولايات المتحدة أكثر من معارضتها لها، وامتنعت سياسيًّا عن التصويت أكثر مما استخدمت حق الاعتراض. كما أن الصين عضو في أكثر من 50 منظمة حكومية دولية وأكثر من ألف منظمة غير حكومية.

ويعتقد بعض الباحثين الأمريكيين أن أي دولة تصبح ديمقراطية عندما يبلغ مستوى الدخل السنوي للفرد ما بين خمسة آلاف وثمانية آلاف دولار، وهذا يكفل استدامة النظام الديمقراطي واستقرار دولته. وتوقع باحثون أمريكيون أن تبلغ الصين هذا وتصبح ديمقراطية بحلول 2020، لكني أظنه مفرط في التفاؤل فستستغرق زمن أطول، فالإفراط في توقع صعود الصين ليس كامل لأن الصين قد تتعرض لهزات اقتصادية وأخرى نوبات فساد في الشركات المملوكة للدولة، فهو غذاء الأم لاقتصاديات السوق وثالثة لهوة الاتساع بين الفقراء والأغنياء من جانب، والحضر والريف من جانب آخر، وبين الساحل والداخل من جانب ثالث واتساع عدد المتقاعدين من 30 مليون إلى 120 مليون في 2025، والأهم حزب ليس هناك بديل عنه إذا ما حدث انهيار ما. وسوف تحتاج الصين إلى 300 مليون طن من الحبوب بحلول 2030، وهو طلب يتجاوز ما يمكن أن توفره أسواق العالم المتاحة للتصدير، وربما يتسبب هذا في مجاعات لدول أخرى من العالم، ولكن يمكن مواجهة ذلك بزيادة المنتجات الزراعية في ظل غزو الصحراء بالتكنولوجيا الحديثة بمعنى «فكر محليًّا واعمل كوكبيًّا»، فنهر اليانجتسي ليس نهر المسيسبي.

منظومات الصين والغرب ستظل على مدى عقود عديدة قادمة أكثر إدراك للخلافات بينهما من إدراكها لأوجه التماثل، والتغيير على مدى أجيال سوف يحتاج إلى عدة أجيال. ولعل الأفضل أن نصل إلى فهم الواقع بدلًا من أن نظل غارقين في الحلم الأمريكي عن الصين التي ستتطور على الصورة الأمريكية وشاكلتها، فالواقعية هى الأساس للحيلولة دون تصاعد عمليات سوء الفهم والتصورات الخاطئة والتوقعات البائسة، وجميعها لن تؤدي إلى شيء سوى تفاقم النزاع بين القوتين العالميتين مستقبلًا.

أجيال ركائز قيادة الصين كنموذج

المعروف أن ماوتسي تونج وشواين لاي وجودي وزملائهم من الثوريين الذين قادوا تأسيس جمهورية الصين الشعبية في 1949، يعتبرون الجيل الأول من القادة. وبدأ هؤلاء الآباء بناء الحزب وتأسيس الجيش القوي، وشاركوا في المسيرة الكبرى وحضروا اجتماعات ميدان آن مين في أكتوبر 1949عندما أعلن ماو انتصار الثورة بكلماته المشهورة: "الآن تقف الصين شامخة". هؤلاء الرجال مثلهم مثل قادة أقوياء في عصرهم – روزفلت، ديجول وتشرشل– تميزوا بالقوة والشخصية الزعيمة الجذابة "الكاريزمة". كانوا أكبر من صعاب الحياة، حنّكتهم المعارك وصهرتهم الحرب والثورة. كانوا ذروة القوم المحدثين، ركزوا اهتمامهم على رؤي وآمال عظيمة هدفها التقدم بمصالح أمتهم.

كذلك كان ماو ومعاصروه مثل نظرائهم من قادة الغرب في الحرب العالمية الثانية يستمدون من نجاحهم في قيادة شعوبهم، من أجل تحديد خيرات الحقبة الحديثة وخلاص البلاد. ووُضع دنج هسياو بنفسه ضمن الجيل الثاني من قادة الصين رغم انه شارك الجيل الأول في العمل والخبرة، ويرجع هذا إلى وازع الاحترام لماو، فقد أصبح بهذه الصورة أول زعيم صيني جمع بين الوضع التاريخي المواتي والعقل المنفتح تمامًا للتأمل الجاد في كيفية فتح أبواب الصين للحداثة والعالم.

جيانج زيمين وأقرانه من الجيل الثالث ربما شاركوا في ثورة بكين 1949، ولكن فقط كطلاب أو فتيان، إنهم ليسوا أبطال حرب، بل من بقوا بعد جولات التطهير المتعاقبة، وصراعات الحزب الداخلية. يتمتعون بالقدر اللازم من التعليم الأساسي والمهارات، كثير منهم مثل جيانج مهندسون تخرجوا في الجامعة، لكنهم على عكس دنج الذي سافر إلى فرنسا شاب ثوري يطلب العلم وفهم حقائق عديدة عن العالم الخارجي، بينما الخبرة الأولية العالمية لدي قادة الجيل الثالث كانت ثقافتهم سوفيتية.

الجيل الرابع هو الجيل الذي يتولى الآن" من 2000 إلى 2030" إدارة البنوك والمؤسسات المالية ويشغل مناصب المحافظين وعُمد المدن. وينتشر أبناء هذا الجيل في مختلف مراكز الفكر والوزارات والشركات الصينية الجديدة في الداخل والخارج. هؤلاء في العقد الرابع أو الخامس من العمر، ومن المقدر أن يشغلوا مناصب رئاسية في هيكل السلطة خلال الفترة من 2015 إلى 2030. ينزعون إلى الاعتقاد بأن الإصلاح السياسي أمر حاسم من أجل مستقبل الصين، بيد انهم يفهمون أسباب التدرج في العمل السياسي، حيث انهم شباب تصدروا صفوف الثورة الثقافية، بعد أن رأوا الصين كيف أصبحت في حالة من الفوضى، إنهم يخشون أن تخفق الصين إذا لم يحدث تغيير[1]. أغلبهم أكمل دراسته في جامعات غربية كبرى، عندما تيسر لهم ذلك. واحتضن كثير منهم الحركة الديمقراطية في أواخر الثمانينيات، لكنهم يتصفون بثنائية مثيرة للإنتباه، إنهم يتمنون أن يروا الصين بلد حديث مزدهر وأكثر ديمقراطية، ولكن على الرغم من انهم كشفوا في الماضي عن شجاعتهم، فإنهم يعتقدون انهم لا يزالون في انتظار ان تواتيهم فرصتهم. إنهم مقتنعون بأنه حين يصل جيلهم من نهاية المطاف إلى ركائز السلطة السياسية القومية فإنهم سيبدأون حقيقة الإصلاح والتقدم الذهبية خلال القرن ال21، لكن ربما يفتقدون صبرهم وأعصابهم، وهم في انتظار فرصتهم ويقعون تحت سطوة أنماط ومعتقدات قيادة أكثر تقليدية.

انتقال السلطة من الجيل الثالث إلى الرابع سوف تشبه إلى حد كبير الخبرة الأمريكية خلال السنوات الأخيرة من نهايات القرن ال20 و بدايات القرن ال21 عندما خبأ ضوء جيل ريجان وبوش الأب، وظهر جيل جديد يمثله كلينتون، وهذا بخلاف ترامب أيضًا، وفي نهاية المطاف لم نر شيء يمثل تحول برنامجي واسع، هكذا ربما يعود الجيل الصيني الرابع مثل كلينتون إلى المركز التقليدي حال توليهم السلطة.

الجيل الخامس سوف يعلو على هذه العيوب التي ستشوب طابع الأجيال، ويكون القوة الدافعة التي تغير الصين عمليًّا وتحولها إلى أمة حديثة بالكامل. سيصوغ هذا الجيل

(1) وهذا ما لاحظته ولاحظه الكثيرون على معظمهم.

منظومة القيم التي تصالح بين الدوافع المختلفة، فتكون صينية وحديثة في آن واحد. ومن ثم تستحدث مؤسسات اقتصادية سياسية تمزج بنجاح التراث الآسيوي والتراث الغربي. ولكن الجيل الخامس لن يبدأ تولي أمور السلطة إلا بعد 25 عام أو أكثر. وهذا مؤشر واضح يكشف لنا المدى الزمني الغريب تاريخيًّا لحدوث التحول النهائي للصين.

الصين لكي تضع رؤية جديدة محددة المعالم عن المستقبل ستضطر إلى الدخول في مواجهة مباشرة مع الماضي الموروث عن فكر ماو والشيوعية. وهذا من شأنه أن يطرح عن اسئلة جديدة عن المشروعية الضعيفة لقادة اليوم، وقد كانوا تلاميذ ماو. إن الغوص والتنقيب في سجلات ماضي الحزب الشيوعي تحت قيادة ماو للكشف عن المعنى الحقيقي لمعتقدات وأهداف الحزب المقررة آن ذاك، سوف يؤديان إلى كشف النقاب عن فلسفته ومظاهره وتناقضها باضطراد مع متطلبات الصين الراهنة والمستقبلية. لذلك فإن اغفال مجموع الآثار المتبقية عن الشيوعية والتي تشكل ركيزة الفكر السياسي الصيني أيسر كثيرًا من محاولة إزالتها.

وإذا كان لا بد من إجراء عملية استئصال جراحية لجوهر الفكر المادي في التاريخ السياسي الصيني، إذا لابد من أن تحل محله رؤية جديدة مميزة ومحددة، فإن هذا من شأنه أن يركز الإنتباه على السياسة، ويستثير حتمًا من جديد حجج الثمانينات التي تقول: «إنه من دون إصلاح النظام السياسي الصيني وتطبيق ديمقراطية جماهيرية، فإن الصين لن تنجح».

والإصلاح السياسي سوف يبدأ بالتخلص من أجزاء كثيرة من البرنامج التقليدي للحزب الشيوعي وتحل محلها برامج جديدة متميزة تحقق حاجات الصين التنموية والديمقراطية، ربما تكون أقرب لمنهج نظام السوق الاجتماعية الكونفوشية. وقد يتم تغيير كلمة الشيوعي بأخرى تعبر عن القومية والتنمية الاقتصادية. سوف يكون لأحزاب أخرى صوت أقوى وستكون الانتخابات المباشرة هى السائدة لتشمل مستويات أكثر من السياسة المحلية. وفي البرلمان سيتحقق مزيد من الاستقلال عن قيادة الحزب، بالإضافة إلى وجود جماعات مصالح عديدة ومشروعات أعمال لها مصالحها

وشئونها الخاصة ولها مطالب متزايدة تلفت الأنظار. وقد تتحول الصين إلى غير مركزية لتكون سلطة الأقاليم والمحليات من أهم جوانب صيغ الإصلاح السياسي.

وفي عام 2030 ستصبح الصين أضخم اقتصاد لأمة واحدة في العالم، كما تصبح السوق الآسيوية حولها من أكبر الأسواق العالمية.

***

استراتيجيتي تطويق البر والبحر

تشير مبادرة الحزام والطريق إلى شبكة الطرق البرية والبحرية التي ربطت بين الصين وأوروبا مرورًا بالشرق العربي بطول يتعدى 10 آلاف كيلو، وتهدف مبادرة "الحزام" و«الطريق» إلى تعزيز التعاون الاقتصادي والاجتماعي بين الدول التي يمران بها.

ويتضمن المسار الأول- الحزام التركيز على الاستثمار في البنية التحتية، التعليم، مواد البناء، السكك الحديدية، الطرق السريعة، السيارات، شبكات الطاقة، الحديد والصلب، وتغطي هذه المبادرة أكثر من 68 دولة بما في ذلك 65 ٪ من سكان العالم أو أكثر من 4 مليار نسمة و40 ٪ من الناتج المحلي الإجمالي، لذلك يقدر أنها ستدرج ضمن أكبر مشاريع البنية التحتية والاستثمار في التاريخ. والمبادرة تعتبر خليط من مفهومين طرحهما "تشي جين" في أواخر 2013 لدعم الانخراط الاقتصادي والاستثمار في مسارين رئيسيين هما:الأول- مسار الحزام الاقتصادي البري لطريق الحرير الجديد: وسوف يمتد برًّا بإتجاه الغرب عبر آسيا الوسطى إلى أوروبا، وينقسم الطريق البري إلى ستة ممرات هى:

1 – الجسر الأوراسي البري الجديد"ممر منغوليا- الصين"

2 – آسيا الغربية والوسطى"ممر آسيا الغربية والوسطى- الصين"

3 – ممر الصين- روسيا

4 – ممر تركيا- الصين

5 – ممر جنوب الصين سنغافورة، ويمتد من جنوب الصين إلى الهند الصينية، ميانمار، الهند وبنجلاديش

6 – ممر الصين- باكستان.

وقد تعهدت الصين بتخصيص 126 مليار دولار للخطة الطموحة، واعتمدت هذه المبادرة أيضًا على أن تقوم كل دولة مشاركة بتمويل مشاريع البنية التحتية التي تمر بها بنفسها، وتقوم بنوك أنشأتها الصين لهذا الغرض بتقديم قروض للتمويل، منها البنك الأسيوي للاستثمار في البنية التحتية AIBB ، والذي اقترحت الصين تأسيسه في 2013، وذلك للاستثمار في البنية التحتية. وهناك أكثر من 160مليارددولار من الاستثمارات قيد التنفيذ بتمويل من البنك، وكذلك صندوق طريق الحرير SRF الذي تم تأسيسه ببكين في 2014، ويعتبر الصندوق شركة تم تأسيسها وفقًا لقانون الشركات بجمهورية الصين الشعبية بهدف التنمية والاستثمار متوسط وطويل الأجل، وهو مخصص للترويج لمبادرة ومشروعات الطريق والحزام في الدول والمناطق ذات الصلة من أجل ضمان الاستدامة المالية. ويبلغ رأسمال الصندوق 40 مليار دولار، ولا يوجد أي جزء من رأس مال الصندوق ممول من صناديق منح أو مساعدات أجنبية، كما يعمل الصندوق وفقًا لمبادئ السوق ويستثمر بصفة أساسية في الأصول والقروض والتسهيلات والتمويلات، ففي أوروبا الوسطى والشرقية على سبيل المثال هناك حماس عام للاستثمارات الصينية في مجال البنية التحتية.

أعلنت بكين منح 3 مليارات يورو لمشاريع بناء خط سكك حديد بين بلجراد وبودابست، وتعهدت بتحويل المنطقة إلى ممر للنقل تربطه الطرق السريعة والمطارات والسكك الحديدية والموانى ومحطات الطاقة. واستطاعت الاستثمارات الصينية تحويل ميناء بيرايوس اليوناني إلى أكثر مراكز الشحن اكتظاظًا في حوض البحر المتوسط الذي أصبح بوابة السلع الصينية للاتحاد الأوروبي، خاصةً بعد إعلان تكوين مجموعة" 16 + 1 " والتي تضم تكتل اقتصادي أقامته الصين مع 16 دولة في وسط أوروبا وشرقها، وهو تكتل ينظر إليه قادة الدول المتبقية في الاتحاد الأوروبي على أنه اعتداء سلس على قوانين وتماسك تكتلهم الاقتصادي"الاتحاد الأوروبي". ومع عروض الصين لتمويل مشاريع البنية التحتية لدول وسط وشرق أوروبا، يمكنها أن تنصب نفسها بديل لصناديق التنمية التي يقدمها الاتحاد الأوروبي، في حين تشترط قوانين التمويل الأوروبي

حماية العمال والطبيعة ومنح المشاريع للشركات بناء على مناقصات تنافسية لضمان المنافسة العادلة. والصين تميل إلى توزيع أموالها بشروط أبسط بكثير من الأوربيين، بهدف انخراط الشركات الصينية في العمل بدون منافسة.

الصين أيضًا مشتركة حاليًا في عدة مشروعات بنية تحتية ضخمة في إفريقيا على رأس هذه المشروعات خط سكة حديد في شرق إفريقيا بطول 2,700 كم، يمتد من كينيا إلى أوغندا ومنها إلى رواندا، ومنها إلى بوروندي وجنوب السودان، وربما يتكامل مع مشروع خط سكك حديد القاهرة[1]- كيب تاون. وأحد مشروعات السكك الحديدية الكبرى الأخرى هو خط سكة حديد كانو-لاجوس بطول 1,315 كم بنيجيريا، وخط سكة حديد بينجو بطول 1,302 كم في أنجولا، وخط بيلينجا- سانتا كلارا بطول 560 كم في الجابون، وخط بطول 430 كم في موريتانيا، ومعظم إنشاءات الطرق يتولاها مقاولون صينيون وبتمويل صيني بالطبع. وهناك خطة صينية مستقبلية لربط خط سكة حديد أنجولا بطول 1302 كم بأنجولا- زامبيا وتنزانيا- زامبيا.

وهو ما يؤكد أن إفريقيا متواجدة بقوة في مبادرة الحزام والطريق الصينية ويأتي رأس المال اللازم للبنية التحتية في إفريقيا من قروض بنكية صينية مختلفة وفق اتفاقيات ثنائية فردية وقعتها هذه الدول، من خلال البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية وصندوق طريق الحرير. وقد تعزز هذا من خلال توقيع الصين على مذكرة تفاهم مع الإتحاد الافريقي في يناير 2015 لربط الدول الـ54 بسكك حديد فائقة السرعة وموانئ وطرق. ويبدوا أن الجسر البري الإستوائي التقليدي الذي يعد طريق التجارة الطبيعي بين شرق وغرب إفريقيا هناك خطط صينية لاستخدامه كبداية جيدة لتوسع مبادرة الحزام والطريق في إفريقيا، وهو يبدأ من كينيا، أوغندا، رواندا، بوروندي، الكونغو، إفريقيا الوسطى، ويمتد إلى الغرب للكاميرون.

المسار الثاني- طريق الحرير البحري، فيمتد بحرًا بإتجاه الجنوب والغرب ومنه إلى

(1) يتطلب تعديل استراتيجي لانطوائه على أخطار ومشكلات على مصر، لحضرتك أن تنظر كتابنا «مصر العظمى» الصادر عن وزارة الثقافة المصرية.

أوروبا. وسيمر بمحطات مقترحة في جنوب شرق آسيا، جنوب آسيا وافريقيا، ويبدأ من فوجو فى الصين ويمر عبر فيتنام، أندونسيا، بنجالديش، الهند، سيريلانكا، جزر المالديف وشرق إفريقيا على طول الساحل الإفريقى إلى البحر الأحمر، وعبر قناة السويس إلى البحر المتوسط الذي يمتد من الساحل الصيني عبر سنغافورة والهند باتجاه البحر المتوسط. ومن البحر المتوسط عبر المرور على أثينا إلى موانى إيطاليا.

وطريق الحرير البحري هو ونظيره في المحيط، يشمل إنشاء شبكة من الموانى البحرية في بحر الصين الجنوبي، المحيط الهندي وجنوب المحيط الهادي. وسوف يربط جنوب شرق آسيا، الأوقيانوس، شرق وشمال إفريقيا عبر البحر المتوسط. وتسيطر الشركات الصينية المملوكة من الدولة على موانى صينية الصنع في المحيط الهندي بسريلانكا وباكستان وغيرهما من موانى قيد الإنشاء في ميانمار وبنجلاديش، الأمر الذي سيساعد الصين على تحقيق استراتيجيتها البحرية المتمثلة في سلسلة اللآلئ الممتدة من ساحلها إلى مدينة بور سودان السودانية في إفريقيا. وتقيم الصين مرافق موانى في كينيا، تنزانيا، الجابون وجيبوتي. وتشترك الصين في إنشاء ميناء لاموميجا في كينيا، ميناء باجامويو في تنزانيا، ميناء سانتا كلارا للمياه العميقة في الجابون.

وترغب الصين فى تطوير المنطقة من غرب الباسيفيك إلى بحر البلطيق، وستقدم لأكثر من 65 دولة تقع على طريق الحرير دعم تكنولوجي ومادي ولوجيستي.

***

الفصل الخامس

القوى الروسية غير المكبوحة

«روسنة» في مقابل «أمركة»

المساعي الروسية لتغيير بنية النظام الدولي السائد أو تعديلها، بدأت تتخذ بعد عميق مع الجذور الهيكلية لفلسفة النظام القائم، عبر تقديم إطار مرجعي فلسفي جديد لهذا النسق الدولي المتغير. لحظة تاريخية لموسكو تدشن معها متغير بارز في المشروع الروسي البديل لعالم جديد، ولكن قبل ذلك نراجع الأحداث بداية ونرتبها زمانيًّا ودلاليًّا لفهم هذه المواجهة العميقة، ففي 2011 كان الفيتو الروسي في مجلس الأمن إيذان بتعطيل الأداة السياسية للأمركة كنظام دولي بعد 1991. وفي العام 2014 مثلت استعادة روسيا للقرم الرؤية الجيوسياسية الروسية، وفي 2015 كان الدخول الروسي إلى سوريا هو قرار مواجهة مع الأطلسي ناهيًّا حقبة التفرد العسكري، وفي ذات العام تم تشكيل بنك التنمية الجديد المنبثق عن فضاء شنغهاي، كإجراء متقدم في المواجهة مع النظام المالي الدولي، والذي يُعد العمود الفقري للنظام العالمي الجديد، الأمر الذي يعني دخول روسيا في مواجهة مع النظام الدولي على عدة مستويات جيوسياسية، وهى المواجهة الأولى، واقتصادية/ مالية وهى المواجهة الثانية، ولكن هذا لا يعني أن روسيا نجحت في التحول إلى قطب دولي بمشروعها الأوراسي، ولكن من الصعوبة إثبات العكس، فروسيا تقدم نفسها كنموذجٍ جديد في العلاقات الدولية، مستغلة عاملين رئيسين: الأول- هو ضعف الأمركة كنظام سياسي واقتصادي، والعامل الثاني- هو تهدم الأيديولوجيات الكبرى في الغرب في مرحلة مابعد الحداثة والتشكيك بمقولاتها الكبرى.

أما بالنسبة للعامل الثاني- انهدام الأيديولوجيات فهو أتى نتيجة إشكاليات المجتمع الغربي مابعد الصناعي وأهمها الضعف"الروحي" الذي حدث في المرحلة الحداثية، وستكون مرتكز عولمة روسية – إن جاز تسميتها- نتيجة لدخول العالم عصر مابعد العولمة الراهن، أي عالم مابعد الأمركة كنظام مهيمن دوليًّا، ومع النجاحات المبدئية الروسية على مستويات المواجهة الثلاث مع الأمركة وذراعها العسكرية الأطلسي

والمالية البنك الدولي، بدأ النموذج الروسي البديل يزداد تبلور في عالم العولمة ذاته وبذات الأدوات التقليدية للعولمة «الثورة الرقمية- الاتصالات»، ولكن لغايات معاكسة.

ومرتكزات هذه العولمة البديلة «روسية» في مواجهة «الأمركة»: المشروع الروسي لعالم متعدد الأقطاب مجسد بالنزعة الأوراسية، ينطلق من أساس ثابت شرطي وهو قدرة روسيا على إنتاج رؤية ثقافية لذاتها، عبر إعادة إنتاج الوعي الروسي، ليغدو الإنسان الروسي كائن انطولوجي يأخذ كينونته من ذاته الروسية بروحها الأوراسي وليس من المرجعية الغربية، وهذا يتطلب أن تنتهج روسيا ليبرالية محافظة تتماشى مع الخصائص الروسية، ووحدها الفلسفة الأوراسية وعبر العولمة كنظام عالمي راهن يمكن أن تنتقل إلى بقية الشعوب في مواجهة الأمركة.

فكرة العولمة مرتبطة بمفهوم العالمية وأي ثقافة تخرج من إطارها الوطني والقومي إلى مجالها العالمي، يمكن أن تتحول إلى ثقافة المركز بالنسبة لهذا العالم المعولم، وهو ما يعول عليه الروسي، فالفكرة الروسية للروسنة وإقامة النظام العالمي بصيغته الروسية يقوم على تجاوز خطايا الحداثة الأوربية، وتصحيح مسارها بإعادة الروح إلى الفرد والفرد إلى الجماعة[1]، وتفكك فكرة التقدم الحصرية الاتجاه في الثقافة الغربية، لتفتح الأفق لتعددية معرفية، ما بعد حداثية وما بعد بنيوية، قائمة على فكرة تصدير مفهوم الهوية القومية والحضارية للشعوب عبر أدوات التثاقف الدولي بما فيها أدوات العولمة نفسها، بما يتيح إنهاء مفهوم صدام الحضارات وهو أحد الأسس الفلسفية للأمركة كنظام للعولمة، أي أن جوهر العولمة الروسية "الروسنة" هو معاكسة الجذر الأمريكي للعولمة وهو تجاوز الهويات الوطنية لسبب بسيط هو فقدان الولايات المتحدة الهوية الحضارية فأتى النموذج الروسي ليعيد بناء هذا الجذر كأساس للعولمة المعاكسة، عولمة تقوم على تعددية حضارية.

وفلسفة العولمة الروسية البديلة تستغل ذات السياق المعولم لإعادة تشكيل البنية الثقافية للنظام الدولي من خلال مكونات ثقافتها القومية الجديدة "الروسنة"، والتي

(1) للمزيد كتاب من التحول الديمقراطي إلى الديمقراطية الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2018.

تعمل النخبة السياسية الروسية وعبر أدوات القوى الناعمة على ترسيخها في العلاقات الدولية، والتي يمكن إجمالها بإطار عام وهو إعادة بناء المرجعية الفلسفية للنظام الدولي أي إعادة بناء الأيديولوجية الليبرالية بطابع ليبرالي جديد وإعادتها إلى الليبرالية المحافظة، أي تقويض الأساس الاقتصادي القائم لهذه العولمة مع المحافظة على القيم السياسية كالحرية والديموقراطية، ولكن مع اختلافات جذرية في الرؤية إلى العلاقات الدولية تتأسس هذه الرؤية من الطبيعة الفوضوية للنظام الدولي. ويمكن إجمالها برؤيتين الأولى- أولوية الاستقرار على الديموقراطية في حل النزاعات الدولية أي تحويل الاستقرار إلى القيمة المركزية التي يجب الدفاع عنها في العلاقات الدولية وليس نشر الأنظمة الديموقراطية عبر الحروب وخلق الأزمات.

الرؤية الثانية- وهى اعتبار القانون الدولي هو المعيار الأساسي لإدارة العلاقات الدولية بشرط تحرره من الانحياز الأيديولوجي لليبرالية الغربية، هذا وتعتبر النظرية الرابعة لالكسندر دوجين بمثابة المرجعية الفكرية لنظام العولمة الروسي البديل الذي يؤمن بعالم تعددي وأخلاقي؛ عالم يعترف بالشعوب الأخرى وبحريتها بعيدًا من قيم المركزية الغربي.

اختبار الفرضيات وتقديم النموذج قد يبدو مؤتمر سوتشي للحوار السوري حلقة متصلة في سلسلة مترابطة من الحلقات لما يسمى مسار الحل السياسي، التي تعددت حلقاته بدءًا من سياق جينيف وفيينا ولوزان وصولًا لسوتشي، وهذا التوصيف هو صحيح شكلًا، ولكن في العمق ثمة أبعاد أعمق لما تبدو عليه الصورة، فالإصرار الروسي على عقد المؤتمر هو حدث ذو دلالة موضوع وزمن، فالصورة المرئية لهذا المؤتمر هى انعكاس لواقع أشد تعقيد من حيثيات الأزمة السورية رغم تعقيداتها، إنها المواجهة الروسية مع "الجذر العميق للنظام الدولي" وهى بنية الأفكار وأيديولوجية الوجود لهذا النظام، فروسيا تحاول تصدير نموذجها الأخلاقي المعولم لعالم متعدد القطبية قائم على الاستقرار والهوية الوطنية واحترام القانون الدولي، حيث يُعاد إلى الشعوب مركزيتها في مسارات الأحداث التي تعصف ببنى النظام.

أهمية مؤتمر الشعب السوري في سوتشي ليست في قدرته على ابتداع حل فوري لأزمة معقدة، بل أهميتها في انعقاده، التي تعني عودة الثقة إلى الثقافة القطبية الروسية في إدارة الأزمات التي تهدد النسق الدولي، بعد أن انتهت فعليًّا بسقوط الاتحاد السوفييتي السابق[1]، ومن الشعارات التي رفعتها روسيا لعقد هذا المؤتمر هى ذات الرؤية الروسية للروسنة كنظام معولم أي السيادة وحق الشعوب في تقرير مصيرها والقانون الدولي كأساسٍ واطار لحل داخلي للأزمات يتبنى "الديموقراطية السيادية" وهى أحد أركان النموذج الروسي الذي يراد تصديره للعالم.

والديموقراطية السيادية تعني تبني الديمقراطية كنموذجٍ دولتي بدون السماح للقوى الخارجية "دولية وإقليمية" بأن تتدخل فيها، عن طريق جمعيات ديمقراطية تراقب نزاهة الانتخابات، أو عبر مراقبين، أو حتى الأمم المتحدة ذاتها سواء استطاع المؤتمر تحقيق اختراق في العملية السياسية لسورية أو تم عرقلة مخرجاته، إلّا أنه في الحالتين مؤتمر مفيد لأنه يؤسس لنموذج جديد في حل الأزمات قائم على حصر نطاق القوى الفاعلة في الأزمات في إطار الداعم للحل المتفق عليه داخليًّا وليس المؤسس له وفق مصالحه فقط.

وهو بالطبع ما سيدفع قوى العولمة الليبرالية الجديدة إلى فشل هذا المؤتمر وعدم السماح لانعقاده ثانية أو عقد مؤتمرات مشابهة له في أزمات أخرى، لذاك يمكن القول ان نجاح روسيا في تقديم نموذجها مرتبط بقدرة روسيا على عقدة ثانية بغض النظر عن المكان.

***

(1) وهو ما يجب أن تفعله مصر في محيطها وقارتها.

العالم في الصياغة الروسية الجديدة

تَعتبر روسيا أن دول أوربا أصبحت تدرك هويتها المشتركة وخطوة تحركت نحو إدماج جميع أمتها إلى اتحاد مشترك قادر على ضمان السيادة الكاملة والأمن والحرية لنفسها وجميع أعضائها. وفي الحقيقة إنشاء الاتحاد الأوروبي أهم حدث ساعد أوروبا على استعادة مكانتها كقوة عالمية جنبًا إلى جنب مع الولايات المتحدة. كما كان بمثابة رد فعل العالم على مستوى التحدي المفرط. وإذا نظرنا إلى تحالف الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وموجة التنمية الأوروبية الأطلسية، والتكامل الأوروبي تحت رعاية ألمانيا وانجلترا وفرنسا، فإن هذا الإتحاد يصبح أكثر وضوح إذا ما أخذنا في الاعتبار نظرية أوروبا من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال " تشارل دي جول وفلاديفوستوك".

من المثال السابق وفي هذا السياق يعتبر الروس "الأوراسية" كمشروع تكامل ستراتيجي، جيوسياسي واقتصادي لشمال القارة الأوروبية الآسيوية والذي يرتبط تاريخيًّا بالتوازي مع تركيا وروسيا "وعلى حد سواء مع أسلاف الأوروبيين" ومع تركيا ومنغوليا وأمم القوقاز. ومن هنا روسيا تعمل على إدماج بعض أوروبا وأوراسيا في كل من الحواس والرمزية والجغرافية. وخلال القرون القليلة الماضية، تم طرح فكرة التكامل الأوروبي من قبل فصيل ثوري من النخب الأوروبية في العصور القديمة، فقد كانت هناك محاولات مماثلة من قبل الإسكندر الأكبر "التكامل في القارة الأوروبية الآسيوية" وجنكيز خان مؤسس أكبر إمبراطوريات التاريخ.

ويمكن تقسيم أوراسيا إلى ثلاثة فضاءات معيشة كبيرة ومتكاملة عبر الأحزمة، أو ثلاثة أحزمة أوروبية آسيوية "مناطق ميريديان". والتخطيط الروسي المستقبلي للدول الأوروبية الآسيوية يفترض تقسيم الكرة الأرضية إلى الأحزمة الجغرافية العمودية الأربعة"مناطق ميريديان" من الشمال إلى الجنوب، أولهم كلتا القارتين الأمريكيتين

اللتان تشكل مسافة واحدة مشتركة وموجهة تسيطر عليها الولايات المتحدة في إطار "مبدأ مونرو"، وهذا هو خط الطول الأطلسي للمنطقة، وثانيهم التخطيط للثلاثة الآخرين كما يلي:

1 – أوروبا وافريقيا مع الاتحاد الأوروبي وسطها.

2 – منطقة وسط روسيا وآسيا

3 – منطقة المحيط الهادي.

والتقسيم الإقليمي هذا يهدف إلى إنشاء مناطق تنموية وممرات للنمو تأخذ مكان كل هذه الأحزمة "مناطق ميريديان " موازية بعضها البعض، وهم جميعًا في موازاة منطقة خط الطول الأطلسي. في المستقبل قد تكون هذه الأحزمة الأساس الذي يُبنى عليه عالم متعدد الأقطاب، لكن عدد الأعمدة سيكون أكثر من إثنين وسيكون عدد أقل بكثير من عدد الدول القومية الحالية.

والنموذج الأوروبي الآسيوي يقترح أن عدد الأعمدة يجب أن يكون أربعة وبمساحات كبيرة، فمناطق ميريديان في المشروع تتكون من أوراسيا "فضاءات عظمى عدة" أو "الإمبراطوريات الديمقراطية"، وجميعها تمتلك الحرية النسبية والاستقلال، ولكن يتم الدمج في منطقة ميريديان المقابلة استراتيجيًّا. والمساحات الكبرى تتوافق مع حدود الحضارات وتشمل العديد من الدول القومية، كالاتحاد الأوروبي والفضاء العربي الكبير الذي يجمع بين شمال إفريقيا عبر الصحراء والشرق الأوسط وأوروبا وافريقيا.

ويتم تشكيل منطقة آسيا الوسطى الروسية من قبل ثلاثة فضاءات كبرى تتداخل أحيانًا ببعضها البعض، وهى:

1 – الاتحاد الروسي جنبًا إلى جنب مع العديد من بلدان رابطة الدول المستقلة – أعضاء في الاتحاد الأوروبي الآسيوي.

2 – مساحة كبيرة للإسلام أوروبي «تركيا – إيران – أفغانستان – باكستان». ورابطة الدول الآسيوية المستقلة تتقاطع مع هذه المنطقة.

3 – الفضاء العظيم «هندوستان»، وهو القطاع الحضارى الذي يعتمد على الذات.

ويتم تحديد منطقة محيط مريديان حسب البناء وفي مسافتين كبيرتين بين الصين واليابان وأيضًا إندونيسيا، ماليزيا، الفيليبين وأستراليا، «لكن بعض الباحثين يريدون توصيله مع خط الحزام الأمريكي». وهذه المنطقة الجيوسياسية هى فسيفساء يمكن أن تكون متباينة جدًّا وفقًا لمعايير عديدة. ومنطقة خط الطول الأمريكي تتكون من المساحات الأمريكية الأمريكية والكندية «الوسطى وأمريكا الشمالية».

وأهمية المنطقة الرابعة هى قبول هيكل على أساس أن مناطق العالم تتكون من الأحزمة الجيوسياسية. وهنا سيجد معظم الأمريكيين الذين يسعون لإنشاء النظام العالمي الجديد وستمرار أحادية القطب وجود حجر عثرة، وهو وجود مساحة روسية مركزية «ميريديان الآسيوية»، وبالتالي وجود هذا الحزام سيعتبر تغيير جذري في الصورة الجيوسياسية للعالم.

أما التقسيم الأطلسي، فهو تقسيم العالم إلى ثلاث مناطق، هى:

1 – القطب الأمريكي مع الاتحاد الأوروبي وأطراف من مسافات قريبة «كدول اليورو وفريقيا».

2 – مناطق آسيا والمحيط الهادي والمحيط بعيد المدى في.

3 – روسيا وآسيا الوسطى، باعتبارها منطقة ميريديان مستقلة. ومنطقة ميريديان تشارك في توازن الضغط الأمريكي، وتوفر القدرة للمناطق الأوروبية والمحيط الهادي لعمل أعمدة الحضارة التي تعتمد على الذات، التوازن الحقيقي متعدد الأقطاب، الحرية، استقلال الأحزمة ومساحات كبيرة. وعلاوة على ذلك، هذا لا يكفي روسيا أن تكون قطب واحد في نموذج كان ثنائي القطب في العالم، كما يمكن أن يقابل التقدم السريع للولايات المتحدة قبل التآزر بين جميع مناطق ميريديان الثلاثة.

ويقترح مشروع المنطقة الأوراسية أربعة مشاريع فائقة على مستوى استراتيجي جيوسياسي. كما أن المنطقة الأوراسية الروسية ستكون هى مركز التكامل الآسيوي. والقضية المركزية لهذه العملية هى تنفيذ "محور موسكو طهران"، فالتكامل يعتمد على إنشاء ناجح لاستراتيجية وشراكة طويلة الأمد مع إيران. فإيران وروسيا لديهما الإمكانات الاقتصادية والعسكرية والسياسية وستزيدا معًا عملية تكامل المنطقة، مما يجعل المنطقة لا رجعة فيها. ومحور موسكو طهران سيكون أساس لمزيد من الإندماج، فتحقق كل من موسكو وإيران الاكتفاء الذاتي القادر على خلق النموذج الاستراتيجي التنظيمي الخاص بالمنطقة.

أما الخطة الأوراسية لأفغانستان وباكستان، فنقل التكامل مع إيران أمر في غاية الأهمية بالنسبة لروسيا للوصول إلى المياه الدافئة والموانى، وكذلك لإعادة التنظيم السياسي للدين في آسيا الوسطى "الدول الآسيوية في رابطة الدول المستقلة، أفغانستان، باكستان"، التعاون الوثيق مع إيران يفترض هذا التحول. أما المنطقة الباكستانية الأفغانية فمشاركتها في اتحاد إسلامي موالي لموسكو يساوي التعاون مع إيران. والسبب في هذا هو هو أن الدول المستقلة وأفغانستان وباكستان ستكون مصدر مستمر لزعزعة الاستقرار وتهديد دول الجوار وسوف توفر جيوسياسية المنطقة القدرة على تنفيذ مركزية جديدة لاتحاد آسيا وتحويل هذه المنطقة المعقدة إلى حالة من التعاون الإزدهار.

يجب التحرك نحو آسيا الوسطى للإندماج في كتلة موحدة واستراتيجية اقتصادية مع الاتحاد الروسي في إطار الاتحاد الأوروبي الآسيوي، خلفًا لرابطة الدول المستقلة. وتتمثل المهمة الرئيسية لهذه المنطقة المحددة في التقارب بين روسيا وبلدان الإسلام القاري "إيران وباكستان وأفغانستان". قطاع آسيا الوسطى لديه ناقلات مختلفة من التكامل وخطة واحدة تجعل الاتحاد الروسي الشريك الرئيسي نتيجة التشابه في الثقافة والمصالح الاقتصادية والحيوية، وهو نظام موحد للأمن الاستراتيجي. كما يجب وضع خطة أخرى كوضع لهجة تركز على التشابه العرقي والديني "التركي، الإيراني".

كما يمثل محور موسكو ديلهي، التعاون الروسي الهندي، وهو ثاني أهم محور بعد

ميريديان في التكامل بالقارة الأوروبية الآسيوية وأنظمة الأمن الجماعية. موسكو سوف تلعب دور هام في خفض حدة التوتر بين إسلام أباد وديلهي "قضية كشمير". والخطة الأوروبية الآسيوية للهند برعاية موسكو، هى إنشاء الاتحاد الذي من شأنه أن يعكس تنوع المجتمع الهندي مع العديد من الأقليات العرقية والدينية، بما في ذلك السيخ والمسلمين.

وتعتبر موسكو أن انقرة هى الشريك الإقليمي الرئيسي في عملية التكامل بآسيا الوسطى، ففكرة الأوروبية الآسيوية أصبحت بالفعل شعبية بسبب الاتجاهات المتداخلة بين الغربية الشرقية. وتركيا تقر بخلافات حضارتها مع الاتحاد الأوروبي من حيث أهدافها ومصالحها الإقليمية والتهديد والمزيد من الخسائر في السيادة. ولا بد لتركيا استراتيجيّا إقامة شراكة استراتيجية مع الاتحاد الروسي وإيران، وستكون تركيا هنا- وفق الخطة الروسية- قادرة على الحفاظ على تقاليدها في إطار من عالم متعدد الأقطاب، خاصة فصائل معينة من المجتمع التركي من السياسيين والنخب الدينية إلى الاشتراكيين والعسكرية. ولكني أرى أن محور موسكو أنقرة لن يصبح حقيقة جيوسياسية واقعية.

أما منطقة القوقاز، فهى الأكثر إشكالية للتكامل الأوراسي أو لفسيفساء الثقافات والأعراق، وستؤدي إلى التوترات بين الدول، فهذه هى واحدة من الأسلحة الرئيسية المستخدمة من قبل أولئك الذين يسعون لوقف عمليات التكامل عبر القارة الأوروبية الآسيوية. ويسكن منطقة القوقاز أناس منتمون إلى دول مختلفة وحضارات مختلفة، وبالتالي يجب أن تكون هذه المنطقة مضلع لاختبار أساليب مختلفة من التعاون بين الشعوب، وذلك لأن ما لا يمكن أن ينجح هناك لا يمكن أن ينجح في جميع أنحاء القارة الأوروبية الآسيوية. والحل لهذه المشكلة الأوروبية الآسيوية لا يكمن في خلق العرقية القائمة على الدول أو تعيين أمة واحدة في دولة واحدة بدقة، ولكن في وضع اتحاد مرن على أساس الاختلافات العرقية والثقافية في سياق الاستراتيجية المشتركة للمنطقة. وهذه الخطة يمكن أن تكون محور منصف بين موسكو والمراكز القوقازية، «موسكو وباكو، يريفان، تبيليسي موسكو، موسكو جروزني..إلخ» وبين مراكز القوقاز روسيا حلفاء ضمن مشروع أوراسيا «باكو وأنقرة، يريفان، طهران..إلخ».

المنطقة الأوراسية بين استراتيجيات روسيا وأمريكا

من مميزات سياسات الدول الكبرى التخطيط الاستراتيجي الذي يتميز بطول الزمن واتساع النطاقات وبعد الأفق وعمق التقييم، عندما يتعلق الأمر بمصالحها القومية، سواء الأمنية أم الاقتصادية فيما تغرق هذه الدول، الدول النامية وتلك التي في طور النمو، في أوحال أزمات محدودة، فتبدو هذه الأزمات وكأنها كل القصة، فالأزمة في منطقتنا- كمثال- ما هى إلا تفاصيل في خارطة استراتيجية كبرى للدول اللاعبة، وأن كثير من الرؤساء أو الملوك ما هم إلا بيدق على "رقعة الشطرنج الكبرى"، فأوراسيا "أوروبا- آسيا" ستشكل مكمن التحدي السياسي والاقتصادي في سيطرة الولايات المتحدة على العالم، فقوة أوراسيا تفوق قوة أمريكا.

وأوراسيا باتت مشروع وأحد اتجاهات الفكر الاجتماعي والسياسي في روسيا وفي جمهوريات آسيا الوسطى، واللافت أن الجغرافيا الأوراسية يمكن تقسيمها إلى قلب قاري هو روسيا، ولها امتداد بري يتجاوز 17 مليون كم2، وإلى هلال كبير من الدول الساحلية، وتشمل أوروبا وشبه الجزيرة العربية والعراق وآسيا الوسطى وإيران وأفغانستان والهند وجنوب شرق آسيا والصين وكوريا، وكل هذه الدول لها مكانتها الجيوسياسية، ولديها إمكانات اقتصادية مهمة. ومنذ الحرب العالمية الثانية تشكل المنطقة الأوراسية " منطقة الإرتطام" في تنافس القوى الدولية الكبرى للسيطرة على العالم.

وتمتد أوراسيا من حدود أوروبا الغربية على المحيط الأطلسي حتى ضفاف الصين وروسيا على المحيط الهادي في الشرق. وتضم أوراسيا ثلاثة أرباع مصادر الطاقة في العالم، وهى أكبر قارات العالم، وفيها معظم ثرواته وفيها ست دول ضخمة اقتصاديًّا وعسكريًّا، والدولتان الأكثر سكان هما الصين والهند، والدولة الأكبر مساحة وهى روسيا 17.1 مليون كلم2. وأوراسيا ليست جغرافية وحسب، فقد باتت أيديولوجيًّا

تجتاح روسيا، وصارت "موضة" فكرية تجمع حولها الحالمين بتحدي السيطرة الأمريكية في العالم، والذين لم ينسوا قط الإمبراطورية القيصرية، وأمجاد الاتحاد السوفيتي القوة المناوئة للقوة الأمريكية.

ويمكن اعتبار دخول السوفييت أفغانستان 1979، كان استدراج أمريكي للسوفييت، حيث تم استنزافهم بقوى محلية أفغانية مدعومة أمريكيًّا، طوال عشر سنوات. إلى أن أتت الفرصة للأمريكيين، فتفكك الاتحاد السوفيتي إلى دويلات مستقلة في شرق أوروبا وشمالها ووسط آسيا. عمل الأمريكيون على تقديم إغراءات اقتصادية للدويلات الوليدة لاستقطابها، وبناء قواعد أمريكية فيها، وحث هذه الدول للانضمام إلى حلف الناتو، في محاولة لتطويق الروس ومنع قيام اتحاد جديد يستفيد من المزايا الكثيرة للمنطقة الأوراسية. وما حدث وعقب تفكك الاتحاد السوفيتي ساد المجتمع الروسي ما يُسمى بأطلسة روسيا، أو الأطلنطية في مقابل الأوراسية، حيث سادت القيم الغربية، وخصوصًا الأمريكية، وهو ما اعتبره الأوراسيون خطر قاتل لروسيا، وهم الذين عجزوا عن اتخاذ المبادرة وملء الفراغ بعد انهيار الماركسية.

وفي 1994 أعلن الرئيس الكازاخستاني نزار بابيف بدء مشروع اتحاد دول أوراسي، وفق مبادئ أربعة:

1 – المنفعة الاقتصادية.

2 – التكامل المتعدد الجوانب.

3 – توحيد المنظمات السابقة لإقامة الاتحاد.

4 – توحيد البلدان تبعًا لجهوزية كل منها.

منذ ذلك الوقت تحولت الأوراسية من مجرد نظرية استراتيجية إلى تطبيق سياسي له فكر وأيديولوجيا. وأظهر أن الفكر الأوراسي سفينة النجاة المرتجاة للمجتمع الروسي الذي صحت أوساط واسعة فيه على مخاطر الأطلسة لروسيا، كما دغدغت الأوراسية أحلام دول في آسيا الوسطى، وللتكتل من جديد الاستقواء أمام الهجمة الأمريكية الساحقة في

العالم. والاستقواء هنا جزء من الاستقواء السياسي أو العسكري والاقتصادي، فالمسألة تتجه إلى حيازة الموارد، وأي اتحاد أوراسي يمكن أن يتشكل سيكون اتحاد غني بالموارد الطبيعية والبشرية والتكنولوجية والصناعية والزراعية. ولو تحقق الاتحاد الأوراسي فإنه يملك أنهار يبلغ طولها عشرة ملايين كم، تعطي أكثر من 3 آلاف مليار متر مكعب من المياه سنويًّا، ما يفسح المجال واسع أمام الزراعة وتأمين الغذاء وكسر احتكار الولايات المتحدة للقمح في العالم. وتغذي روسيا أوروبا الغربية بثلث احتياجاتها من النفط. ويمكن أن يصبح الاتحاد قوة اقتصادية عظمى مع توفر الإمكانات النفطية الكبرى لدول مثل كازاخستان. ولئن تطلع الأوراسيون إلى القوى والمنافع الاقتصادية والجيوسياسية للاتحاد الأوراسي، فإن لديهم تعقيد فكري تاريخي للطرح الأوراسي، إنه الأيديولوجية بالمعنى الصحيح والحقيقي/ الإمبريقي. فمفكرو الأوراسية يشيرون إلى الأطلنطية مقابل الأوراسية في السياسة والاقتصاد والثقافة، ولهم رأي في الحضارة الغربية، فهم يرون أنها راكدة ومتلاشية وكل محاولات التجديد والتحديث فيها يقود إلى مزيد من الفشل والتعقيد والأزمات في حياة المجتمعات الغربية. والأوراسية ليست يمينية ولا يسارية، وليست هى ليبرالية أو اشتراكية، إنها وحدة شعوب أوراسيا في دولة- قارة تتفاعل حضاريًّا. وتؤمن الأوراسية بما تسميه "التعقيد المزهر" وهو التنوع العرقي الذي يُغني ويزهر، ويخصّب المجتمع الروسي بإثنيات تتشارك في بناء الدولة الروسية بالمعنى المحدد، والدولة والقارة الأوراسية.

ويعتبر الفكر الروسي للمنطقة الأوراسية أن روسيا الممتدة في آسيا وأوروبا هى محور التاريخ، وتدور الحضارة حوله أو حول روسيا مكتسبة طاقة مستدامة. وتتخذ الأوراسية موقف من الغرب والأمريكيين بالذات ويبادلها الأمريكيون موقف الخصومة، حيث لهم رؤيتهم الأوراسية الخاصة، بعمنى أوراسيا أفضل بالنسبة للأمريكيين باعتبار أن روسيا غير موجودة أو روسيا المحطمة التي يستغلها جيرانها.

ومنذ أن طرح الرئيس الكازاخستاني بدء مشروع اتحاد دول أوراسيا بدت الفكرة صعبة التطبيق لأسباب عديدة خاصة المادية والقومية والثقافية، وقد عقدت ندوات

ومؤتمرات واتسعت دوائر الدعوة إلى المشروع، وظهر الرئيس البيلاروسي "الكسندر لوكاشينكو" داعي إلى اتحاد أوراسيا. وبدأت ملامح التطبيق بصورته الأولية، فتأسس اتحاد روسيا وبيلاروسيا، ثم منظمة شنغهاي والتي تضم روسيا والصين وكازاخستان وقرغيزيا وأوزبكستان وطاجاكستان وتحظى بصفة شريك في الحوار سريلانكا وبيلاروسيا. وتضم هذه المنظمة إثنتين من دول العالم الرئيسية وهما روسيا والصين، وهو ما أثار مخاوف الدول الغربية، فدول مهمة أخرى تدور في فلك المنظمة مثل إيران، الهند، أفغانستان وبكستان، وقد مكنت المنظمة من الجمع بين روسيا والصين، متجنبة منازعات بينهما في آسيا الوسطى.

وطلبت المنظمة في 2005 من واشنطن تحديد مدة بقائها في آسيا الوسطى، ولكن بدون أي إنذار إلى واشنطن مما أزعجها واعتبرته رد روسي على الانتفاضات التي حدثت في جورجيا، أوكرانيا، قرغيزيا وأوزباكستان، بل والمفارقة هى أن لدى أعضاء منظمة شنغهاي علاقات واسعة بواشنطن وهى لا تعاديها، وربما في هذا السياق تم تعليق طلب إيران للانضمام إلى المنظمة. وقيام منظمة شنغهاي تدل على إعادة ترتيب للقوى الدولية في العالم، وهذه المنظمة تلوح بشكل مستقبلي بضرورة مراعاة الأمريكيين مصالح روسيا والصين في العالم.

ولكن يحتاج أعضاء منظمة شنغهاي إلى مزيد من الوقت، ففيما ترى الصين أن أولوياتها الأساسية في علاقاتها الدولية هى المصالح والنفوذ الاقتصادي فإن روسيا تعطي الأولوية للمسائل العسكرية والسياسية. وقد اتخذ المشروع الأوراسي زخم جديد مع وصول بوتين إلى الرئاسة فأكد بوتين أنه لن يكون للاتحاد الأوراسي وضعية الاتحاد السوفيتي بالمعنى الاستتباعي، بل المساواة والسيادة لكل دولة. إنه مشروع للتكامل الجديد ولتطوير علاقات روسيا مع إيران وتركيا، خاصة وأن مصالح مشتركة تجمع بين هذه الدول، فمشروع الاتحاد الأوراسي ليس غريب عن إيران وتركيا وسائر دول آسيا الوسطى، فهى على علم به وتدور حوله نقاشات ودراسات كثيرة، ولا شك أن حصول الاتحاد بين دول مختلفة الثقافة واللغة والحضارة في أوروبا "الاتحاد الأوروبي"

شكل حافز لروسيا وغيرها إلى تحقيق هذا المشروع. وفي 2000 أكد بوتين أن روسيا هى دولة أوراسية، وهذا التعبير يحمل برنامج سياسي واقتصادي وثقافي واجتماعي لمستقبل روسيا، وقد بادرت روسيا 2011 إلى توقيع الاتحاد الجمركي مع بيلاروسيا وكازاخستان، وكان قد تم التوقيع على اتفاقية الأمن الجماعي بين روسيا وأرمينيا وبيلاروسيا وكازاخستان وقرغيزيا وطاجاكستان وأوزبكستان. فالفضاء الأوراسي المشترك بين بيلاروسيا وكازاخستان وروسيا سيبدأ فعليًّا، وستلغى التأشيرات بين هذه البلدان بعد أن ألغيت الإجراءات الجمركية وربما يتم اعتماد عملة موحدة على غرار الاتحاد الأوروبي، فهذا الاتحاد تكامل على أساس قيمي وسياسي واقتصادي، ويقترح وحدة عابرة وقوية للقوميات من شأنها أن تصبح أحد أقطاب العالم في المستقبل.

في ذات الوقت لا نرى غفلة أمريكية عن أهمية أوراسيا، فهذا الأمر لفت انتباه الأمريكان منذ 1944، وقد يسعى الأمريكيون في العمل على ثلاثة خطوط:

1 – خط تفكيك أي تكتل يقوم، أو يمكن أن يؤشر لأوراسيا مضادة لسياساتها في المنطقة.

2 – اجتذاب جمهوريات آسيا الوسطى بإغراءات اقتصادية لإبعادها عن أي تكتل معاد.

3 – عمل تكتل أوراسي أمريكي شبيه بمشروع مارشال لأوربا.

وستعمل الولايات المتحدة على حرمان روسيا من ثلاث دول ركائز جيوسياسية مهمة بحكم موقعها الجغرافي ومواردها الطبيعية وهى أوكرانيا، أوزبكستان وأذربيجان، فأوكرانيا تطل على البحر الأسود المؤدي إلى المضائق التركية وأي وجود أمريكي في أوكرانيا سيمنع روسيا من نشر أساطيلها مؤثرة بذلك على أوروبا وآسيا. وستظهر الأهمية البالغة لأوزبكستان في آسيا الوسطى، حيث تشكل مركز الدائرة في آسيا الوسطى، وهى دولة غنية بإمكاناتها الهيدروليكية والزراعية، فيما تطل أذربيجان على بحر قزوين وهى مجاورة لروسيا. والوجود الأمريكي في أوكرانيا وأذربيجان هو وجود على البحر الأسود الذي يعتبر منفذ لروسيا على البحر، فالوجود الأمريكي على بحر

قزوين أو مستودع البترول في آسيا الوسطى يمكنها من الوضع ضد الروس. وستعمل الولايات المتحدة على التواجد في العمق البري لآسيا الوسطى خاصة في أوزبكستان. ستوثق أمريكا علاقتها بألمانيا وفرنسا، من أجل بناء أوروبي مرتبط بها وبدون بناء أوروبي لا يمكن بناء منظومة تعاون أوراسي- أطلنطي وهو الخيار الأفضل والأهم للإدارة الأمريكية في مواجهة أي استيقاظ للطموح الروسي تجاه أوروبا الوسطى. كما أن التعدديات الجيوسياسية في المنطقة الأوراسية وبقاء خطوط التماس العقائدي بين الدول مهم لمنع قيام تحالف كيانات معادية للولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه سيبحث الأمريكيون عن شركاء استراتيجيين لبناء نظام أمني أوراسي أطلنطي.

***

الفصل السادس

الخرائط الاستراتيجية للإتحادات القارية

رغم كل الخطط والاستراتيجيات العابرة للقارات، إلّا أن الاتحادات القارية والشركات العابرة هى الأقوى والأكثر دعم دوليًّا، نظرًا لكون الأولى تقع في مقدمة مخططات أنظمة العالم، والثانية في مقدمة استراتيجيات الشركات متعددة الجنسيات.

وأدعو الإتحادات الرياضية العالمية"الفيفا" والقارية للتعاون المشترك عالميًّا لإقامة مسابقات رياضية تتنافس فيها منتخبات قارات الأرض/ الكوكب كإقامة "كأس القارات" التي يتنافس فيها منتخب قارة أفريقيا ومنتخب قارة أوربا ومنتخب قارة آسيا ومنتخب قارة أمريكا الشمالية ومنتخب قارة أمريكا الجنوبية ومنتخب قارة أستراليا، والفائز بالكأس يلاقي منتخب العالم/ الأرض على "كأس الأرض" في مباراتين. ويتم تغيير مسمى كأس القارات لكرة القدم ليصبح "كأس أبطال القارات".

فيدرالية فرنسية أم سيطرة ألمانية؟

عدم وضوح الرؤية حول مستقبل منطقة اليورو سائد في القارة، فالتوتر في مؤسسات الاتحاد حاضر بقوة والخلافات بين زعماء بلدان محورية في الاتحاد الأوربي موجودة وتتزايد في أحيان كثيرة، فالعلاقة التي تجمع الرئيس الفرنسي والمستشارة الألمانية قوية، لكن التطابق حول مستقبل أوروبا لا يزال غائب بينهما وبين كل دول الاتحاد.

الشعبويون واليمينيون في أوروبا يروجون لسلوكياتهم الانفصالية وخروج واحدة من أكبر البلدان الأوروبية من الاتحاد يعني انه يواجه مشكلات كبيرة وربما غير ملائم للمرحلة المقبلة. وقد صار الخطاب اليميني الأوروبي لا يتناول إلا الأزمات والفجوات في الاتحاد الأوروبي والمطالبات بالإنسحاب، بل بلغ الأمر أن انضم انفصاليون أوروبيون إلى حراك الانفصاليين البريطانيين، والهدف الرئيس سحب بلدانهم من الاتحاد الأوروبي، لكن الأمر لا يمضي كما يشتهي هؤلاء، وإن استطاعوا توسيع دائرة شعبيتهم في هذا البلد الأوروبي أو ذاك.

لا تزال القواعد والأسس للاتحاد قوية والفوائد الناجمة عنه واضحة، باستثناء الآثار التي يتركها عادة اللاجئون أو المهاجرون. وهناك تيارات سياسية حاكمة أو ذات حضور قوي تنظر إلى هذه المسألة بصورة إيجابية، مستندة إلى أهمية دور هؤلاء في الحراك التنموي العام. لكن هذا لا يلغي الخلافات بين قادة الاتحاد الأوروبي حول طبيعة الحراك المقبل، وشكل هذا الكيان مستقبلًا. وظهرت الخلافات من خلال تصريحات علنية لرئيس المفوضية الأوروبية جان كلود يونكر قال فيها "إن ألمانيا وهولندا والنمسا، تقف حجر عثرة أمام تعميق تكامل منطقة اليورو". وهذا الكلام يضع ألمانيا في جانب وفرنسا في جانب آخر. كما أمكن للولايات المتحدة دفع الاتحاد الاوروبي للتراجع عن بعض مواد ميثاقه لصالح تعديلات الأطلسي الاستراتيجية، وهو تعديل بالغ الضرر بمستقبل اليورو.

وكما هو معروف فرنسا تبقى الدولة "الأم" للاتحاد الأوروبي، وتشكل مع ألمانيا منذ عقود تحالف، تكمن أهميته في أنهما الأكبر على الساحة الأوروبية، دون أن ننسى أنه حتى بوجود بريطانيا في الاتحاد، تظلان الأكبر بحكم كونهما ضمن منطقة اليورو التي لم تنضم المملكة المتحدة لها.

فرنسا لديها استراتيجية تستند إلى سلسلة إصلاحات شاملة لمنطقة اليورو، في حين ترى بعض دول شمال أوروبا ضرورة تعطيل الاندفاع الفرنسي بصرف النظر عن أي مبررات. وتعبير الشمال الأوروبي يعني في الواقع الشمال الثري، في حين أن الجنوب الأوروبي أقل ثراء أو حتى في بعض الحالات يمكن اعتبار بعض البلدان فيه في عداد الفقراء.

السبب وراء تعطيل دول كألمانيا والنمسا وهولندا لحراك فرنسا، أنها لا تريد أن تربط نفسها بصورة وثيقة باقتصادات أضعف في أوروبا. وهذا يعيد إلى الأذهان الأزمات المالية التي وقعت فيها اسبانيا، البرتغال، إيرلندا واليونان، وكيف أقدمت دول غنية كألمانياعلى إنقاذها، لكن الدول الغنية لا تريد مزيد من الأعباء، فإنقاذها للدول المشار إليها يأتي ضمن إطار أشمل يتعلق بإنقاذ الاتحاد الأوروبي نفسه. ما يعكر صفو الحراك الأوروبي بعد قضية خروج بريطانيا من الاتحاد.

استراتيجية فرنسا تستهدف العمق إلى درجة أنها تحاكي بصورة أو بأخرى ما يمكن وصفه بـالفيدرالية الأوروبية. وهذا حلم فرنسي منذ عقود، وهو ما يبرر دعوات فرنسا إلى ضرورة إنشاء الجيش الأوروبي وغيره، لكن هذا يخيف الدول الغنية ضمن نطاق الاتحاد. فهى ليست مستعدة لمثل هذا التحول، حتى ولو كان تحت مسميات تخفيف البيروقراطية. إلا أن الإصرار الفرنسي غالبًا لن يتراجع، فقصر الإليزيه يحلم بفيدرالية أوروبية بصرف النظر عمن يسكنه، لكن الأمر لن يكون كذلك إذا ما سكنه أحد من التيارات اليمينية المتشددة، وإن كان من المستبعد حدوث ذلك.

والاتحاد الأوربي لم تكن له سياسة دفاع مشترك ولا قوة عسكرية تحت تصرفه وتحمي اقتصاده وشعوبه، فبعد الحرب العالمية الثانية كان الخطر العسكري بالنسبة لأوربا يدعى

الاتحاد السوفيتي في حين ان البلدان الأوربية لم تكن قادرة على أن تدافع عن نفسها أمام مثل هذا الخصم. فابتكرت الولايات المتحدة فكرة حلف الأطلسي لتكوين قوة عسكرية مشتركة للسيطرة داخلها للأمريكيين. ورغم زوال العدو "الاتحاد السوفيتي" كما يصور لهم فإن سياسة الدفاع المشترك تستلزم المراجعة، وهذا السيناريو هو نفسه السيناريو القادم بين المسلمين سنة وشيعة.

لم يمنع الاتحاد الأوربي في 1995 اشتعال حرب أهلية في يوغسلافيا- تفكيك الاتحاد اليوغسلافي-، خاصة بعد ان صاحبتها مذابح في البوسنة. ورغم مواقف الاستنكار العالمية لم يتم التفكير في أي تدخل. وفي 1999 وداخل سياق إشكالي أكثر ظل الاتحاد الأوربي سلبي إزاء اضطرابات كوسوفو. وتم التدخل العسكري متأخر، لكن قادته الولايات المتحدة بشكل أساسي.

وللحقيقة أدان الكثيرين من الرأي العام الأوربي التدخل الأمريكي، لكنه لم يسع إلى ربط هذه الإدانة بحقيقة أن أوربا تخضع بالنسبة إلى أمنها للقوة العسكرية الأمريكية الخارجية. ببساطة أوربا تلزم نفسها بموقف لا يتجاوز البعد الأخلاقي الذي ليس له من مبدأ واقعي سوى مبدا الفضيلة. بما اننا ألقينا الحمل على الآخرين واعفينا أنفسنا من عناء رسم تصارع القوى.

إذا كانت الدول الأوربية لا تريد أن يكون محكوم عليها بمناورات تدل على عجزها، فلها الخيار بين الخيارات التالية: الخيار الأول: هو أن توكل أمر الدفاع عنها – وهذا هو الموقف الراهن لبعض البلدان- إلى من هو أقوى منها كالولايات المتحدة والموافقة على كل مايقوم به من يحميها. ليس هذا فقط فبولونيا كمثال ترضخ لضغوط الولايات المتحدة ولا تقبل مثله من فرنسا وألمانيا مثلًا، فالتهديد المباشر الذي قد يقع عليها من روسيا مثلًا تستطيع الولايات المتحدة حمايتها أكثر من قوة فرنسا وألمانيا مجتمعتين. فالدرع العسكري الأمريكي قابل للتصديق أما الدرع الفرنسي فهو لا يحظى بالتصديق مثله على الأقل.

الخيار الثاني: يتمثل في التخلي عن الحماية الأمريكية الخارجية دون الإنشغال بحل

بديل وهذا موقف البلدان المحايدة مثل سويسرا والنمسا. ونحن نعلم أن النزعة السلمية قوية في ألمانيا وكثيرًا ما ترى شعار"كفى حروب". بالمناسبة سياسة التصدي السلمي أدت دور إيجابي ضد ستالين، لكنها لم تنجح مع هتلر. ولا يجب أن يتجاهل الأوربيون هذا الأمر، خاصة أن الاتحاد الأوربي في النهاية لم يصبح ممكن إلا بفضل الانتصار العسكري الذي حققه الحلفاء أمام النازية. ولو تم التخلي طوعًا عن استخدام السلاح لسيطر ورثة فكر هتلر دائمًاعلى أوربا.

وهناك خيار ثالث «طرح فرنسي»: يمكن طرحه وهو تحويل الاتحاد الأوربي إلى قوة عسكرية ليصبح مستفيد من النظام التعددي الذي قد يحقق التوازن العالمي. وهذا إذا أرادت أوربا أن تتخلص من قوة الولايات المتحدة المعرقلة كثيرًا. وإذا أرادت ضمان السلم في كل البلدان التي تضمها (الشرقية والغربية). نعم تفقد كل دولة جزء من سيادتها القومية، لكنها تربح المزيد من الأمن والمزيد من السيادة الجماعية تمامًا مثل الصين، الولايات المتحدة ومصر. ولا تستطيع فرنسا وضع رجل في كوريا الجنوبية ولا حاملة طائرات في تايوان إلا بعد موافقة الولايات المتحدة والصين.

ساكن أوربا حساس لتنوع البلدان التي تضمها فلكل بلد لغته وعاداته ومشاكله. ومع ذلك كان المواطن الاسباني والإيطالي هو نفسه رأي المواطن الألماني والفرنسي. وياله من تضاد بين خلافات ساسة أوربا وتفاهم المواطنين الأوربيين اليسير. يعطي الساسة – عندما يتناقشون حول المؤسسات الأوربية – الإنطباع بأنهم يحرصون على عدم ضياع أدني جزء من السلطة التي يتمتعون بها على المستوى القومي. أما الآخرون فإنهم يعبرون – خاصة عندما يكونون في مرحلة الشباب – الحدود دون أدنى تفكير. ويتنقلون بسهولة من عاصمة إلى أخرى. ويجدون مجالسة مواطنة فنلندية ومواطنة يونانية أو مواطن دنماركي ومواطن نمساوي أمر طبيعي.

كل قوى أوربا تشكل فيما بينها نوع من النسق. وصدق الصينيون عندما قالوا على الحرب العالمية «الحرب الأهلية الأوربية»، لذلك الحروب العالمية، ليست عالمية، بل حروب قارية وإقليمية، تمامًا مثل الحرب الإقليمية بسوريا والعراق ضد داعش «أكثر

من 100 دولة مشتركة فيها». هذا النسق موجود في عقول وقلوب وتاريخ الأوربيين لكن الوقائع كانت تناقضه، فالنزاعات بين البلدان الأوربية كانت عادية.

أما بريطانيا، فهى تعيش في ثبات حلم عظمة «قديم» «جديد»، حيث إن مغادرتها الاتحاد الأوروبي بحثًا عن هوية بريطانية جديدة أمر يجعل منها تتطرق لفكرة عودة مشروعات قديمة جديدة، وهو الفلك الذي تدور حوله العقلية المخابراتية الإنجليزية خلال القرن ال19 وال20وأيضًا ال21، وبسبب هذه النوعية من طرق التفكير تحتاج بريطانيا لدراسات وأبحاث عن هذه العقليات وهذا الفكر والعقول البديلة لمعرفة ما سيؤول إليه حال بريطانيا، خاصة انها مجرد جزيرة صغيرة تقع في أحد أطراف القارة العجوز. كما انها تقع في قارة كلها كمنطقة تجد صعوبة حاليًا في التعامل مع تحديات سياسية واقتصادية يفرضها الواقع العالمي المتجدد. وبالتالي فكرة بريطانيا عظمى من جديد عبر احتلال وصناعة صراعات وتقسيم للعالم وأن تصبح بديل الولايات المتحدة ولندن بديل نيويورك والسيطرة على عدد من ممالك متهالكة، أصبح حلم من ثارات الماضي وعلمه الكلاسيكي الذي أسقطه العلم الحديث، لكنه يحترم تاريخه ودوره الرائد.

وبالمثل تقريبًا المانيا القوية اقتصاديًّا والتي تبحث هى الأخرى عن أعتاب مجد العظمة من جديد، لكنها عكس الإنجليز، حيث أصبحت متطورة ومحدثة عما سبق، فقادهم الألمان ابان تواجدهم في الإتحدا الأوربي.

***

إفريقيا التي يريدها الأفارقة

في مايو 2013 أطلق المعهد الإفريقى للدراسات المستقبلية فى الكونغو الديمقراطية وثيقة" أجندة أفريقيا 2063"، واتجهت مضامينها إلى صياغة عاطفية بكلمات رنانة وجمل عالمية، وبهذا تم اختزل الرؤية لطموحات إفريقيا في حكم رشيد ونعيم الديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان ولاعب عالمى فاعل ومؤثر وقارة آمنة مسالمة تختفى منها الصراعات والحروب..إلخ.

وجاءت كجمل مرسلة تم الذج بها في الوثيقة، فبحلول 2016 التحول إلى البث التليفزيوني الرقمي في كل أنحاء إفريقيا وفى 2017 تسريع إنشاء منطقة قارية للتجارة الحرة وفى 2018 تتمتع القارة باتصالات حديثة متماشية مع الاتصالات الدولية، وكذلك المضي قدمًا في توحيد مواصفات جواز السفر الرقمي الإفريقي، وفى 2020 العمل على إسكات صوت البنادق في القارة من خلال العمل على احتواء النزاعات والصراعات داخل القارة..إلخ، من الكلام المنمق الذي لم يحدث ولن يحدث قبل 2025.

تمت صياغة الجمل دون إدراك أن إفريقيا مازالت تعاني من الاستعمار وبقايا الاحتلال والصراعات والحروب، ودون تقديم حلول عملية وعلمية أو حتى مجرد النظر للفقر والجهل والأمراض وتكالب الدول الصغرى والكبرى عليها والبنية القبائلية والعشائرية..إلخ.

وكما يتبين للوهلة الأولى أن سياسات الاتحاد الإفريقي تتوجه صوب الجنوب عن الشمال الإفريقي وهو ما يخدم التوجهات الاستعمارية القديمة بقاياها المتواجدة، خاصة هدف فصل القارة بين شمال وجنوب، حيث صنفت الدول التي تقع في الشمال الإفريقي ضمن منطقة الشرق الأوسط، وليس لهذا علاقة بجنوب الصحراء الكبرى، في الوقت الذي تشير فيه التطورات الجيوسياسية إلى أهمية وحدة القارة، في مواجهة تحديات كبيرة

تتعلق معظمها بالتنمية المستدامة، في ظل تكالب قوى دولية عديدة ساعية إلى استنزاف موارد القارة، حيث تمتلك أكثر من ٪90 من احتياطيات الموارد في العالم.

ونتيجة لانطلاق معظم حركات التحرر الإفريقية بمساعدة القاهرة التي انطلقت منها منذ خمسينات القرن ال20 وبلورة فكرة منظمة الوحدة الإفريقية في 1963، من أجل تحرير القارة من الاحتلال فكانت معظم دول شمال إفريقيا مستقلة آنذاك، فتدخل المحتلون بإبعادها بشكل أو بآخر عن الاتحاد، فضلًا عن الانطباع الذي جسده الاحتلال بأن الشمال الإفريقي أكثر تقدمًا من دول جنوب الصحراء، وهو ما يخلق فاصل بين الشمال والجنوب الإفريقي. لكن الشمال الافريقي اضطلع بدور مهم في دعم الاتحاد الإفريقي وأنشطته، حيث تشارك دوله بما يقرب من ٪50 من ميزانيته.

طموحات إفريقيا التي يريدها الأفارقة تكمن في النمو الشامل والتنمية المستدامة وفى قارة متكاملة اقتصاديًا وتجارة ذات أولوية بين دولها، قارة متحدة سياسيًا، وهنا يمكن أن تكون لاعب عالمى. طموحات إفريقيا في دعم الموقف الافريقى فى مفاوضات التجارة العالمية وإقامة مؤسسات تمويلية كبنك للاستثمار الافريقى وصندوق للنقد الافريقى وبنك مركزي افريقي قبل 2022، إضافة إلى العملة الموحدة والقيادة السياسة الاستراتيجية والتكامل الإقليمي وآليات ومنظمات لتسوية النزاعات وخلق فرص عمل لجميع الأفارقة مع تمييز إيجابي للمرأة والشباب.

يجب مد وتوسيع شبكة الطـرق العابرة للحدود الدولية مثل طريق أوروبا- إفريقيا لتسريع النمو والتكامل، ويشمل ذلك إنشاء شبكات سريعة للسكك الحديدية لربط المدن والعواصم الافريقية والنقل البحرى والجوى ورفع نسبة التجارة الافريقية البينية إلى 70 ٪ قبل 2050، وتحسين حصة إفريقيا فى التجارة الدولية من 2 ٪ إلى ٪60 قبل 2050.

ويجب سرعة استخدام آليات مجلس السلم والأمن الإفريقي التي من بينها وفقًا للفقرة 12 من البروتوكول المؤسس للسلم والأمن لإنشاء قوة افريقية جاهزة، مع الأخذ في الحسبان أن من ضمن أدبياتها ألا تنتشر قوة إفريقية من الإقليم نفسه، لكننا رأينا تدخل

إثيوبي، أوغندي وكيني. يجب أن يعمل الاتحاد على الحفاظ على الهويات الافريقية بدول القارة كبديل لاختلافات الدول على اللغة الإنجليزية والفرنسية الأجنبيتين واللتان تذكران وتعودنا لعصور الاحتلال، والعودة للغاتهم وثقافاتهم الوطنية.

كيف لاتحاد قاري يجمد عضوية دول وشعوب بسبب أخطاء سياسيين؟ فمصر التي تعتبر أحد ركائز الاتحاد الهامة بعد ثورة 30 يونيو تم تجميد أنشطتها في الاتحاد الافريقي نتيجة لحدوث تعديل غير دستوري بعد تولي الرئيس عدلي منصور رئاسة مصر مؤقتًا، في حين أن الدستور المصري يقضي بتعيين نائب للرئيس. ومن ثم، فإن ما حدث لم يصفه الاتحاد في أدبياته بأنه انقلاب عسكري على العكس مما جرى تداوله في أدوات الإعلام المصرية والإقليمية. وإذا تعددت أخطاء سياسية لدول الاتحاد الداعمة فمن يضمن أدائه وعمله ودعمه ماليًّا وسياسيًّا وإعلاميًّا..إلخ، بل سيمكن دول أن تنكل بأخرى نتيجة لتعارض المصالح، والحالة المصرية كانت واضحة، لكنها قادت الاتحاد، ومن هنا هل دور الإتحاد الإصلاح والمساعدة والتقويم أم الطرد والتدخل في السيادة؟ ولصالح من الشعب أم دول أم قواعد جافة وصماء وضعت بعدم العمد أو غيره.

***

الشراكة الاقتصادية لآسيان وعبر الهادي

أصبحت آسيان في مركز الهندسة الإقليمية لآسيا، وقد ساهمت إلى حد كبير في تحقيق الرخاء بشرق آسيا. كما تسعى إلى تحقيق التكامل في جنوب شرق آسيا. لكن مستقبل آسيان ليس مفروش بالورد فقضية بحر الصين الجنوبي إحدى القضايا الكبرى. كما توجد العديد من العناصر التي فشل أعضائها في التوصل إلى اتفاق فيها، وهو مايعني عدم إلتفاف دولها وعدم استطاعتها أن تشكل موقف موحد ونهج معين وتعبير ما عن المخاوف التي تتعلق بالتطورات في المياه المتنازع عليها والمطالبات بالتوصل إلى حل سلمي للنزاعات على الأراضي والدعوات إلى وضع ميثاق شرف ينحي الخلافات الداخلية جانب. ولا تستطيع آسيان بقوة الأعراف التي أرستها أن توقف إصلاح الصين للجزر والبناء عليها. وتعرية هذا الواقع يدل على عدم قدرتها على صنع السلام في شرق وجنوب شرق آسيا.

ومستقبل اتفاق الشراكة الاقتصادية الاستراتيجية عبر الهادي أصبح مظلم الآن، وهو ما قد يكون تطور مرحب به لدى بعض الدول الموقعة على اتفاق الشراكة عبر الهادي؛ لأنه قد يجنبها إجراء إصلاحات هيكلية قد لا تروقها.

ومن منظور طويل الأمد تمثل إرساء قواعد اقتصادية مشتركة في آسيا والهادي أساس لتحقيق تنمية مشتركة في جنوب شرق آسيا والهادي وآسيا عمومًا وهى الأوسع نطاق. والمستقبل غير المؤكد لاتفاق الشراكة عبر الهادي سيؤثر بالسلب على اقتصاديات دولها. كما تكتنف الصعوبات مفاوضات الشراكة الاقتصادية الإقليمية الشاملة، وهى إطار عمل يستهدف تحقيق تكامل اقتصادي تحتل فيه آسيان مركز الصدارة، وهو ما ستقف أمامه الولايات المتحدة والصين بقوة.

وهناك احتمال أن تؤثر العوامل السياسية والأمنية المزعزعة للاستقرار على تقدم

التكامل الإقليمي رغم أن ميثاق آسيان يتحدث عن القيم العالمية مثل تطوير الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان وترسيخ حكم القانون والحكم الرشيد[1]. تأتي هذه الجمل ببريقها أمام التقهقر الكبير في ميانمار التي تفشل في حماية الروهينجا من الانتهاكات غير الإنسانية وغير الأخلاقية، وكذلك التراجع في تايلاند وكمبوديا واندونيسيا التي تفترض أن العلمانية فيها قاعدة حكم، لكن تتدخل القيم الدينية في السياسة، وهو مايهدد استقرار المجتمع.

يتعين على آسيان أن تحول نفسها إلى منظمة قادرة على التعاون في قضايا اعتبرت تقليديًّا من شؤون الدول ذات السيادة، بما في ذلك إصلاح البنى الاقتصادية المحلية، إذا أرادت المضي قدمًا في النمو الاقتصادي وتحقيق التوازن الذي يمثل قضية لا تستطيع آسيان تجاهلها في المستقبل القريب.

والفرص المحددة للتكامل في منطقة إجمالي إنتاجها المحلي المشترك يجعلها سابع أكبر اقتصاد في العالم، حيث يقطنها 625 مليون نسمة ويبلغ إجمالي إنتاجها الاقتصادي المشترك 2.6 تريليون دولار ومتوقع يتضاعف، بل وارتفاع حجم التجارة البينية في دول آسيان بمعدل أسرع من أي اقتصاد عالمي، وذلك بمتوسط نمو سنوي بلغ 10.5 ٪ عام 2013 بقيمة 609 مليارات دولار. وهذا النمو الزائد ربما يتنافس مع اقتصاديات كبرى كالاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة.

وقد وقعت مجموعة آسيان على وثيقة سياسية تشمل خطوط العمل الاستراتيجية للسنوات العشر المقبلة أو آسيان 2025، وذلك في خطوة هامة وطموحة، حيث تولي الاهتمام بتلك المشروعات المصممة لتلبية الاحتياجات التمويلية والبنية التحتية المالية الرقمية للمشاريع في الدول الأعضاء. ويأتي الهدف الرئيسي منها للتنقل والتغلب على التحديات التي تحد من قدرة الشركات الصغيرة والمتوسطة على النمو. وتعتبر الخطة امتدادا لإنجازات خطة العمل 2010 – 2015 التي رسمت أبعاد السياسات الرئيسية، وسوف تشمل الخطة أيضًا إجراءات لتسهيل تعميق التكامل بين المؤسسات الصغيرة والمتوسطة على النمو في سلاسل التوريد الإقليمية والعالمية.

(1) وهى جمل منقولة نقل حرفي هنا وفي أجندة إفريقيا 2063.

ويهدف التعاون إلى إنشاء مركز آسيان لخدمة المشاريع الصغيرة والمتوسطة لربط الشركات الصغيرة والمتوسطة داخل دول جنوب شرق آسيا، كما تسعى آسيان إلى تحقيق حجم استثمارات بينية بقيمة 150 مليار دولار وتجارة بينية بتريليون دولار بحلول 2020، فيما تم إلغاء خطة لتوقيع اتفاق لتدعيم الشراكة الاقتصادية بين الآسيان والصين بعد عقد القمة الـ18 بين الآسيان والصين.

***

اتحاد اقتصادي تجاري

اتحاد إقليمي نظري يضم المكسيك وكندا والولايات المتحدة، يمكن تسميته بالاتحاد الأمريكي الشمالي، يفترض اعتماده عملة موحدة " أميرو". وتم تداول فكرة إقامة هذا الاتحاد بين الدول الثلاث ونوقشت في الجامعات ومجال الأعمال والدوائر السياسية لعقود عديدة، لكن لا توجد خطط لإقامة مثل هذا الاتحاد قبل تراجع الولايات المتحدة وكندا الكبير عالميًّا واقتصاديًّا، في مقابل تقدم المكسيك اقتصاديًّا وعالميًّا، وهو مايحدث بشكل متواتر، حيث تمثل فكرة تكوين الاتحاد للبعض مادة لنظرية مؤامرة.

ولكن مع محاولة للدول الكبرى لإيجاد أسواق استثمار جديدة لها ظهرت التكتلات الاقتصادية الإقليمية، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وعمل تكتل الاتحاد الأوروبي وصعود الصين وعودت الوريث الروسي أخذت الولايات المتحدة تعمل لإيجاد تكتل اقتصادي تجاري يضم دول الأمريكتين، فبدأت بثلاث دول وهى الولايات المتحدة وكندا والمكسيك. ويصل عدد سكانه 470 مليون نسمة، وهو ما يجعل هذا التكتل أكبر تجمع اقتصادي عالمي، ينتج من البضائع والخدمات 17 تريليون دولار، تجارة الولايات المتحدة وحدها مع دول نافتا بـ 1,1 تريليون دولار، مما حقق ما كانت الولايات المتحدة تهدف إليه لتوفير سوق لمنتجاتها واستثماراتها وأيد عاملة رخيصة لصناعاتها. صدرت الولايات المتحدة ما قيمته 482 مليار دولار واستوردت بـ 596 مليار دولار من شركائها، وهنا أصبح العجز التجاري الأمريكي مع دول نافتا كبير.

مبدأ مونرو الاقتصادي يعد خطوة تأسيس اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية NAFTA منطقة نفوذ اقتصادي للولايات المتحدة، أي مونرو الاقتصادي وليس السياسي، حيث أعلن الرئيس الأمريكي مونرو عام 1823 أن الأمريكتين منطقة نفوذ للولايات المتحدة، فتحول المبدأ اليوم من النفوذ السياسي إلى الاقتصادي.

وهذا الاتحاد كما يفهم من الاتفاقية مفتوح أمام باقي الدول الأمريكية بما في ذلك بعض دول أمريكا اللاتينية التي قد تنضم إليه في المستقبل. وتعمل الاتفاقية على تحقيق اقتصاد قوي للدول الأعضاء وتعطي كل أولوياتها للقدرة على منافسة التكتلات الاقتصادية الأخرى الصاعدة على مستوى العالم، محاولة حجز مكان اقتصادي يناسب المكان المعتبر لهذه الكتلة في وقت أصبحت فيه التكتلات الاقتصادية إحدى ظواهره.

وتحاول واشنطن أن تجعل من نافتا تكتل ليس على غرار الاتحاد الأوروبي، حيث أخذ بعد سياسي، إضافة إلى الجوانب الاقتصادية، فهناك البرلمان الأوروبي والعملة الأوروبية الموحدة، وتم عقد اتفاقية أمريكا الشمالية للتعاون الاقتصادي NAAEC واتفاقية التعاون العمالي NAALC، وتهدف لتعزيز جوانب الاتفاقيات في مجالات متعددة تسعى واشنطن لضم دول أخرى إليه. غضب عمالي يضغط على الكونجرس يدفعه للإنسحاب من نافتا هناك من يوجه انتقاد حاد للشركات الأمريكية التي استغلت اتفاقية نافتا في نقل مصانعها إلى المكسيك بسبب رخص اليد العاملة فيها، فنافتا حسب رأي البعض تدمر القاعدة الصناعية في الولايات المتحدة، لأن فرص العمل قلت بالنسبة لليد العاملة الأمريكية وأصبح الإنتاج خارج الولايات المتحدة. كما أصبحت المصانع الأمريكية تنتقل إلى داخل المكسيك على بعد كيلومترات من الحدود الأمريكية حيث الأيدي العاملة المكسيكية الرخيصة، وتجني الشركات الأرباح العالية بسبب ما توفره من رخص العمالة.

ويرى بعض الأمريكيون أن هناك ما يهدد الأمن القومي الأمريكي بسبب انتقال المصانع الكبرى للمكسيك، وقد وقع على مشروع القانون بانسحاب واشنطن من نافتا 28 نائب أمريكي معظمهم من الولايات التي تعاني من البطالة بسبب تحول الصناعات للخارج إلى كندا والمكسيك. والملاحظ أن أصحاب الصناعات والشركات الكبرى ورجال الأعمال والغرفة التجارية الأمريكية تدعم نافتا وعضوية الولايات المتحدة فيها لأن هؤلاء هم المستفيدون من اتفاقية نافتا ونقل مصانعهم إلى خارج الولايات المتحدة. وحاولت الولايات المتحدة حل مشكلة البطالة بعيد عن الانسحاب من نافتا وذلك

ببناء علاقات تجارية قوية مع كل من كوريا الجنوبية وبنما وكولومبيا. وهناك سعي لعمل اتفاقيات تجارة حرة مع كل من أستراليا، نيوزيلندا، سنغافورة، تشيلي، بيرو، فيتنام، بروناي ومنتدى المحيط الهادئ للتجارة الحرة، فتقود هذه الاتفاقات زيادة التجارة الأمريكية مما يوفر فرص عمل للآلاف من الأمريكيين.

والاتفاقية الجديدة تمت بعد عام من المفاوضات العسيرة عقب طلب الرئيس الأمريكي ترمب إعادة التفاوض على اتفاقية التجارة السابقة أو إلغائها. مع ذلك لم تنجح تلك الاتفاقية في إنهاء حالة التوتر التي تهيمن على العلاقات التجارية في أمريكا الشمالية. ربما تصبح الاتفاقية رهينة للسياسات الانتخابية في حال تأجيل التصديق عليها لمدة أطول من ذلك، حيث من المفترض أن يبدأ السباق الرئاسي 2020. ويعني التأجيل أن الشركات والمؤسسات التجارية ستظل تعاني من حالة عدم اليقين فيما يتعلق بالإطار الحاكم للاستثمارات المستقبلية في المنطقة. وستواجه اتفاقية أمريكا وكندا والمكسيك للتجارة الجديدة اضطرابات. ويرجح أن تعرقل معارضة الديمقراطيين الأمريكيين والاتحادات بالبلاد للبنود الخاصة بالعمل في الاتفاقية، إلى جانب التعريفات الجمركية وإقرارها، كذلك يتوجب على البرلمان الكندي التصديق على الاتفاقية.

وستسعى كل من كندا والمكسيك وراء الإعفاء من التعريفات الجمركية الأمريكية على الواردات العالمية من المعادن خاصة الصلب والألومنيوم. ويهدد ترمب بفرض تعريفات جمركية على الواردات المكسيكية من السيارات ما لم تتخذ المكسيك المزيد من الإجراءات للتصدي لمهربي المخدرات والهجرة غير الشرعية. وتوشك الحكومة المكسيكية على الانتهاء من قائمة جديدة بالواردات الأمريكية المحتملة، والتي من المفترض استهدافها بالرسوم.

ويهدد الديمقراطيون الأمريكيون بعرقلة الاتفاقية الجديدة ما لم تمرر المكسيك تشريع يضمن وضع أفضل لحقوق العمال، وهو مطلب الحكومة الكندية أيضًا. ويرى ترامب أن نافتا تسببت في فقدان الملايين لوظائفهم في الولايات المتحدة، حيث توجهت الشركات نحو الجنوب بحثًا عن العمالة المكسيكية التي تتقاضى أجور أقل. وسوف

يترشح ترمب في الانتخابات القادمة للفوز بفترة رئاسية أخرى، ومن المرجح أن يركز في حملته الانتخابية على سياسته "أمريكا أولًا". وكان إجبار المكسيك وكندا على إعادة التفاوض على نافتا من الوعود التي قطعها خلال الانتخابات الرئاسية التي حقق فيها الفوز.

ويدفع بعض الديمقراطيين باتجاه تعديل الاتفاق وهى فكرة يقاومها المسؤلون في كندا والمكسيك، هنا عليهم توخي الحذر من فتح ما قد يصبح مثل صندوق باندورا، ويرى مسؤولون كنديون إنهم يخشون من أن تؤدي إعادة فتح باب مناقشة جزء من الاتفاقية إلى إثارة اللغط بشأن أجزاء أخرى منها.

***

بروسور: تطور نحو الإتحاد

كونت 8 دول في أمريكا الجنوبية هى البرازيل، الأرجنتين، تشيلي، باراجواي، كولومبيا، الإكوادور، بيرو وجواتيمالا في سانتياجو إعلان مشترك يهدف إلى إقامة اتحاد إقليمي جديد أطلقوا عليه "بروسور". والاتحاد يمكن دول أمريكا الجنوبية أن تتبادل الأفكار وتتعاون فيما بينها وتجد من يسمعها وتصل إلى مزيد من تحقيق الإندماج والتطور. كما يهدف لمعالجة موضوعات البنية الأساسية والطاقة والأمن والصحة والدفاع ومكافحة الجريمة والوقاية من الكوارث الطبيعية.

ويعتبر "بروسور" بديل عن اتحاد دول "يوناسور" الذي صار غير ذي أهمية حديثًا، حيث تأسس عام 2008 بناء على مبادرة من الرئيس البرازيلي حينها لولا دا سيلفا والرئيس الفنزويلي في ذلك الوقت هوجو شافيز. وتعرض اتحاد يوناسور الذي يتسم بالطابع اليساري إلى خروج أعضاء عدة منه بسبب الموقف من الصراع في فنزويلا. وموضوع وليد يحتاج مزيد من الرؤى والجهود حتى يخطو خطوات كبيرة، خاصة إذا ما واجهته صعاب وتدخلات خارجية، حيث تعاني أمريكا الجنوبية ما يقارب معاناة إفريقيا، ولكن بأشكال مختلفة في مجملها ومتقاربه في معظمها.

***

الفصل السابع

اتحادات ما بعد الغد

الأوراسية كاتجاه عالمي لتعدد الأقطاب

مصطلحات مختلفة تفقد معناها الأصلي على الرغم من استخداماتها على مدار سنوات عديدة وهذا أمر شائع في اللغات الحية، فقد تغيرت مفاهيم أساسية مثل الاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية والفاشية بشكل عميق في الواقع. ومصطلحات أوراسيا لديها أيضًا بعض الشكوك لأنها جديدة، حيث تنتمي إلى لغة سياسية- المظهر- جديدة والسياق الفكري الذي يتم إنشاؤه فقط. وفكرة الأوراسية تعكس عملية ديناميكية نشطة للغاية، بمعنى انها أصبحت أكثر وضوح على مر التاريخ، وتحتاج إلى مزيد من التطوير. وفكرة أوراسيا تمثل الأساسية للمراجعة التاريخ السياسي أو العقائدي أو العرقي والديني للبشرية، وأنها تقدم نظام جديد للتصنيف والفئات التي سوف تغلب عليها. ذهب البعض إلى نظرية الأوروبية الآسيوية من خلال مرحلتين:

1 – مرحلة تكوينية الأوراسية الكلاسيكية في بداية القرن من المثقفين المهاجرين الروس «Trubeckoy Savickiy، أليكسييف، Suvchinckiy، برومبرج» تليها من الأعمال التاريخية ليونيد Gumilev، ودستور الأوراسيون الجدد في النصف الثاني من عام 1980 وحتى الآن". ونظرية الكلاسيكية الأوروبية الآسيوية تنتمي إلى الماضي ويمكن تصنيفها بشكل صحيح في إطار أيديولوجيات القرن العشرين.

2 – المحافظون الأوراسيون الجدد: وقد أعطوا ولادة ثانية وإحساس جديد وحجم ومعنى أكبر بعد إقامتهم لفكرة الأوراسية من رمادها مكتشفين إمكاناتها المخفية. من خلال الأوراسيون الجدد تلقت نظرية أوراسيا كلها بعد جديد. اليوم وغد لا يمكننا أن نتجاهل الفترة التاريخية الكبيرة للمنطقة الأوراسية، ويجب أن نحاول فهمها في سياقها الحديث بالمعنى الواسع.

أوراسيا هى استراتيجية عالمية النطاق، وربما إنهاء الدول القومية "بمنطق الأمم"، ولكن في نفس الوقت تقدم سيناريو مختلف للعولمة – التي تنطوي على عالم أحادي القطب أو الحكومية العالمية المتحدة –، بدلًا من ذلك، توفر العديد من المناطق العالمية "أعمدة". أوراسيا إذن نسخة بديلة أو متعدد الأقطاب، رغم أن العولمة كانت عملية كبرى.

سيتم تحويل الدولة القومية إلى دولة عالمية، ونحن نواجه دستور نظم حكومية كوكبية ضمن نظام إداري واقتصادي واحد. وكل الدول والطبقات الاجتماعية والنماذج الاقتصادية تقريبًا سوف تعمل على التعاون على أساس هذا المنطق على مستوى النطاق الكوكبي الجديد. العولمة كانت ذات بعد واحد وظاهرة تحاول تعميم الغربي "أنجلو ساكسونية، الأمريكية"، ففي كثير من الأحيان ترتبط مع القمع والعنف وتوحيد مختلف البنى الاجتماعية والسياسية والعرقية والدينية والوطنية في نظام واحد، بل هو الاتجاه التاريخي الأوروبي الغربي الذي بلغ ذروته من خلال سيطرته على الولايات المتحدة، لكن الأوراسية وجهة لكيفية إدارة أفضل لتاريخ بشري لمنطقة معينة، بينما العولمة هى فرض النموذج الأطلسي. وأنصار العولمة يقولون أنه عندما لن يكون هناك بديل عن العولمة الأطلسية سيكون هناك فوكوياما الذي يكتب عن "نهاية التاريخ"، والذي يعني في الواقع نهاية التاريخ الجيوسياسي والصراع بين العوله والأوراسية.

هذا يعني هيكل جديد للنظام العالمي مع وجود المعارضة ضد قطب واحد فقط/ قطب العولمة. وقد تشير أيضًا إلى أن النظام العالمي الجديد نموذج للمعارضة بين قطبين "الشرق والغرب، الشمال والجنوب"، هذا البديل من عمارة العالم – كما هو واضح– مختلف تمامًا في مفهوم العولمة ومفهوم الأوراسية.

اليوم النظام العالمي الجديد ليس أكثر من مشروع/ خطة، أو اتجاه، كان جاد للغاية، ولكنه ليس قاتل. وأتباع العولمة ينفون أي خطة بديلة لمستقبل، ولكننا شهدنا ظاهرة واسعة النطاق – كونترا العولمة. وفكرة الأوراسية تنسق بين المعارضين لعولمة القطب الواحد بطريقة بناءة، وعلاوة على ذلك، فإنها توفر فكرة العولمة متعددة الأقطاب المتنافسة أو العالمية المناهضة للعولمة.

الأوراسية ترفض نموذج وسط ضواحي العالم، وبدلًا من ذلك، فإن فكرة الأوروبية الآسيوية تشير إلى أن هذا الكوكب يتكون من كوكبة من مساحات المعيشة المستقلة والمفتوحة جزئيًّا لبعضها البعض. هذه المناطق ليست الولايات الوطنية، ولكنها مجموعة من الدول المتحالفة في إعادة تنظيم الاتحادات القارية أو"الإمبراطوريات الديمقراطية" مع وجود درجة كبيرة من الحكم الذاتي الداخلي. وكل المجالات ستصبح متعددة الأقطاب بما في ذلك نظام معقد من العوامل العرقية والثقافية والدينية والإدارية.

وبهذا المعنى الأوراسية العالمية مفتوحة للجميع بغض النظر عن مكان الميلاد والجنسية أو الإقامة أو المواطنة. والأوراسية توفر فرصة لاختيار مستقبل مختلف عن الإبتذال الأطلسي وتسعى لنظام واحد قيمه لجميع البشرية. الأوراسية لا تسعى فقط إلى الماضي أو الحفاظ على الوضع الراهن، ولكن تسعى للمستقبل والاعتراف بأن هيكل العالم الحالي يحتاج إلى تغيير جذري وأن الدول القومية والمجتمع الصناعي قد استنفذت جميع مواردها. والأوراسية لا ترى إنشاء حكومة عالمية على أساس القيم الليبرالية الديمقراطية كمسار واحد وفقط للبشرية، بمعنى أبسط. وتعرف الأوراسية في القرن الحادي والعشرين كمرادفة لعالم متعدد الأقطاب.

والأوراسية ليست فقط نظم القيم المضادة للأطلسي، ولكن تنوع الهياكل القيمة، بل توفر مساحة معيشية للجميع، بما في ذلك الولايات المتحدة الأطلنطية والحضارات الأخرى، وذلك لأن الأوراسية تقبل أيضًا حضارات إفريقيا والقارتين الأمريكية، ومنطقة المحيط الهادي. وبذلك أذكر الذين يختلفون مع "نهاية التاريخ" انه سيتم رفع معنوياتنا وفشل العولمة بالمفهوم الأمريكي للأمن الاستراتيجي للقرن الحادي والعشرين المرتبطة بتشكيل عالم أحادي القطب.

النمط الغربي في أوروبا وأمريكا لديه العديد من الميزات الجذابة التي يمكن اعتمادها، ولكن لا تعدو أن تكون نظام ثقافي له الحق في الوجود في سياقه التاريخي جنبًا إلى جنب مع الحضارات الخاصة الأخرى والنظم الثقافية. ولكن أنصار الأطلنطي قادرون على إدارته حتى الآن، فما إذا كان يمكن بطريقة ما أن تتكون بعض العقبات يتم دمجها في قوة

الأمم المتحدة، بل يمكن أن تكون متكاملة في خدمة الولايات المتحدة واحتمال الفوز سيجعلها أكثر خطورة على الجميع.

العالم الجديد هو جزء من العالم القديم، بمعنى أكثر تحديد الأوراسية كلمة تنطبق على ما يسميه البعض بالعالم القديم، ويمكن اعتبار مفهوم العالم القديم "أوروبا بشأن تقليدي" في سياق أوسع من ذلك بكثير، بمعنى من متعدد الحضارة والفضاء السوبر الذي تسكنه الأمم والدول والثقافات والإثنيات والأديان والمتصل مع بعضه البعض تاريخيًّا وجغرافيًّا. وفي الحقيقة هناك تعارض، بل وفي كثير من الأحيان بين العالم القديم والعالم الجديد، فالقارة الأمريكية اكتشفت من قبل الأوروبيين وتم تحويلها إلى منبر للحضارة الصناعية، حيث تم إنشاء المشاريع الأوروبية الحديثة التي بنيت على أساس الأيديولوجيات التي ينتجها الإنسان وحضارة تنقية الحداثة، بينما خرج علينا وقال: "إن الأيديولوجيا انتهت". كانت الولايات المتحدة إنشاء ناجح ل "مجتمع" شكله إنجليز وغيرهم، في حين أن بلدان أمريكا الجنوبية والوسطى ظلت مستعمرات من العالم القديم، وبالمثل تتأثر أوروبا الشرقية بهذه الفكرة بشكل أقل بألمانيا وغيرها من دول أوربا الغربية. ووفقًا لأحكام شبنجلر أن يتم تقديم الثنائية بين العالم القديم والجديد كأضداد: ثقافة الحضارة، العضوية الاصطناعية، التاريخية والفنية[1].

وإذا نظرنا إلى تحالف الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وموجة التنمية الأوروبية الأطلسية، والتكامل الأوروبي تحت رعاية الدول القارية. وهذا يصبح مثال أكثر وضوح إذا ما أخذنا في الاعتبار نظرية أوروبا من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال، وبعبارة أخرى، فإن التكامل مع العالم القديم يشمل أراضي واسعة من الاتحاد الروسي، وبالتالي يمكن اعتبار الأوراسية في هذا السياق كمشروع تكامل استراتيجي وجيوسياسي واقتصادي لشمال القارة الأوروبية الآسيوية.

(1) للمزيد يمكن النظر إلى كتابنا» الأنثروبولوجيا المستقبلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الإتحاد الخليجي كنموذج للوطنية القارية[1]

يمثل مجلس التعاون الخليجي للدول العربية منذ تأسيسه في 1981 نقطة تحول هامة في العلاقات الاقليمية إذا ما اكتمل، حيث تتشابه الدول في أمور عدة كالأنظمة السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، كما انها تواجه نفس التحديات والمخاطر المتماثلة نوعًا ما.

والاتحاد الفيدرالي سيكون سمة من سمات القرن تلجأ إليه الدول التي تسعى إلى حل مشكلاتها القانونية والتنظيمية والسياسية التي تتعقد بفعل التبدلات المختلفة خاصة الاجتماعية والعلاقات الدولية. فعلى الصعيد الداخلي تسعى إلى تنظيم الأمور داخليًّا بهدف تسيير العمل والوظائف وتوزيعها ما بين السلطات المركزية والسلطات المحلية، بحيث تحترم السلطة الفيدرالية المصالح الخاصة للقوى المؤلفة لها. وعلى الصعيد الخارجي يتم اللجوء إلى الفيدرالية لرسم علاقاتها الدولية لصالح مجموع الوحدات والكيانات التي تتكون منها.

والفيدرالية تعني في مدلولها الواسع ظاهرة تحرك الجماعات الإنسانية نحو التجمع بحركة تقدمية تقضي إلى التوفيق بين اتجاهين متناقضين، بين الحرص على ذاتيتها من ناحية وبين الشعور إلى تنظيم جماعي ما بين الدول والتنظيم الدولي ككل. أي فيدرالية تواجهها تحديات مثل النزعة القُطرية والإرث التقافي والسيادة، لكن علينا أن ننظر إلى حجم الاقتصاد الخليجي ابان إنشاء مجلس التعاون 200 مليار دولار في حين بلغ في 2011 نحو 2و1 ترليون دولار، وبالتالي تحويل مؤسسات مجلس التعاون إلى مؤسسات اتحادية هو خيار ملائم لدول المجلس، ونظرًا لميولها للحفاظ على استقلاليتها في إدارة شئونها الداخلية وفي سيادة الأسر الحاكمة، لكن تبقى المسألة مرهونة بحجم المصلحة التي ستعود على كل منها من وراء ذلك.

(1) أطرح هذا الموضوع للحفاظ على مستقبل دول الخليج العربي.

وجود دستور اتحادي متطور ينبغي أن يكون الخطوة الأولى في سبيل الاتحاد الخليجي، ويمكن أن يتم ذلك من خلال إعادة صياغة النظام الأساسي لمجلس التعاون والعمل في اتجاه إيجاد نصوص دستورية تنظم شئون الاتحاد في جميع المجالات وبالكيفية التي تنظم فيها دساتير الدول شئونها، خاصة تلبية الضروريات الدستورية لبناء اتحاد خليجي. بعد الانتهاء من عمل الدستور لا بد من طرحه على الاستفتاء الشعبي الذي يشمل مواطني الاتحاد، وذلك للحصول على الشرعية الدستورية اللازمة ليصبح هذا الدستور وبشكل رسمي وشرعي دستور اتحادي.

ونرى تحويل المجلس الأعلى لمجلس التعاون الخليجي إلى سلطة سياسية عليا للاتحاد، لتصبح بمثابة مجلس رئاسي ذو اختصاصات " نرى أفضلها أن تفوق اختصاصات رؤساء الدول الأعضاء خصوصًا في السياسة الخارجية والعسكرية والاقتصادية الخارجية" هذا يمكّن من تناوب أو انتخاب رئاسة الاتحاد بين الملوك والرؤساء. أما مهام رؤساء الدول فتكون مقتصرة على الصعيد الداخلي لكل دولة. ويتكون مجلس وزراء الخارجية بقيادة الدول التي تقود رئاسة الاتحاد. وأرى أن يتم الاختيار على الأفضل والأنسب وليس بطرق المنظمات التقليدية. ومثله وزراء الاقتصاد والدفاع والأخير يقود القوات الاتحادية التي بذغت في قوات درع الجزيرة مثلًا، ويمكن أن يقوم الاتحاد على أسس رئيسية، هي:

1 – أن يتحقق الاتحاد بإرادة الشعوب.

2 – قيام الاتحاد على أسس ديمقراطية.

3 – قيام الاتحاد على مبادئ المساواة والمواطنة وسرعة إجراء إصلاحات سياسية حقيقية.

4 – مراعات الخصوصية والفوارق لكل دولة، هذا في الفترة قبل 2030 أما بعد 2050 فربما يحاول أعضاء ومواطنون عديدون أن ينادوا بالتحول من الاتحاد إلى التحول كدولة واحدة، لكن هذا سيأخذ بعض الوقت، لكنه لن يحدث قبل فترة نهاية القرن ال21 على الأقل.

وقد كان من المقرر إطلاق الاتحاد النقدي لمنطقة الخليج GMU لدول مجلس التعاون الخليجي في يناير 2010. ومن المقرر أن يصبح الاتحاد النقدي لمنطقة الخليج أكبر اتحاد نقدي خارج أوروبا باقتصاد يتساوى مع الاقتصاد الألماني ومساحة تصل إلى ما يقرب من نصف مساحة منطقة اليورو، إلا أن الخطوة التي قد تتخذها الدول الخليجية الست الغنية بالبترول لاعتماد عملة واحدة تمثل آخر أجزاء الاتفاق الاقتصادي الموحد وأبعدها نطاقًا.

ذلك الاتفاق الذي تم التوقيع عليه من قِبل دول مجلس التعاون الخليجي يمكن أن يكون حدث فريد من نوعه، فدول مجلس التعاون الخليجي توفر 45 ٪ من احتياطيات العالم المؤكدة من النفط و17 ٪ من الاحتياطيات المؤكدة من الغاز الطبيعي. ويتوقف استقرار الاقتصاد العالمي على قدرة تلك الدول على الحفاظ على التوفير السلس للنفط بسعر معقول. وفي نفس الوقت يمكن لأي قرار بالتخلي عن الارتباط بالدولار الأمريكي أن يعمل على تفاقم الاختلالات العالمية بالتأثير سلبًا على قيمة الدولار.

سيتمتع السعوديون بقوة تصويت أكبر في الاتحاد، فهى 70 ٪ من السكان و88 ٪ من إجمالي مساحة هذه الدول، ومع ذلك يتحتم على صناع القرار ضمان أن يتم أخذ وجهات النظر الخاصة بجميع الدول الأعضاء في الاعتبار، وأن هذه السياسات من شأنها تعزيز مصالح الاتحاد الخليجي ككل، وبالتالي ننصح بمرونة النقاشات حول مقر القيادة والبنك المركزي والقوات العسكرية/ يمكن تأجيلها.

***

من الإتحادت الإقليمية إلى الإتحاد العربي

أحداث الحادى عشر من سبتمبر 2001 أظهرت ضعف الولايات المتحدة، فقامت بعمل تحالفات دولية تحميها وتحمي قوتها عبر تحالفات مختلفة، ومن ثم قاموا باجتياح الدول الإسلامية والعربية، بهدف الاستفادة الاقتصادية من الحروب والانتصار عليها، ثم إشاعة الفوضى فيها، ووضعها فى مواجهة ضد نفسها، بحيث لا تنهض.

وزيادة الاختراق الخارجى للمنطقة العربية ومشهد التجزئة هما أسوأ ما يمكن أن تؤول إليه أحوال الدول العربية وربما يكون أخطر نتائج المشهد من حيث وضعه العقبات أمام المشاهد البديلة وهو ان مقدماته وتداعياته تنطوى على تحلل الهوية العربية القومية عمومًا وتحلل بعض الهويات الوطنية خصوصًا والمشهد الإصلاحى ويتمثل ذلك اقتصاديًّا فى التكامل والتنسيق القطاعى، وسياسيًّا فى إقامة تجمعات إقليمية بين أقطار متجاورة متشابهة التوجهات السياسية ومتقاربة فى المستويات الاقتصادية والاجتماعية، وله متطلبات اجتماعية واقتصادية وله تفريعتان تتقاطعان وتتكاملان هما التعاون بين مجموعة من الأقطار العربية المجاورة والمتقاربة فى نظم الحكم وربما مستوى المعيشة والتي يمكن أن تشكل تجمع جزئي على أساس جيوسياسى، وتحقيق تنسيق وظيفي وعام على نطاق يشمل كل أقطار الدول العربية أو أغلبها على أنواع معينة ومحددة من الأنشطة في المجالات الاقتصادية والعسكرية والسياسية الخارجية.

والملامح المميزة نجدها في المداخل المختلفة للترشيد التي ستأتي من مجالات تطوير آليات جديدة لفض المنازعات العربية العربية وفى درجة التبعية للعالم الخارجى وارتفاع القدرة العامة للمجتمع والدولة نتيجة لما يتصل بقيام هذا المشهد من الارتفاع التدريجى فى مستوى التبعية الشعبية والإنتاج والأمن والقدرة العسكرية، وكذلك ازدياد فاعلية لبعض مؤسسات الدول والمجتمع المدني، ويقترب هذا المشهد فى بعض ملامحه من كونه بديلًا لوقف التدهور فى بعض الأقطار عن كونه بديل إصلاحي حقيقي.

الاستشراف الأهم هو المشهد التحولي/ البؤري الذي يمثل الأشكال المرغوبة للإتحاد العربي ويدور حول مفهوم الاتحادية أو الفيدرالية ويحتاج الوصول إليه أكثر من ثلاثة عقود وعدد من الخطوات المتقدمة على طريق الاستقلال والتنمية والديمقراطية. من هنا يتم الربط بينه وبين الديمقراطية والمشاركة الشعبية وبينه وبين الاستقلال ورفض التبعية وبينه وبين احترام الأصالة الحضارية والثقافية للأمة، ليس كل ذلك فقط من منظور تجمع كل ما هو مرغوب فيه، ولكن أيضًا لأن هذه الأمور لها شروط ضرورية لانطلاق دولة الوحدة ثم استمرارها وتحقيق أهدافها ويفترض هذا المشهد قيام وحدة اتحادية عربية تضم معظم الأقطار العربية الرئيسية ومعها بعض أو كل الأقطار العربية الأخرى.

قد يبدو ذلك بعيد الاحتمال مع الواقع إلا أنه لا يمنع من محاولة التعرف على الكيفية التي يمكن أن يتطور بها الوطن العربى إذا أمكن إتمام الوحدة السياسية- ويكون طرح لأجيال قادمة أكثر وعي- ولهذا المشروع ملامح الإحساس بالانتماء إلى كيان عربى واسع يسترجع أمجاد ويوجد الشعور بالعزة وروح التحدى ويحدد طموحات المستقبل، ولتحقيق ذلك نحن في حاجات إلى دراسات المجتمع والدولة فى الدول العربية تنبع من الواقع.

الوحدة لن تتحقق إلا بعد وجود أقاليم كبرى للوطن العربى مثل المشرق، الجزيرة العربية، وادى النيل، المغرب الكبير، وهذا ينطلق من العلاقة بين أى مجتمع والدولة وهى علاقة يحكمها التوازن بين قوى المجتمع المختلفة «حجم ونوع ومصالح ووعي» بقدر ما تكون العلاقة صحية وبقدر ما يكون وجود الدولة نفسه مبرر وبقدر ما تكون السلطة فى هذه الدولة شرعية بالمعنى السيوسيولوجى الواسع لمصطلح الشرعية. وفي حال حدوث هذه المشاورات الشعبية سيكون هذا تأكيد على انه بمقدار ما يستعيد أبناء الأمة إرادتهم فإنهم يفتحون الطريق أمام دولهم نحو تحقيق سائر أهداف المشروع النهضوي العربي وفي مقدمها التكامل والاتحاد ثم الوحدة .

إن أقطار المغرب العربي «موريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا» تمتلك من الموارد

البشرية والطبيعية ما يؤهلها لأن تشكل تجمع إقليمي فاعل داخل الأمة العربية، والقارة الافريقية، وحوض البحر المتوسط، بل يؤهلها، إذا تحررت من العقليات القطرية أو الفئوية الضيقة، أن تشكل نموذج يحتذى به في الأقاليم العربية الأخرى.

ونؤكد على أهمية التواصل بين هذا التجمع الإقليمي الهام الذي يضم ما لا يقل عن ثلث أبناء الأمة العربية وبين كل أقطار الأمة العربية وقضاياها الكبرى، فيضع ثقل المغرب العربي الكبير في خدمة القضايا العربية العربية كما يستخدم وزنه من أجل معالجة كل القضايا العربية الساخنة المطروحة حاليًا، أو التي قد تبرز مستقبلًا، بروح من الموضوعية والاستقلالية عن أي ضغط أجنبي، وبمنطق التجرد والحرص على كرامة الإنسان وحقوق ووحدة الأوطان وسيادتها بعيدًا عن أي تدخلات استعمارية مشبوهة الغايات والأدوات.

أما احتمالات تطور أنماط العلاقات المختلفة من تعاون وتعايش وصراع بين البلاد العربية كأقطار أو كمجموعات إقليمية كدولة واحدة والقوى الكبرى التى تتفاعل معها فى إطار النظام العالمي المعاصر. وتتمثل المعطيات الدولية في شكل الإطار العالمي سوف يتم فى إطاره التطور العربي وذلك من النواحي السياسية والاستراتيجية والتكنولوجية والاقتصادية والعسكرية والأمنية وتتمثل المعطيات الإقليمية العربية فى واقع الأقطار العربية وقدراتها من ناحية وشكل العلاقة بينهما من ناحية أخرى.

الاستشراف تحكمه اعتبارات عديدة من أهمها معرفة دقيقة بالواقع الاقتصادي العربي الراهن والكشف عن آليات التطور والنمو الاقتصادي المعاصر فى ظل تغير سريع ومتسارع في أوضاع الاقتصاد العالمي وفى ميادين العلم والتكنولوجيا، فقد يتطلب ذلك البدء بوصف وتحليل النمو الاقتصادي والاجتماعي والثقافي فى الدول العربية وعرض لأهم الاتجاهات الرئيسية المحتملة للتطور العالمي في المجال الاقتصادي وفي مجال العلم والتكنولوجيا قبل عرض آفاق التطور الاقتصادي العربي فى ظل مشاهد المستقبل المرتقب.

***

الحكومة الكوكبية

الحكومة العالمية هى كيان سياسي اقتصادي اجتماعي ثقافي يضع ويفسر ويطبق القانون الدولي، لذا تقوم الشعوب بالمساهمة أو ترضخ لتلك الحكومة. والنتيجة أن الحكومة العالمية ستضيف مستوى جديد من مستويات الإدارة فوق المستوى الوطني للحكومات. ومصطلح "النظام العالمي الجديد" استخدم في سياقات سياسية متعددة كالتصور الذي وضعه جورج بوش الأب عن عالم يسوده السلام والتعاون بين دول ديمقراطية لا تعكر صفوه حكومات دكتاتورية أو فاشية، وآخرون ممن لا يولون ثقة كبيرة بالحكومات أو ممن يخافون رجحان الكفة الأمريكية على المسرح الدولي يفسرون عبارة "النظام العالمي الجديد" بشكل مختلف يميل إلى التشاؤم.

وهناك من يذهبون أبعد من ذلك، بمعنى أي شكل من أشكال الحكم العالمي سيكون قاعدة لمؤامرة جديدة تهدف إلى السيطرة على العالم، وذلك لخدمة مصالح منظمة ما أو أخرى، حقيقية أحيانًا ومتخيلة أحيانًا أخرى. ويقدم الخيال العلمي نسخ تبدو متضاربة من حكومات عالمية متخيلة، وتشمل تلك التصورات طيف يبدأ من المثالية والطوباوية وصولًا إلى الاستبدادية القمعية.

ولم تبادر أي دولة حتى الآن إلى تقديم خطة رسمية لحكومة عالمية، رغم أن البعض يرى في مؤسسات وهيئات دولية مثل المحكمة الجنائية الدولية والبنك الدولي على أنهما بذور أو بدايات لنظام حكومة عالمية. وقامت هيئة مؤلفة من قانونيين من دول مختلفة "برلمانيون للعمل العالمي" بالدعوة إلى قيام حكم عالمي ديمقراطي، رغم أن دعوتها هى نفسها تنوعت من حيث هدفها وشدتها خلال تاريخ تلك المنظمة.

على المسرح الغربي نوقشت فكرة الحكومة العالمية من أجل حفظ السلام بين الأمم في العصور اليونانية والرومانية، وفي العصور الأقرب ظهرت الفكرة في القرن ال14

في بحوث دانتي، وفي 1625 كتب القانوني الهولندي هوجو جروتيوس كتابه "قوانين الحرب والسلام"، وخلال القرن ال 18 اكتسبت فكرة قيام فدرالية عالمية زخم كبير، ففي تلك الفترة تأسست الولايات المتحدة الأمريكية كأول ديمقراطية فدرالية حديثة في 1788، وبعدها شكلت سويسرا 1848، ثم كندا 1867 أول فدرالية متعددة القوميات، لتوحد أعراق وثقافات ومناطق لغوية مختلفة تحت حكومة شاملة واحدة. وهى فكرة كتب حولها عمانوئيل كانط مقالته "السلام الدائم: مسودة فلسفية" 1795. وقد وضع كانط في مقالته تلك ثلاثة أسس لتنظيم العلاقات الإنسانية ولدرء خطر وقوع حروب في المستقبل بشكل نهائي:

1 – نظام جمهوري ودستور مدني لكل دولة.

2 – القانون الدولي يقوم على أساس فدرالي لدول حرة.

3 – حقوق الناس كمواطنين عالميين تكون محددة بالقانون العالمي للضيافة، أي يمكن للناس زيارة البلدان الأخرى، ولا يقيمون فيها ما لم تتم دعوتهم لذلك.

وترى نظرية العقد الاجتماعي أن الوضع الأصلي للأفراد، أي حالهم قبل نشوء الدولة والمجتمع هو حالة قتال وحرب ضد بعضهم البعض، حيث لا أخلاق ولا قوانين، والجميع يعيشون في خوف مستمر من بعضهم البعض، وهذا هو الوضع الأصلي الطبيعي/ شريعة الغاب، من وجهة نظره هو بالطبع.

وتحاول نظرية العقد الاجتماعي أن تفسر ظاهرة نشوء المجتمع أو القانون أو الدولة، فتقول بأن البشر وجدوا أن تجمعهم مع بعض يقدم لهم فوائد منها الحماية والأمن، ثم إنهم ومن أجل حل النزاعات التي تقع فيما بينهم يقومون بالتنازل عن مجموعة من الحريات الوحشية، ويتفقون على مجموعة من القوانين الحضرية، وبما أن هذه القوانين لن تكون محل احترام في عالم شريعة الغاب؛ فإن البشر وبموجب العقد الاجتماعي يوكلون أمر تطبيق القانون إلى حكم سياسي ينفرد بالسلطة والقوة ليقوم بمعاقبة من يخالف القانون مقابل تمتع الجميع بحماية هذا القانون. ونحن نقوم بهذا العقد الاجتماعي ضمنيًّا وفق ما تعبر عنه الصيغة التالية: "إنني أتنازل للدولة أو للشعب أو للأمة عن حقي في حكم نفسي

بشرط أن تتنازل أنت/ أنتم للدولة أو للشعب أو للأمة عن حقك في حكم أنفسك" أي يخضع جميعنا للقانون، وهنا يمكن تعريف الحكومة العالمية بأنها رؤية تنتج عن مشروع عقد اجتماعي دولي. ولتبسيط فهم مبدأ الحكومة العالمية يمكن أن نضع كلمة دولة أو دول مكان كلمة فرد أو أفراد، وكلمتي حكومة عالمية مكان كلمة دولة أو دول.

وفي 1811 اقترح الفيلسوف الألماني كارل كراوس في مقالة بعنوان "نموذج للإنسانية" قيام خمس فدراليات إقليمية هى أوروبا وآسيا وافريقيا وأمريكا واستراليا، تتجمع كلها في جمهورية عالمية. وفي 1842 كتب شاعر إنجليزي قصيدة تنبأ فيها بمستقبل لا تسمع فيه طبول الحرب ولا ترف في سمائه راياتها ويأمن فيه الناس، ويحكمه برلمان عالمي واحد في فدرالية عالمية وتحت قانون دولي. وما بين 1852 – 1892 أسس بهاء الله المذهب البهائي، واعتبر أن تأسيس رابطة عالمية للأمم هو هدف أساسي من دينه الجديد، وتصور مجموعة جديدة من البنى الاجتماعية القائمة على أساس التشارك والتشاور بين الناس، بما فيها مجلس لقانونيين عالميين ومحكمة دولية وذراع تنفيذية لتنفيذ قرارات الأجهزة القضائية والشرعية الدولية. ومن المبادئ البهائية ذات الصلة إنشاء نظام عالمي للأوزان والمقاييس وعملة موحدة واعتماد لغة عالمية.

وابتداء من 1843 استمرت مجالس السلام الدولية تنعقد في أوروبا كل سنتين، لكنها فقدت زخمها بعد 1853 بسبب اندلاع الحروب في أوروبا وأمريكا الشمالية. وساهم إنشاء المنظمات الدولية من القرن التاسع عشر كمنظمة الصليب الأحمر 1863 ثم اتحاد التلغراف 1865، ثم اتحاد البريد العالمي 1874 مع تزايد نشاط التجارة الدولية في مطلع القرن العشرين، كل ذلك ساهم في تزايد أعداد المنظمات. ومع نشوب الحرب العالمية الأولى كان هناك 450 منظمة دولية، وتزايدت معها الأصوات المطالبة بوضع قانون دولي خلال تلك المدة، فتأسست منظمة القانون الدولي 1873 على يد البلجيكي جوستاف رولين. وفي 1886 اجتمع أول برلمان عالمي غير مكتمل النضوج، أطلق عليه اسم "الاتحاد البرلماني العالمي" حضره قانونيون من دول مختلفة، وفي 1904 اقترح البرلمان قيام مجلس عالمي ينعقد سنويًّا لمناقشة القضايا الدولية.

قد يرى البعض في نماذج قديمة بالتاريخ أشكال من حكومة عالمية كإمبراطورية الإسكندر أو الإمبراطورية المغولية أو الإمبراطورية البريطانية أو الإمبراطورية الإسلامية. وخلال النصف الأول من القرن العشرين جرت عدة محاولات لتأسيس منظمات دولية لحل النزاعات بين الدول بطرق سلمية، أشهرها مؤتمر هاجو 1899 – 1907 الذي فشل في تجنب وقوع الحرب العالمية الأولى، وعصبة الأمم 1919 – 1938 التي فشلت في منع الحرب العالمية الثانية. وقد تسببت الحرب العالمية الثانية 1939 – 1945 في دمار كبير جاءت معه بالقنبلة النووية إلى الساحة العسكرية والسياسية. وكانت بعض الأعمال التي استهدفت المدنيين في تلك الحرب على درجة كبيرة من الوحشية، وبدأت تعتبر جرائم بحق الإنسانية. ومع اقتراب نهاية الحرب تعالت الأصوات المنادية بتأسيس منظمة قادرة على منع الصراعات الدولية المدمرة. وهذا ما قاد إلى تأسيس الأمم المتحدة 1945 التي تبنت الميثاق العالمي لحقوق الإنسان 1948. والبعض يعتقدون أن الأمم المتحدة هى في الأساس منتدى للمناقشة والتنسيق بين الحكومات وأنها غير مهيئة لهذه المهمة. وعدد من الأشخاص البارزين كألبرت أينشتاين وونستون تشرشل وبيرتراند راسل والمهاتما غاندي طالبوا الحكومات بالقيام بمزيد من الخطوات نحو تأسيس حكومة فدرالية عالمية فعالة.

كانت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية وحتى 1950 العصر الذهبي للحركة الفدرالية العالمية، حيث بيعت مليون نسخة من كتاب وندل ويلكي بعنوان "عالم واحد" والذي طبع للمرة الأولى 1943، وكتب أخرى دعت لاستبدال الأمم المتحدة بحكومة فدرالية عالمية منها كتاب "علم تشريح السلام" لكاتبه إمري ريفز الذي أصبح كتابه هذا مرجع لأنصار الفدرالية العالمية. وأسس أنصار الفكرة في الولايات المتحدة 1947 ما أسموه الفدرالية العالمية المتحدة وسميت فيما بعد الجمعية الفدرالية العالمية، ثم مواطنون لحلول عالمية، وزعموا أن عدد أعضائهم وصل إلى 47,000 عام 1949.

سنة 1947 التقت في سويسرا عدة حركات من عدة دول لتأسيس تحالف عالمي سمى حركة الفدرالية العالمية، ومع حلول 1950 زعمت أنها تتألف من 50 مجموعة

تنتشر في 22 دولة وتضم أكثر من 156 ألف عضو. واستطلاعات الرأي التي أجريت في 1948 – 1949 بينت أن أغلب من استطلعت آراؤهم في 6 دول أوربية يرحبون بفكرة الحكومة العالمية، بينما رفضها أغلب من استطلعت آراؤهم في أستراليا وأمريكا والمكسيك. وفي 1953 أعلن جاري ديفيس تأسيس "الحكومة العالمية لمواطنين عالميين" على ثلاث أسس سماها "قوانين العالم" وهى: إله واحد، عالم واحد، إنسانية واحدة. ثم قام بتأسيس "السلطة المتحدة لخدمة العالم" في نيويورك، باعتبارها الوكالة الإدارية للحكومة الجديدة، ومن أولى مهامها تصميم وإصدار جواز سفر عالمي استنادًا إلى المادة 13(2) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وصدر أكثر من 800 ألف من تلك الوثائق لأفراد في العالم، واعتبرت أمر واقع في بعض الدول.

واستمر الحماس للفيدرالية في أوروبا خلال العقود اللاحقة لمولد الاتحاد الأوربي، لكن الحرب الباردة 1950 – 1990 حدت من فرص أي تقدم على صعيد الفدرالية العالمية. وعقب انهار الاتحاد السوفييتي تجدد الاهتمام في الحكومة الفدرالية العالمية وبشكل أكبر الاهتمام بحماية عالمية لحقوق الإنسان. وأكثر الإنجازات بروز كان خلال تسعينيات القرن العشرين كان إعلان روما 1998 والذي أدى فيما بعد إلى تأسيس المحكمة الجنائية الدولية 2002. وفي أوروبا اكتسب مشروع الوحدة الأوروبية الفيدرالية زخم شديد، الذي بدأ باتفاقية تجارية بين ألمانيا وفرنسا 1952 ووصل إلى معاهدة ماسترخت 1992، وتوسع الاتحاد الأوروبي حتى بات يضم نحو 450 ألف نسمة في 25 دولة 2005، واحتذى الاتحاد الافريقي النموذج الأوروبي ليتأسس 2002.

يُنظر إلى الاتحاد الأوروبي باعتباره أكثر النماذج الاتحادية الفدرالية تميز، فهو يوحد عدد كبير من الناس المختلفين والقوميات واللغات المتنوعة، والذين يحفل تاريخ بعضهم بعداوات شديدة، وهم ينتشرون في بقعة جغرافية واسعة نسبيًّا. ويحمل الاتحاد الأوروبي وهو ما يزال في طور النمو خصائص الحكومة الفدرالية، مثل الحدود الداخلية المفتوحة، البرلمان المنتخب مباشرة، نظام محاكم وسياسة اقتصادية مركزية.

وعام 1944 بعد جتماع عقد في الإسكندرية بمصر تم إصدار بروتوكول الإسكندرية الذي سجل الإتفاق على إنشاء جامعة الدول العربية كاتحاد قومي عربي، بالإضافة إلى

اتحاد دول "يوناسور" والذي استبدل ب "بروسور" الذي يجمع أمم أمريكا الجنوبية، ورابطة بلدان جنوب شرق آسيا" آسيان". والآن هناك أعداد كبيرة من التجمعات الإقليمية التي تتكتل فيها معظم أمم الأرض قطعت مراحل متفاوتة على طريق التكامل الاقتصادي وأحيانًا السياسي. ويبقى أن النموذج القاري من الاتحاد قد يساهم أو يعيق التوجه نحو تكامل عالمي. ودعت بعض الهيئات والجمعيات إلى قيام جمعية برلمانية تتبع للأمم المتحدة لتكون مؤسسة تنضم إلى مؤسسات الأمم المتحدة على أن يتمكن مواطنوا العالم من ممارسة حق انتخاب أعضائها مباشرة.

لا توجد في عالم اليوم أي مؤسسة عالمية يمتد نفوذها على سائر الكوكب سواء كقوة عسكرية أو تنفيذية أو تشريعية أو قضائية أو دستورية أو مؤسسة عالمية مستقلة لمراقبة الفساد-مثلًا. والكوكب مقسم من ناحية جغرافية وسكانية إلى بنى سياسية مستقلة يطلق عليها اسم "دول" أو "أمم"، إضافة إلى أعداد من الهيئات والمؤسسات والاتحادات والتحالفات والمعاهدات والعقود بين هذه السلطات. لكن الأمم المتحدة تعتبر المؤسسة الرئيسية لتنسيق النشاطات بين الدول، وهى الوحيدة على الصعيد الدولي التي تضم في عضويتها 192 حكومة، إضافة إلى الأجهزة الرئيسية والبرامج الإنسانية التي تملكها وأذرع مؤسسية اجتماعية واقتصادية منها منظمة الصحة العالمية، منظمة العمل الدولية واتحاد الاتصالات الدولي، ومن الناحية ذات الصلة بالسياسة/ الاقتصاد هناك البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية. ومن الناحية العسكرية تنشر الأمم المتحدة قواتها لحفظ السلام بهدف بناء وحفظ السلام بعد وقوع المواجهات في حال وقع عدوان دولي عسكري. والنظام الحالي للأمم المتحدة يفتقد الديمقراطية، حيث جاء نتيجة أمر واقع فرضته نتائج الحرب العالمية الثانية، وهو ما يزال قائم على مبادئ القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية وليس على مبادئ العدل والمساواة بين الشعوب، ويبدو ذلك أوضح ما يكون في مجلس الأمن/ حق النقض. وهناك قوات تحالف دولي وأحلاف عسكرية إقليمية مثل حلف الناتو، ومنظمة أخرى نصف رسمية مثل مجموعة الثماني/ السبع وهى مجموعة تتألف من الدول الديمقراطية الأغنى والأكثر تقدم على الصعيد التكنولوجي، ويلتقي قادة مجموعة السبع «كانت الثماني» شخصيًّا كل سنة لتنسيق سياساتهم في مواجهة الأزمات العالمية كالفقر والأمراض المعدية والتغير المناخي.

تقلص حكومات المواطن العالمي

رغم أن وجود حكومة عالمية قد تبدو فكرة مستقبلية جدًّا، فإنها ترجع إلى آلاف السنين، إذ تبناها المصريون القدماء والصينيون واليونانيون، وبالتالي فإن أفضل الفرص المؤهلة لإقامة حكومة دولية حاليًا هى الأمم المتحدة والاتحادات القارية، غير أن كليهما له معارضون وأمامه قضايا خطيرة، وقد أظهر خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي استياء شديد إزاء اتحاد بيروقراطي لا يحقق المساواة. ووفقًا لإحدى الدراسات، فإن ما يقرب من سبعة من أصل 10 أشخاص في بريطانيا يؤيدون إنشاء شكل من أشكال الحكومة العالمية تكون قادرة على إجبار الدول على التعامل مع المخاطر الكبرى التي تواجه العالم، واعتبر 62 ٪ ممن أجريت عليهم الدراسة أنفسهم مواطنين عالميين، بالإضافة إلى كونهم بريطانيين.

وفي 1947 تعاطف اينشتاين مع قضية السلام العالمي ودعم إنشاء حكومة عالمية موحدة، واعتبر أن الحماس الوطني يكون في الغالب ذريعة للعنف، فالقومية المفرطة في ألمانيا مرض، ولمكافحتها لا بد من محو الحدود السياسية بين الدول. كما أيد اينشتاين تشكيل اتحاد أوروبي خلال الحرب العالمية الأولى، وأيد أيضًا الأمم المتحدة لاحقًا، غير أنه أبدى قلقه إزاء عدم امتلاكها سلطة كافية لضمان السلام العالمي. كانت هذه الفترة عصر ذهبي لحلم الحكومة العالمية، ففي القرن العشرين وافق قادة عدد من الدول الغربية على زيادة التعاون الدولي كوسيلة لمنع الأعمال العدائية في المستقبل. وعقب الحرب العالمية الثانية تبنى الفيلسوف برتراند راسل حملة لإنشاء حكومة عالمية لمنع الصراع الدولي، وعبر عن قلقه من نشوب حرب نووية. كما أكد العالم ستيفن هوكينج حاجة البشر إلى حكومة عالمية للتعامل مع المشاكل التي تنتج عن الذكاء الصناعي، فيما أشار البابا فرانسيس إلى أن إنشاء حكومة عالمية واحدة ضروري لمكافحة قضايا رئيسية مثل تغير المناخ والأسلحة النووية.

ولن يقتصر وجود حكومة عالمية على التعاون بين الأمم، بل ستصبح كيان له خصائص تشبه الدولة ولها قوانينها الخاصة، وقد أنشأ الاتحاد الأوروبي بالفعل حكومة قارية تمتد سلطتها النسبية على 27 دولة، لديها محكمة عليا وعملة خاصة وقوانين وخدمات مدنية واسعة، بالإضافة إلى القدرة على نشر قوات عسكرية.

يمكن أن تكون إحدى مزايا وجود حكومة عالمية أن كل أنحاء العالم سيكون مسؤول عن تحقيق نفس المعايير لجودة المنتجات وسلامتها وللتلوث ولحل النزاعات، بالإضافة إلى عدم الحاجة لميزانية الدفاع الوطني للدول واستخدامها في مجالات أخرى وكنتيجة منطقية ستكون هناك حواجز تجارية أقل. وباستطاعتنا تصور مزايا أخرى كمواجهة التهديدات العالمية مثل الكوارث والحروب والمذنبات والأوبئة وحدوث تبادل معرفي أكبر بين الدول ورفع المستوى العام للمعيشة والتقدم العلمي.

ويعتقد الناس أكثر من ذي قبل أن أصعب القضايا التي تواجه الحكومات الوطنية ذات طابع دولي مثل ظاهرة الاحتباس الحراري، الأزمة الاقتصادية، والحرب العالمية على الإرهاب..إلخ. وقد أسهم التقدم في النقل والاتصالات في تقلص العالم، فقد قال المؤرخ الأسترالي جيفري بليني: «لأول مرة في تاريخ البشرية أصبح وجود حكومة عالمية ممكن"، وتوقع محاولة تشكيل حكومة عالمية في مرحلة ما في القرنين التاليين. والتغير في المناخ السياسي ربما يوحي بأن الحكم العالمي قد يأتي في وقت أقرب بكثير من ذلك، فالأزمة الاقتصادية وتغير المناخ يدفعان الحكومات الوطنية نحو إيجاد حلول عالمية، حتى في دول مثل الصين والولايات المتحدة، وهى دول تمثل نماذج شرسة للسيادة الوطنية.

ربما لا يكون بوسع الدول في المستقبل أن تكفل أمنها الخاص، حتى تسهم سلطة عالمية في التخلص من التهديد النووي. ومع ذلك من الصعب تصور أي سيناريو تثق فيه كل الدول ببعضها بما فيه الكفاية لتسليم سلاحها النووي كله إلى كيان واحد، وهذا سبب في اعتقاد بعضهم في الحاجة إلى فرض بعض الدول القوية إرادتها على الأخرى لإنقاذنا من التهديد النووي، مما قد يعيدنا إلى مخاوف سابقة بشأن الإندماج السريع الذي

ربما يثير حرب عالمية. وبعيدًا عن مسألة الأمن النووي، يفترض عديد من الأكاديميين حدوث تطور ضروري للحكومة العالمية مع مرور الوقت، كما يجادل بعض الباحثين بأن هذه العملية بدأت بالفعل، إذ تقلص عدد الوحدات الحاكمة منذ تاريخ البشرية، إذ كنا نعيش في نحو 600 ألف مملكة وقبيلة قديمًا، والآن صرنا أكثر من 200 دولة بقليل، فهل ينبئ هذا بتقلص عدد الوحدات الحاكمة إلى رقم أقل بكثير، ربما يصل فيما بعد إلى واحد؟

***

الفصل الثامن

الاقتصاد الدولي ونهاية الجغرافيا

العلوم التطبيقية خلال القرنين

من أهم خصائص القرنين ال21 و22 التلاحم بين العلم والصناعة أو التطبيق، حيث ضاقت المسافة الفاصلة بين الفكرة والإبتكار وبين التطبيق أو التحقق في مجال الواقع، هذا فضلًا عن شمولها، إذ لم تعد قاصرة على مجال واحد للعلم أو التكنولوجيا، بل شاملة كل نواحي الحياة الاقتصادية والفكرية والاجتماعية. وقد بات التقدم العلمي والتكنولوجي في سرعته المذهلة قانون موضوعي يحكم حركة المجتمعات في نموها وتطورها وعلاقاتها الدولية. وأصبح لزامًا على الإنسان أن يعي هذا القانون ليعي حركة التاريخ وإمكانية تلبية حاجات الفرد والمجتمع. وأكمَل تعبير عنها هو نظام التشغيل الآلي أو الأوتومية التي أدت إلى تراكم هائل للمعارف ومعدلات لم يسبق لها مثيل في التاريخ. وخلقت صدعًا في القيم يتمثل في مشكلة الإنتقال أو التحول الحضاري الذي لم تصاحبه رؤية جديدة أو قيم جديدة تؤكد التوازن النفسي للإنسان. ومن أخطر نتائج هذه الثورة أنها خلقت هوة تكنولوجية وإدارية تفصل الدول المتقدمة بعضها عن بعض، ناهيك عما يسمى دول العالم الثالث حتى بعدت الهوة بين بعض دول غرب أوروبا مثل فرنسا وبريطانيا وبين الولايات المتحدة. وباتت هذه الهوة تشكل تهديد خطير لرواد عصر الثورة الصناعية الأولى في أوروبا، كما أخلت هذه الهوة باتزان بنية العلاقات بين الأمم إذ خلقت مراكز ثقل وجذب ومناطق فراغ وطرد تكشف عنها على سبيل المثال حركة هجرة العقول، وهى أثمن ثروة تحدد مستقبل العديد من الأمم. ولعل الهوة التكنولوجية والإدارية أشد خطر من الهوة الاقتصادية.

وهذا حدا برئيس وزراء بريطانيا الأسبق هارولد ويلسون إلى أن يبدي تخوفه من استعباد صناعي جديد تكون فيه أوروبا تابعة للولايات المتحدة في كل ما يختص بالتكنولوجيا المتقدمة. وهو ما حدا أيضًا بروبرت ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكي الأسبق إلى القول: «إذا لم تقم أمم العالم بمجهود كثيف ومنسق بغية سد الهوة التي تتسع

بين نصفي الكوكب فلن يتمكن أحد منا من أن يضمن أمن بلده أمام الكوارث التي لا سبيل إلى تلافيها، وأمام موجات العنف التي تودي بدفاعنا أن الفوضى الاقتصادية التي كان الحدس بها نظرًا لهذه التفاوتات هى أشد تهديد لأمن الولايات المتحدة من الأسلحة النووية».

ومن أهم قضايا دول الجنوب الأزمة الاجتماعية والمعنوية المتمثلة في حركات تمرد الشباب الذي يفتقر إلى رؤية حقيقية وواقعية لمستقبله ومستقبل بلاده، بالإضافة إلى شعوره بالاغتراب ورفض القيم التقليدية. ومن أهم مشكلات دول الجنوب في محاولاتها علاج مشاكلها أنها تعالج كل عنصر على حدة وتغفل الكل ناسية أن الكل أهم وأن التغير في الجزء يغير في الكل. لست منحاز لقضية ما يسمى بالعالم الثالث، لكني أرد مشكلات العالم إلى طبيعة النظام الاقتصادي العالمي القائم على الاستغلال سواء على المستوى القومي أو العالمي، حيث أن دول الغرب الرأسمالية والطبقات الرأسمالية المحلية تعيش على استغلال الغالبية الكبيرة، وتغرس فيها نمط الاستهلاك كهدف للحياة، ليس هذا فقط، بل واستخدام سياسة العداء والمجابهة تجاه الدول النامية والفقيرة.

وفي العموم باتت مشكلات العالم شديدة التعقيد والتداخل، بحيث لم تعد تجدي المؤسسات والسياسات التقليدية في مواجهتها. لذا علينا بناء مجتمع جديد ذي طبيعة اجتماعية ينتفي فيه الاستغلال وتتأكد المشاركة الشعبية والعدالة الاجتماعية، ولا يكون الاستهلاك فيه هدف لذاته، ولا الملكية أداة للتميز الاجتماعي. يجب أن يجرى تخطيط الإنتاج في المجتمع مستهدفًا إشباع الحاجات الأساسية للناس عامة دون تمييز، بالإمكان تحقيق هذا الهدف خلال 60 سنة إذا ما رصدت الدول المتقدمة 2 ٪ من إجمالي ناتجها المحلي للمساعدة غير المشروطة لإفريقيا وآسيا.

علىnالدول النامية تحقيق هياكل اقتصادية جديدة ومستقلة مع الإلتزام بنهج يحقق التكامل بين مواردها المحلية، فالحواجز التي تحول دون تنمية الدول النامية والفقيرة هى أساسًا حواجز سياسية-اجتماعية- مؤسسية. لكن الغرب لن ينسى حظر البترول

العربي عام 1973 مساندة لحرب أكتوبر. وقد رأى الغرب في هذا الحظر افتئاتًا على حقه وعدوانًاعلى هيبته وامتهانًا لسطوته ونذيرًا بما قد يعانيه مستقبلًا على يد العالم الثالث مالك المواد الخام الذي اعتاد على مدى قرون أن يقدمها ذلولًا له. وهو ما قد يحدث مرة أخرى في شكل تكاتف دول العالم الثالث الغنية بمصادر الثروة الطبيعية من طاقة ومواد خام وتفرض أسعار مرتفعة لسلعها، مما يضر برخاء دول الغرب الغنية فيزيده قوة في مواجهتها، وهو ما يمكن أن يحدث لكن بشكل مختلف أو من خلال النمو الاقتصادي والتعاون المشترك بين الدول النامية بشكل مباشر أو في شكل تجمعات، وهذا حق طبيعي لهذه الدول، كما أن العالم ليس فطيرة محدودة متناهية.

أسطورة محاكاة النموذج الأوروبي خاطئة فللبلدان النامية سبل أخرى، وهذا على عكس ما يذهب إليه بعض المثقفين في الدول النامية، حيث يظنون أن نقل التكنولوجيا وحدها يحقق التقدم و يغفلون تمامًا العلاقة الجدلية التاريخية بين التحول الاجتماعي والثقافي والاقتصادي من ناحية وبين الابتكارات التقنية من ناحية أخرى، كما أن العبرة ليست بحيازة التكنولوجيا، بل بالقدرة على تشغيلها وتطويرها وملاءمتها مع الواقع الجديد. وهوما يعني تغييرًا جذريًّا لثقافة المجتمع ولقدرات الإنسان الإبداعية. وهناك حوالي ترليون برميل من البترول الخام تحت رمال ومياه الشرق الأوسط وهو ما يساوي 12 ترليون دولار أو ما يعادل ضعف إجمالي الثروة الحقيقية للولايات المتحدة.

وما أن ينتهي موسم الكساد هذا حتى تظهر مشكلة ملحة خلال العقد أو العقدين القادمين وسوف تتمثل هذه المشكلة في نقص خطير في العمالة بالدول المتقدمة، وسوف تظهر هذه المشكلة بوجه خاص في وظائف قاعدة السلم الاجتماعي الاقتصادي. ويعزف عدد كبير من المواطنين في البلدان المتقدمة عن أداء هذه الوظائف.

يستغنى رجال الأعمال عن استيراد اليد العاملة ونقل المصانع التي تحتاج إلى عمالة كبيرة إلى بلد نام واستخدام عمال البلد الأصليين، فهذا أوفر وأجدى في نظر أصحاب الأعمال ورجال الصناعة، وهذا الأسلوب قد يعجل من عملية التنمية ورفع مستوى معيشة دول جنوب الأرض.

سيقوم الغرب بتنفيذ مصالحه بذكاء ومرونة حتى يتجنب الإفراط في عملية نقل المصانع أو الإفراط في التبعية بالنسبة لكل من الدولة المتقدمة والدولة الأقل تقدمًا. وسيعمل الغرب على أن يضمن من ناحية حماية عدد من الصناعات الهامة ضد نشاطات معينة مثل نشاط منظمة الدول المصدرة للبترول. وسيعمل على ضمان حمايتها من الاضطراب وعدم الاستقرار والنفوذ المفرط، مثال ذلك أنه ليس من مصلحة الولايات المتحدة أن تصدر ٪90 من إنتاج صناعتها من الصلب والسيارات دون أن تضمن التحكم فيها لعشرات السنين في المستقبل، ولنسأل أنفسنا أليست قضية تنمية العالم الثالث تعني بلدان هذا العالم أولًا وأخيرًا؟ أليس في هذا الكلام ما يشكل وصاية دولة كبرى على خطط تنمية العالم الثالث؟ وأليس من حق هذه الدول أن ترسم استراتيجيتها التنموية وفق ظروفها وطموحاتها وخططها الخاصة؟

وإن قدمت الدول الكبرى مساعدة فلتكن مساعدة غير مشروطة وسدادًا لدين يؤكد مسئوليتهاعن تخلف الدول الفقيرة؟ ولكن تأبى الدول الكبرى الغنية إلا أن تؤكد سطوتها وحقها في تحديد معالم الحياة على الأرض، فيمتد نطاق سطوتها إلى اختيار من له حق الحياة والبقاء ومن تقضي عليه بالموت والفناء.

استيراد صناعة التصدير الموجهة كعامل لتنمية وتطوير الدول النامية إلى قضية أساسية تعني العالم الثالث ألا وهى نقل التكنولوجيا، فالمعروف أن التكنولوجيا في ذاتها لا تبني حضارة ولا تصنع تنمية اللهم إلا إذا تصورنا أن الهوة الفاصلة بيننا وبين العالم المتقدم هوة اقتصادية وليست هوة حضارة. هذا فضلًا عن أن التكنولوجيا هى ثمرة عملية تطورية تاريخية لحضارة مجتمع بذاته وتحمل قيم هذا المجتمع ومضمون حضارته المتمثلة في الكيان الاجتماعي الاقتصادي والثقافي للمجتمع الذي تولدت فيه. ومن ثم فإن استيرادها على نحو عفوي يشكل خطورة على المجتمع المستورد. وإنما أن يكون استيرادها على أساس انتقائي وأن تتم ملاءمتها وتطويعها وفق استراتيجية تنموية شاملة للبلد. أعني أن تتجاوز حدود الأبعاد الاقتصادية الصرفة وتستجيب للبُنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتميزة للبلد وللبيئة الطبيعة والبشرية وتتفق مع الأهداف القومية

والطريقة التي يبني بها هذا البلد مستقبله وقدراته الإنتاجية وحاجاته القومية ونماذج الاستهلاك الملائمة للخصائص القومية بما في ذلك الموارد وحجم الإنتاج القومي.

لقد أضحت الثورة العلمية والتكنولوجية مرادفًا للشركات متعددة الجنسيات، وذلك لأن زيادتها هيأت آفاق لزيادة سرعة وكمية الإنتاج على نحو لم يسبق له مثيل. كما أن الجانب الأكبر من البحوث العلمية والصناعية في العالم يجري الآن داخل هذه الشركات. الأثرياء في سبيلهم ليكونوا أثرياء على نحو هائل، ولهذا بات لزامًا عليهم أن يتعلموا كيف ينفقون ثروتهم دون أن تصيبهم تخمة أو يأس أو تبرم بالحياة التي قد تغدو فارغة أو تافهة، ومن ثم ينزعون إلى الكسل والتراخي الذي يظهر في المتع والرفاه الفاحش.

البشرية قادرة على حل مشكلاتها وإن اقتضى الأمر صراعًا وتفانيًا وذكاء وصولًا إلى مجتمع أقرب للمدينة الفاضلة الذي يسوده العدل والمساواة، ولكنه مستقبل بعيد غير مرئي قد تمضي قرون دون أن يتحقق. ويظل المجتمع العالمي ترهقه مظاهر التفاوت بين الغنى الفاحش والفقر المدقع والتخمة بين الوفرة والحاجة على الرغم من محاولات تضييق الهوة.

اقتصاد ما بعد الصناعة تصبح فيه مهمة إنتاج ضرورات الحياة يسيرة بفضل التقدم التكنولوجي والنمو الاقتصادي. ونتوقع مستقبل توفر فيه معظم البلدان خصائص مجتمعات ما فوق وما بعد الصناعة. الغالبية الساحقة من البشر سيواصلون سكنى الأرض، والنشاط الخارج عن حدود الأرض سيقتصر على عمليات الاكتشاف مع مستويات متواضعة من استغلال الفضاء. ومع أهمية نشاط الإنسان في الفضاء إلا أنه لن يؤثر تأثيرًا واضحًا وهامًّا على معدلات نمو السكان من البشر، كما أنه لن يحدث تحول جذري في معدل نمو إجمالي الناتج العالمي. والإنسان خلال القرن 21 سيبذل الجهود الفعالة في مجال الفضاء الخارجي في إقامة مستعمرات كبيرة في الفضاء يكون عملها إنتاج المواد الخام والطاقة والسلع المعمرة، سواء للإنتاج محليًّا أو لتصديرها إلى الأرض وربما لمستعمرات أخرى في المجموعة الشمسية.

نعم الاكتشافات والاختراعات الابتكارية ستحقق تقدم كبير، والقيود التي ستفرضها المواد تصبح أقل أهمية نظرًا للتقدم التكنولوجي والوفرة الزائدة، وهو ما يفضي إلى قيام مجتمع وثقافة ربما يغلب عليهما طابع شبه حضري أو قريب من المدنية أكثر من كونه طابع المدنية ذاتها و يكون النشاط الأساسي لهذا المجتمع مباراة مع وضد التنظيمات. فيتميز بأنه مجتمع بنائي يدعم التعددية التنظيمية والمهنية في توزيع السلطة والمكانة الاجتماعية.

الصعوبات الأساسية لا ترجع إلى طبيعة الأشياء بقدر ما ترجع إلى السياسات المعاصرة أو الراهنة أو إلى الإدارة العاجزة أو الأشياء العاثرة أحيانًا. والأهم من هذا كله أننا إذا وضعنا برامج ناجحة لمعالجة مشكلات قديمة فسوف تظهر حتمًا مشكلات جديدة وتتحدد أهداف جديدة، ومن ثم فإن أولئك الذين يرون النجاح الأولى أمرًا مسلمًا به قد يبدو لهم وكأن شيئًا لم يتحقق. وتصبح المعرفة قبل الخبرة –الثروة الأساسية – وتظهر باطراد مشكلة القصور المثقف.

***

خارطة الاقتصادات

خارطة القوى الحالية ستشهد تراجعات للكثير من الاقتصادات الغربية في مقابل صعود الاقتصادات الناشئة، ووفقًا لتحليل شمل 32 دولة استنادًا للناتج المحلي الإجمالي بحسب تعادل القوة الشرائية وغيرها ستتبدل الأحوال خلال العقود القادمة إلى الأفضل مقارنة بالأوضاع السائدة حاليًا، من اختلال كبير في التوازنات المالية، تدهور وضع العملة المحلية والتضخم الذي جاوز الحدود لدول كثيرة.

وصعود الاقتصاديات الناشئة 2050، وبينها الاقتصادات دول عربية، مرده القدرات البشرية الشبابية الكبيرة التي تملكها هذه الدول، فوفقًا لتقرير التنمية الإنسانية العربية الأخير، فإن ما يقارب ثلث سكان المنطقة هم من الشباب في أعمار 15 29– سنة، وهناك ثلث آخر يقل عمرهم عن 15 عام، وهو ما يضمن استمرار الزخم السكاني إلى العقدين المقبلين على أقل تقدير، ويوفر ذلك فرصة تاريخية يتحتم على الدول العربية اغتنامها. هذه الكتلة السكانية غير المسبوقة في تاريخ المنطقة من شباب في أهم سنوات القدرة على العمل والعطاء، ستكون طاقة قادرة على دفع عجلة التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي إذا أتيحت لها الفرصة.

وستواصل الصين قوتها الاقتصادية، إذ تشير التوقعات إلى بقائها في الصدارة إلى منتصف القرن مع ارتفاع كبير في الناتج المحلي الإجمالي بحلول 2050، في المقابل ستتراجع الولايات المتحدة إلى المركز الثالث تاركة مكانها للاقتصاد الهندي الصاعد بقوة في 2050. في المقابل ستحافظ روسيا على مركزها السادس عالميًّا، لكنها ستنجح في مضاعفة ناتجها الإجمالي بحلول 2050. وتسجل اقتصادات دول أوروبا الغربية تراجع كبير فاسحة في المجال أمام الاقتصادات الناشئة. التقهقر الألماني والبريطاني والفرنسي سيجعل الفرصة مواتية لصعود الاقتصاد الإندونيسي والمكسيكي والبرازيلي والمصري.

ويشير تقرير برايس وتر هاووس إلى أن الاقتصاد العالمي سيتباطأ مع مرور الوقت، لكنه سينحو نحو الاعتدال الملحوظ في معدلات النمو بعد 2020، الأمر الذي سيدفع أكثر إلى الاستقرار الاجتماعي نسبيًّا. ويفسر هذا التحول خارطة القوى الاقتصادية المسيطرة مع حلول منتصف القرن الحالي، والاقتصاديات الناشئة ستخلق مستقبل مناخات جاذبة للاستثمار ووجهات للعمل والعيش وخاصة جذب المواهب مع توجه بعض الدول ذات الاقتصاديات المتقدمة إلى الحمائية، كما حدث في الخروج البريطاني من الاتحاد الأوروبي أو المواقف الاقتصادية التي أطلقها الرئيس الأمريكي.

وهناك تقارير عن اقتصاديات 2050، تشير إلى أن الاقتصاد الياباني قد يحتل المركز الرابع وأن الاقتصاد الإندونيسي قد يتفوق على الاقتصاد الألماني والروسي- ولكني لا أرجح ذلك- بينما سيتراجع الاقتصاد البريطاني إلى المركز العاشر.

وعربيًّا قد تحتل السعودية المركز الأول عربيًّا والثالث عشر عالميًّا، أما الاقتصاد المصري فسيحتل المركز 19 عالميًّا والثاني عربيًّا والأول افريقيًّا، ولكنى اختلف مع معظم ماجاء، فسوف يحتل الاقتصاد المصري الأول عربيًّا وافريقيًّا ومن السابع عشر إلى 12 عالميًّا، وربما يكون من بين ال8 الكبار إذا تحققت بعض الأمور.

***

فهرس المحتويات

مقدمة 5
الجزء الأول: سيطرة علمية على البشرية 7
الفصل الأول: الحضارة الكوكبية 11
تمايز الحضارة الكوكبية 13
العالم حتى 2030 16
العالم من 2030 حتى 2050 22
العالم من 2050 حتى 2100 27
نهايات الفلسفة والدولة والأيديولوجيا (2140-2180) 30
2145 حتى 2200 «التحكم في الطبيعة كنموذج» 35
تبدلات جيو بيئية إلى ما بعد 2200 48
الفصل الثاني: التحكم في المادة والحياة والذكاء والأوتومية 53
العلم خلال المائتي عام 55
بشرية خضراء معطرة 59
يوجينيا الإنسان الفائق 64
تقنيات النانو 69
الجزء الثاني: السياسات الكوكبية العامة والصراع على القمة 75
الفصل الثالث: الاستراتيجيتان الأمريكيتان «العظمى» و«الكبرى» 81

فرط السلسلة العالمية 84
استراتيجية زعامة القرن ال21 89
انتخاب منطقة أو دولة محتملة التفوق 100
الفصل الرابع: التنين المتعاظم 107
النزاع والصدام بين الولايات المتحدة والصين الشعبية 109
فكر محليًّا واعمل كوكبيًّا 114
أجيال ركائز قيادة الصين كنموذج 117
استراتيجيتي تطويق البر والبحر 121
الفصل الخامس: القوى الروسية غير المكبوحة 125
«روسنة» في مقابل «أمركة» 127
العالم في الصياغة الروسية الجديدة 131
المنطقة الأوراسية بين استراتيجيات روسيا وأمريكا 136
الفصل السادس: الخرائط الاستراتيجية للإتحادات القارية 143
فيدرالية فرنسية أم سيطرة ألمانية؟ 146
إفريقيا التي يريدها الأفارقة 151
الشراكة الاقتصادية لآسيان وعبر الهادي 154
اتحاد اقتصادي تجاري 157
بروسور: تطور نحو الإتحاد 161

الفصل السابع: اتحادات ما بعد الغد 163
الأوراسية كاتجاه عالمي لتعدد الأقطاب 165
الإتحاد الخليجي كنموذج للوطنية القارية 169
من الإتحادت الإقليمية إلى الإتحاد العربي 172
الحكومة الكوكبية 175
تقلص حكومات المواطن العالمي 181
الفصل الثامن: الاقتصاد الدولي ونهاية الجغرافيا 185
العلوم التطبيقية خلال القرنين 187
خارطة الاقتصادات 193